

دَعْوَةُ الْحَقِّ

نظرات
في قصص القرآن

وَقَفَّيْنَا عَلَى الْبَنِي إِسْرَءِيلَ بِالنَّارِ الْمُرَّةِ
THE PRINCE OF ALI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT
Est. 2012 CE

٢

محمد قطب عبد العال

السنة السابعة - العدد ٧٧ - شعبان ١٤٠٨ هـ - مارس ١٩٨٨ م







قال تعالى :
﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا
الْقُرْآنَ﴾

(صدق الله العظيم)

وَقَفَّيْنَا لِأَمِيرِ غَازِي الْفِكَرِ الْقُرْآنِيِّ
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT
Est. 2012 CE



مدخل

القصة في القرآن الكريم على جانب كبير من الأهمية فهي قالب تربوي وإعلامي تنفذ من خلاله الدعوة إلى القلوب فتهزها . وإلى النفوس فتفتنضها ، وهي تحتشد بعوالم زاخرة وبحيوات متغيرة ، وبأشخاص متنوعة ، وبصراع يدور بين خير وشر ، وعدل وظلم ، فتثير في النفس العواطف ، وتجذب القلوب وتبهيء العقول إلى الترقب والتلقي فالفعل والمسلك .

وإذا كانت القصة في القرآن تنطلق من منطلق ديني وعقائدي ، فإنها قد وُفِّت بمطلوبات الفن القصصي وتضمنت خصائصه وعناصره وأنواعه وتنوعه وأهم ملامحه .. ولكن ذلك كله جاء على طريقتها الخاصة ووفق المنهج القرآني في إيراد القصص ، والنظام القصصي في حلقاته ومواقفه وملاءمته مع السياق القرآني وموضوعات السور القرآنية .

فالقصة القرآنية توزع على سور القرآن الكريم توزعاً يربط القصة أو الجزء من القصة بالغرض الديني . وهذا الربط متناسق مع الموقف السياقي للقصة . ذلك أن القصة القرآنية ليست عملاً فنياً مستقلاً بذاته وإنما هي إحدى وسائل القرآن لتقديم العقيدة . ومن ثم فهي أداة تعبيرية تمتزج امتزاجاً عضوياً بين الغرض الديني والغرض الفني .

والإنسان مهياً إلى أن يجذبه ما في القصص من أفكار وخيالات وأحداث وسرد جميل له طلاوته ورونقه التعبيري ، مما يجعل القصة أداة فعالة في تشكيل الإنسان وتكوينه تكويناً فكرياً ووجدانياً وعقائدياً ، على نحو مقصود الهدف والغرض . والقصة القرآنية لعبت وتلعب هذا الدور الخطير في صياغة الإنسان المسلم صياغة جديدة ومتجددة ، بحيث يتقبل - في ثقة قادرة مطمئنة - ما يناط به من أمور دينية .

وقد أدرك رسول الله ﷺ الدور الخطير الذي تقوم به القصة ، فاستخدمها من أجل إبراز الهدف الديني والتربوي باعتبارها وسيطاً مؤثراً في الوجدان والفكر والسلوك ، وقد كان ﷺ يضمن قصصه معاني عظيمة ومثلاً علياً وقيماً أخلاقية علياً رفيعة .. في إشارات تضمنينية يساعد على توصيلها إلى السامع أو المتلقي روعة التصوير وجمال السرد ، وإثارة التشويق والقبض على أحداث القصة وأنفاس السامع معاً ..

والقصة كوسيط مؤثر حظيت بمكانة عالية في القرآن الكريم ، فلا تكاد تخلو سورة من قصة أو من جزء من قصة ، أو من إشارة إلى قصة - أو تسجيل هدف سريع لقصة إشارية سريعة .. وهي في جميع الحالات تراعى في الصياغة التعبيرية حسن الملازمة بين الغرض الديني الذي وردت فيه وجاءت من أجله . ودراسة الإشارات النفسية والدينية في القصة القرآنية يكشف عن علاقة الشعور الديني بالعاطفة وارتباط الجانب العقيدى بالنفس ، لما تتضمنه القصة من إثارات متنوعة ، وتجارب دينية مختلفة كان

الإنسان محورها ، ومن دعوات سماوية استفزت مشاعر الداعية والمدعويين على السواء - وتولد عنها صراع طويل بين الحق وأهله ، والباطل وناسه ، وكانت عين القصة القرآنية تسجل وترصد ، وتوازن الحق وأهله ، وتصور ما حاق بالكفر وناسه . والقصة القرآنية أقدر الفنون على تصوير المعاني المجردة إلى وقائع محسوسة ، وصور مجسمة ، ومشاهد مصورة ، مما تؤدي إلى التفاعل فالتأثر الوجداني العميق .

ولقد سجلت القصة القرآنية وحدة الرسائل السماوية وجوهر الديانات ومحورها الأكبر وهو التوحيد وإقرار العبودية لله وحده ، فضلاً عن بيان الأثر الفعال في سلوك الإنسان بوصفه مجالاً لحركة القصة ومقصدها . . . ومن ثم تسجل جانب الخير والتناسق المنسجم مع سنن الله في الكون ، من حيث الفطرة الصافية ، والتوجه الديني الصحيح ، وكذلك تسجل في الجانب المقابل .. الضلال وانطباس الفطرة المؤدى إلى النهاية المؤلمة ..

ولقد جاءت القصة القرآنية في أنواعها وتنوعها - لترصد في صور مجسمة تلك المعركة الأبدية بين الخير وقادته ، والشر وأهله . سواء جاءت على هيئة المثل أو جاءت في نسق تاريخي ، أو عبرت عن الجانب النفسي في الإنسان ، أو وشت بجوانب تعليمية تصقل العقل وتفتح الإدراك ، أو أشارت في رمزية سريعة إلى قصص كانت خلف الرمز . أو سيقّت لهدف العظة والعبرة .. فهي في كل هذه الأنواع أداة راصدة لحركة الفعل البشري بين حركتين كبيرتين ، حركة الإيمان وما يقابلها من حركة الكفر .. كما أن طرائق

التنوع في الشكل القصصي من إبراز المشاهد الحسية ، ومن إجمال وتفصيل وبسط وإيجاز ، وطول في القصص وقصر ، وطريقة التعامل مع القصة من حيث زمن البدء وتناميها مع موضوع السورة والسياق ، وإبراز الحوار والمفاجآت في الاطار التعبيري المتوحد ، فضلاً عن الاثارة والتشويق ، والرمز . والفجوات المتصورة عقلاً .. وغير ذلك .. من ألوان التنوع .. بسطته القصة القرآنية في مجاله الموضوعي والديني ، ليتضافر ذلك كله في وحدة فنية كاملة ، تقي بالغرض الديني والفني معاً .

وهذه الدراسة تتناول أنواع القصة وتنوعها في إطار البحث والتحليل عبر السرد والحوار وإبراز الصورة وتوضيح العظة والعبرة . مما ينمي طاقة الفرد المسلم النفسية والروحية وتمنحه متعة فنية خالصة .

وإنتى إذ أقدم هذه الدراسة ، لأسأل الله سبحانه وتعالى أن يتقبل منا ، وأن يجعل مما نكتب ضياءً نستكشف به بعض الفيض من كنوز القرآن الكريم ، كتاب الله ، ودستور المسلمين .

محمد قطب عبدالعال

أنواع القصة القرآنية

ساق القرآن الكريم قصصه للعبرة والعظة ، وفي ذلك السياق يتجلى الصراع بين الخير والشر وتتضح الوسائل الفاعلة لتغليب الخير ، ولإبراز الهدف الديني الكلي وهو وحدة الأديان ، ووحدة الرسالة الإلهية ، ذلك أن جوهر ذلك كله هو التوحيد ، وخلوص العبادة لله مبرأة من الشرك ، والخرافة والوثنية .

والقرآن الكريم كتاب دعوة إلى معرفة الحق وهو الإيمان بالله . ووسائل الدعوة إلى الله كثيرة ومتنوعة والقصة إحدى هذه الوسائل الفعالة التي استخدمها القرآن الكريم لإبلاغ الدعوة وتوضيح أطوارها وكشف الماضي السحيق منها . والقصة القرآنية شأنها شأن الوسائل التعبيرية الأخرى التي تدعو إلى وحدانية الله عن طريق تصوير مشاهد يوم القيامة ، والجنة ، والنار ، والنعم والعذاب ، وكذلك شأنها شأن الأدلة على البعث والجزاء ، وعلى القدرة الإلهية ، وعلى تفرد الله بالخلق والموت والإحياء .. وكذلك الشرائع التي فصلت والأمثلة التي ضربت (١)

وهي في مجملها مواقف تقتضي العظة والعبرة ، وتدعو إلى التأمل والتفكير وتبعث على الاقتناع الكامل وتؤكد على وحدانية الله

(١) نظرات في قصص القرآن ج ١ ص ٣٩ .

ووحدة الرسالة الإلهية .

والقصص في القرآن فيه إيناس لرسول الله ومؤازرة له وتثبيت لقلبه عبر قصص أخبار الأنبياء والرسل في صراعهم الضاري ضد قوى الطغيان والوثنية والشرك .

وهي من هذه الوجهة - وجهة القص التاريخي - يتحدى القرآن بها العرب ، كما تحداهم بإعجاز القرآن في أسلوبه ونظمه ، وهي أيضاً دليل قطعي على أن القرآن وحى من الله .. فما كان الرسول ﷺ يدرى شيئاً وهو في بطن الغيب عن تلك الأخبار والقصص الصادقة التي تناولت الأنبياء والأمم . ولقد أورد القرآن تلك الحقيقة .. في آيات كثيرة .. منها قوله تعالى : في سورة آل عمران ﴿ وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ (١) .

فالقصاص شعبة جليلة من شعب القرآن الكريم ، اختصه الله منه بنصيب كبير ، لمكانه من الدعوة ، وحسن بلائه في المعاونة على أدائها . فإن تكن شعبه الأخرى هدى وإرشاداً وشرعاً ونظاماً وتقويماً وإصلاحاً - فإن القصص هو الزاد الإلهي الذي يمد الله به رسوله في رحلته البعيدة المدى ، الكثيرة الهموم ، الثقيلة الأعباء ، تحف من حولها المكار والمكاره والشور (٢) . ولقد تعرض ﷺ إلى أزمات نفسية وعصبية بلغت حدّ المساومة في الوحي وإنكاره ، علّهم يفتنونه أو يؤثرون في موقفه الإيماني الراسخ . ولقد سجل القرآن

(١) سورة آل عمران آية ٤٤ .

(٢) مع القرآن الكريم دراسة مستلهمة ص ١٩ .

الكریم هذه المواقف فقال تعالى ﴿فَلْعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ
 إِنَّ لَمْ يَؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾^(١)
 ولأن القصص أحفل بالأسوة وأعمل في النفس وأبعث على
 الطمأنينة والرجاء فقد وردت على أنواع ، يخاطب كل نوع جانباً من
 جوانب النفس البشرية - حيث يقرن العمل بالجزاء ، فيسرى
 الهدف الديني والموعظة الحسنة سرياناً حياً ، فيتمكن المغزى من
 القلب ويختلط بمشاعر الوجدان .

(١) سورة الكهف آية ٦ .

القصة المثل

المثل نوع من التعبير الأدبي ، يبرز المضمون في صورة حسية . كما يقرب المعنى ، ويكشف الحقائق ، ويجمع المعنى الرائع في عبارة موجزة ، تثبت في الذهن .. وتدفع إلى الاقتناع والتأسي وإلى العظة والعبرة .

ولقد ورد المثل في القرآن الكريم على نوعين كبيرين :
الأول يوجه النظر إلى حقائق الوجود ، وإلى ملكوت الله ومخلوقاته . وهو إذن يضرب كإشارة رمزية لإبراز الحقائق التعبديّة للتأثير في فهم القارئ وإيضاح المقاصد له .^(١)

والأمثال تبرز المعقول في صورة المحسوس ، وتكشف عن الحقائق ، وتقرب المعاني إلى الأفهام وتعرض الغائب في معرض الحاضر (وتجمع المعنى الرائع في العبارة الموجزة السهلة ، وتثبت المعنى في الذهن وتسهل طرق الوعظ والتأسي ، وتدفع إلى الاقتناع بأوجز سبيل)^(٢) .

ولا شك أن الأمثال القرآنية سبيل من سبل القرآن الكريم إلى العظة والعبرة .

(١) القرآن كتاب أحكت آياته أحمد محمد جمال جـ ٣ ص ١٦٤ .

(٢) التعبير الفني في القرآن ص ٢٢٨ د . بكرى شيخ أمين .

ولقد ذكر الله سبحانه في القرآن أنه يضرب الأمثال ويبين الحقائق .

وضرب الأمثال تقرب الحقائق وتوضح المعاني الكلية بالمشاهد الجزئية وتستدل بحال الحاضر على الغائب .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا ..﴾

والآية تبرز اختلاف الناس في تلقى الدليل .. فريق يصغى إلى الحق ويأخذ به وفريق يصيبه العناد والضلال .

ويأتى المثل في مجال التحدى حيث يظهر عجز الأصنام والآهة ومن يعبدونها . على حين يؤكد على القدرة الإلهية في كل شيء ..

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ . إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ . وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ .. مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (١)

فالدليل واضح وقاطع على إقامة الوجدانية . فالقدرة هنا واضحة ، أما العجز فواضح في جانب الوثنية ، فإنهم عاجزون عن خلق حشرة ضعيفة مستحقرة كالذباب ، بل إذا سلبتهم الذبابة شيئاً فهم عاجزون عن رده .. إنهم والذباب سواء في الضعف والعجز والحقارة . ومن ثم يثير المثل التساؤل الملح على العقل الواعى (كيف يكون الذين يدعونهم آهة ، أمام قدرة الله ؟ وكيف يعبدونهم معه ،

(١) سورة الحج آية ٧٣ - ٧٤ .

وهم لا وجود لهم .. وهذا المثل سيق مساق الاستدلال وكان دليلاً قوياً ، إن كانوا طلاب حق يلتمسون الدليل عليه ، وإن كانوا طلاب باطل ضلوا سواء السبيل ، لا يزيدهم الدليل إلا كفرة^(١) .. ولا شك أن ضرب المثل تمثيل يقرب الحقائق في صورة حسية وفي نسق تعبيرى أخاذ يأخذ باللب ، ويوضح المعنى وضوحاً كاملاً .. مما يوحى بأن ثمة تحدياً في سوق الدليل ، وافحاماً للمعارضين ، وإرشاد المدركين إلى الحق وتوجيه النظر إلى الحقائق ..

ومن الأمثال التي تساق مساق الدليل .. قوله تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ، وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِمَّا رَزَقْنَا حَسَنًا فَيُنْفِقْ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢)

ويوضح المثل حال رجلين أحدهما عبد مملوك لا يقدر على شيء لأنه مملوك لغيره ، فلا مال له ، ولا حرية له ، وعجزه عن التصرف واضح ، وحال الرجل الغنى ، الذى رزقه الله رزقاً وفيراً .. وبين المثل أن الحاليتين لا تستويان .. إن التسوية غير معقولة بين من له مال يعطى منه غيره أو ينفق منه فى الخير سراً وجهراً . وبين المملوك الذى لا مال له . وإذا كانت التسوية غير معقولة ، فتسوية أولئك المشركين بين الأحجار التى لا تضر ولا تنفع ، فى عبادتها مع الله تعالى .. الذى له ملك السموات والأرض أبعد عن كل معقول ..

(١) القرآن المعجزة الكبرى ص ٣٥٩ .

(٢) سورة نحل ٧٥ .

وذلك برهان على بطلان الشرك كله^(١) .

كما أن هذا المثل ضرب أيضاً للحرية والعبودية المعنويتين (فهنا قيود الجهل والثنية والشهوات ، وهناك انطلاقات التوحيد والمعرفة والأخلاق الفاضلة تنفع وتنتفع)^(٢)

ولعلنا نلاحظ أن كلمة «مثلاً» وردت في صدر الآيات ، وهي صيغة صريحة تدل على المعنى منذ البدء . ذلك أن الغاية من ضرب المثل هو الابانة عن موقف من المواقف ، أو صورة من الصور ، أو مسلك من المسالك .. أو غير ذلك .. في إطار محسوس من الدلائل الحسية . يكشف عن معنى ديني عميق . وثمة أمثلة مرسلّة تتضمن جملاً أرسلت إرسالاً من غير تصريح بلفظ التشبيه ولم تتضمن كلمة (مثل) .. وهي نوع يشبه المثل السائر الذي ورد قديماً وحفلت به كتب الأدب والذي يتصف بالإيجاز وإصابة المعنى ..

ومثل هذا النوع في القرآن اكتسب صفة المثل «لشيوعه في الناس بعد زمان طويل من نزول القرآن .. وهي أمثال تحمل مبادئ خلقية ودينية مركزة»^(٣)

من ذلك قوله تعالى ﴿أليس الصبح بقريب؟﴾ وقوله ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ وقوله ﴿الآن حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ . وهو نوع ليس له من سبيل في دراستنا .
أما النوع الثاني من المثل فهو أدخل إلى فن القصة . وهو

(١) القرآن المعجزة الكبرى ص ٣٦٢ .

(٢) القرآن الكريم كتب حكمت آيات ج ٣ ص ١٦٥ .

(٣) تعبير لغوي في القرآن ص ٢٣٢ .

موضوعنا الذى نتناوله ، حيث يغلب على «القصة المثل» اتجاه موضوعاتها إلى السلوك الإنسانى إزاء رسالة الله ودعوته إلى التوحيد ، وحث النظر إلى التأمل فى ملكوت الله ومخلوقاته ووحدانيته إنها «قصص وقعت وأخبار حدثت وهى صدق وحق»^(١)

والقصة القرآنية تبنى أحداثها ووقائعها على الصدق والحق مبتعدة فى ذلك عن الوهم والمبالغة ، وهذا الصدق إما أن يكون واقعياً وهو ما يتصل بالجانب التاريخى وإما أن يكون موضوعياً وهو ما يتصل بالجانب التمثيلى فى القصة المثل .

وتأثير القصة المثل يكمن فى صدقه الموضوعى والفنى وفى تشخيص المعانى المحودة والتوجيهات التربوية التى تضمنها فى شكل عملى تطبيقي يمكن من تصورهما وإدراكهما . وتنبئ الوجهة الموضوعية فى التمثيل بأشخاص غير معينين لم تذكر القصة أسماءهم فى واقع التاريخ ولكن وجود أمثالهم فى واقع الحياة ممكن ، وذلك من حيث موافقهم وتصرفاتهم التى تملأها نوازع نفسية راسبة فى شعور الإنسان لأنها من طباعه وفى غرائزه^(٢)

... وتأتى قصة (أصحاب القرية) كنموذج «للقصة المثل» .. ولقد وردت فى سورة يس .

قال تعالى : ﴿واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون . إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا

(١) القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته جزء ٣ ص ١٦٥ .

(٢) سيكولوجية القصة فى القرآن ص ٢٤٧ .

إليكم مرسلون . قالوا ما أنتم إلا بشرٌ مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون . قالوا ربنا يعلم إننا إليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ المبين . قالوا إننا تطيرنا بكم لننُ لم تنتهوا لئرجمنكم ولنمسنكم منا عذابٌ أليمٌ . قالوا طائركم معكم أنن ذكركم بل أنتم قومٌ مسرفون . وجاء من أقصى المدينة رجلٌ يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون . وما لى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون . أتأخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضراً لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقدون . إنى إذا لى ضلال مبين . إنى آمنن بربكم فاسمعون . قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومى يعلمون . بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين^(١)

هذه الآيات الكريمة تحكى قصة أهل القرية مع الرسل .. وهى وردت فى سورة يس والسورة مكية تناولت قضيتى الإيمان بالبعث ، والأدلة على وحدانية الله ، ومن هاتين القضيتين الكبيرتين ساق القرآن الكريم «القصة المثل» - لبيان أن الطغاة الوثنيين فى كل عصر وأوان - ومنهم طغاة مكة وثنيوها - يواجهون رسل الحق بالكذب والقتل ، والعناد والمنافرة ، وهى فى سياقها تحذير من عاقبة التكذيب بالوحى والرسالة ، كما أنها عظة وعبرة لمن يتعظ ويعتبر بما حدث لمن سبق من المكذبين ، فضلاً عن أنها وسيلة نفسية ، لمؤازرة الرسول ﷺ فى موقفه الوجدانى إزاء كفار مكة وجهلائها .

والقرية مورد المثل هنا .. هى قرية «انطاكية» .. كما ورد فى

(١) سورة يس الآيات ١٣ - ٢٧ .

كتب المفسرين .

وكان أهلها يعبدون الأوثان ، الأمر الذى جعلهم يتشاءمون من دعوة الرسل إلى التوحيد الخالص ، واعترضوا على الرسل بشرتهم .. وهو اعتراض متكرر فيه سذاجة وقصور ادراك ذلك (أن الرسالة منهج إلهى تعيشه البشرية . وحياة الرسل هى النموذج الواقعى للحياة وفق ذلك المنهج الإلهى . النموذج الذى يدعو قومه إلى الاقتداء به . وهم بشر . فلا بد أن يكون رسولهم من البشر ليحقق نموذجاً من الحياة يملكون هم أن يقلدوه)^(١)

ولقد كان الرسول ﷺ يواجه ذلك الاعتراض وذلك التكذيب نفسه .
وقد جاء التوجيه إلى الرسول ﷺ ليضرب لقومه هذه «القصة المثل» .. لعلهم يتعظون ..

فتلك القرية الكافرة ، الجاحدة بنعم الله ، العابدة للأوثان ، أراد الله أن يخرج أهلها من الظلمات إلى النور فأرسل إليهم رسولين يحملان دعوة الله إلى الوحدانية . فووجها بالتكذيب والعناد ، فأزرها الله برسول ثالث ..

.. وكان الحوار الذى دار بينهم يحمل فى طياته أبعاد الموقف .. موقف الإيمان وموقف الكفر ، فى صراعها وجلبها المرير .. إلى أن ينتصر الحق .. أو تنزل لعنة الله على الكافرين ..

● ها نحن يا قوم رسل ربنا إليكم لنخرجكم من الظلمات إلى

(١) فى ظلال القرآن - مجلد ٥ ص ٢٩٦١ . الشروق .

النور .. وتبدو العقلية الجاهلية جلية واضحة ، فى ردها على الرسل .

- كيف ، وأنتم بشر مثلنا .. إنكم تدعون الكذب .. فالله ينزل حياً وأنتم كبشر لا تفضلوننا فى شىء ..

ويخرج الخطاب من الخبر إلى التأكيد ، أمام هذا الانكار وهذا العناد .

● إن الله يعلم أننا رسله إليكم - وليس علينا إلا أن نبلغ رسالته .. تلك الرسالة التى تدعوكم إلى نبذ الوثنية وعبادة الله وحده لا شريك له .. ويتأفف أهل القرية بما طبع فيهم من جهل وحمق وسفه وعناد

وثنية ..
وهم لا يأخذون البلاغ مأخذاً يقينياً ، ولا يطيقون الدعاة فتأخذهم العزة بالإثم ويصرحون فى وجوه الرسل ..

- إننا نتشاءم منكم ونتوقع الشر من دعوتكم .. وإن لم تنتهوا نعذبكم .. إن القول بالتشاؤم خرافة من خرافات الجاهلية . وهؤلاء الرسل يظهرون لقومهم خرافة هذه الدعوة . وأن الخير والشر لا يأتيهم من خارج أنفسهم بل هو معهم يصحبهم أينما ذهبوا وحلوا ..
● إنكم قوم مسرفون فى العصيان والضلال .. فأتمم تتشاءمون بمن يجب أن تتبعوهم فى دعوتهم إلى التوحيد .

وإلى هنا يتبدى الموقف على الحقيقة . فهؤلاء القوم يعاندون ويستكبرون ويتشاءمون ومن ثم يرفضون الدعوة .. ويُظهر الحوار طبيعة الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويكشف عن طبائع

الرسل النيرة ، المنيرة ، وعن طبائع أهل القرية المظلمة ، القاسية الظلمة .

وينتقل سياق القصة إلى موقف آخر ، موقف مؤازر للرسل ، موقف المؤمن المهتدى ، وهو موقف يتضاد تماماً مع موقف أهل القرية الذين ضلوا وينتقل السياق من الحوار إلى السرد ، ليضيف للقصة حدثاً جديداً يحدد الموقف ويدفع بالصراع الدائر إلى نهايته .

فها هو رجل يستجيب لدعوة الحق ، إنها استجابة الفطرة السليمة ، وكان رجلاً مأزوماً في نفسه أو في أهل بيته ^(١) ، ويواجه الرجل المؤمن قومه قائلاً : يا قوم إني أنصح لكم ، فأمنوا بما جاء به الرسل واتبعوهم .. وكأنما يلمح في عيون القوم نظرة دهشة وتعجب ، تحمل انكاراً لهذا الموقف - نظرة تعرض به وبشرفه ، فيسرع قائلاً .. وناصحاً .

- إنهم والله صادقون في دعوتهم ، لا يطلبون أجراً ولا مغناً .. إنكم ترحبون معهم خير الدنيا والآخرة .

ويبدو أن الرجل كان فقيراً في قومه ، وكأن نظرة القوم الساخرة المباغطة فيها إدانة للرجل .. وكأن لسان القوم يقول : ما الذي

(١) قيل إنه حبيب النجار وإنه كان مجنوناً فبريء من مرضه فأمن . وقيل أن ابنه كان مريضاً فعوف وأمن . وقيل أنه كان نحاشاً للتأثيل . وقيل أنه كان يحبك الثياب .. وعن رسول الله أنه قال : سُبَّاقُ الْأُمِّ ثَلَاثَةٌ لَمْ يَكْفُرُوا بِاللَّهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ : عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ . وَصَاحِبُ يَسَ . وَمُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ . وَالْقُرْآنُ لَمْ يَتَعَرَّضْ لِلذَّكَاءِ كُلِّهِ . وَإِنَّمَا سَيِّفَتْ لِلْعَبْرَةِ .

انظر : الكشف ج ٣ ص ٢٨٣ . الظلال مجلد ٥ ص ٢٩٦١ . صفوة التفسير ج ٣ ص ١١ وكذلك القرطبي وابن كثير .

حملك على ذلك ؟ أهو فقرك : أهى حاجة تحتاجها ! أم أنهم أعطوك فتملكوك بما أعطوا ؟ ...

والسياق يدعو إلى هذا .. فيسارع الرجل المؤمن إلى القول .. وهو يحسنه ، وهو يؤمل ألا ينزل عليهم منزل سوء .. فيستأثرون منه .. وتضيق الحكمة من الحوار .

– ما الذى يمنعنى يا قوم من أن أعبد خالقي الذى أبدع صورى : إنه الله الواحد الذى إليه مرجعكم يوم القيامة .. يا قوم ما أقبح ما تفعلون ، كيف تتخذون أصناماً آلهة لا تضر ولا تنقذ أو تشفع من عذاب الله ..

وبواجه القوم حداً حاسماً ، مؤمناً قوياً ، يعنى نفسه ، وهو يقصد قومه .
– إبنى يا قوم لو فعلت ذلك لكنك من الضالين ، وحاشاى أن أفعل ذلك .

.. ها أنذا أعلن إيمانى .. يا أيها الرسل .. إبنى أو من بدعوتكم .. أو من بالله واحداً لا شريك له – فاسمعوا ما أقول .. إبنى أشهدكم على ذلك ..

.. وينتقل السياق السردى إلى موقف آخر .. موقف النهاية .. حيث لم يمهل القوم المؤمن .. فقتلوه . وها هو الستار يسدل على الدنيا ويفتح على العالم الآخر .. لنطلع على ما اذخر لهذا الرجل المؤمن الصلب الشهيد فى الحق .. إنه الفوز بالجنة وهو فى هذا النعيم يتمنى لو أن قومه يرون النعيم الذى يحفل فيه ليتعرفوا إلى الحق ويؤمنوا به .

وإذا كان ذلك هو جزاء الإيمان فإن الطغيان ووجه بصيحة واحدة أخمدت أنفاس الطغاة . فما كانت عقوبتهم إلا صيحة واحدة صاح بهم جبريل فإذا هم ميتون لا حراك بهم . قال المفسرون . وفي الآية استحقار لإهلاكهم فإنهم أذل وأهون على الله من أن يرسل الملائكة لإهلاكهم^(١)

تلك قصة تاريخية جاءت على هيئة المثل .. لاحتمال وقوعها ، ومن ثم برز فيها العظة والعبرة التي تتجدد بتجدد مناسط الإنسان في نظرتة إلى الكون والحياة ، وابتعاده أو قربة من العقيدة .

ولقد ضرب الرجل المؤمن مثلاً فريداً في التضحية بالنفس والشهادة في سبيل المعتقد الديني ، مثله في ذلك مثل أصحاب الأخدود . وإذا كان الموت لا بد منه كما يقول ابن تيمية في الجواب الصحيح ، فالوقت الذي تحصل به سعادة الدنيا والآخرة أكمل^(٢) وأوجب وأدخل إلى الإيمان والفوز بالجنة .

ومضرب هذه «القصة المثل» موجه إلى مشركي مكة الذين كذبوا الرسول ، وفيها إنذار بالعذاب مثلما حدث لأصحاب القرية . ومن محاسن التنزيل الحكيم وبلاغته الخارقة ، الإيجاز في القصص والأنباء والإشارة إلى روحها وسرّها لأن القصد من القصص التذكير والاعتبار ، ولهذا لم يذكر في القصة إسم البلدة ولا إسم الشخص الذي دعاهم إلى الله ولا الرسل الكرام ، لأن كل ذلك ليس هو الهدف من القصة^(٣) وعدم إفصاح القرآن عنها

(١) صفوة التفاسير ج ٣ ص ١١ . (٢) سيكلوجية القصة ١٥٨ .

(٣) صفوة التفاسير ج ٣ ص ١٣ .

دليل على أن التحديد لا يزيد شيئاً في دلالة القصة وإيحائها ، ومن ثم مضى إلى صميم العبرة ولبابها^(١)

والتعبير القرآني يؤلف بين الغرض الديني والغرض الفني فيما يعرضه من الصور والمشاهد القصصية . ذلك أن قصة «أصحاب القرية» جمعت بين لونين فنيين مؤثرين في الوجدان ، السرد وجاء عرضاً متمثلاً في حضور الرسل ومجيء الرجل المؤمن مع فجوات لاحظناها تثير الذهن وتستحوذ على مخيلة المتلقي ، والحوار الذي يعطى حيوية وتأثيراً يشدان السامع إلى المتابعة ومن ثم الجدل والمحاورة . ولقد كشف الحوار - علاوة على الهدف الديني - جوانب الشخصيات المتحاور ، شخصية الداعي والمؤمن والكافر الخالد - بحيث تبدى لنا الشخصية معبرة عن نفسها وعن موقفها . (فالقن والدين صنوان في أعماق النفس وقرارة الحس ، وإدراك الجمال الفني دليل استعداد لتلقي التأثير الديني)^(٢) ..

● ولنضرب نموذجاً آخر من «القصة المثل» يتجه إلى التوجيه والتأديب والارشاد وتقويم السلوك ..

وهو نموذج يتضمن قصة «صاحب الجنتين» وقد وردت الآيات في سورة الكهف . قال تعالى :

﴿واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً . كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً ، وفجرنا خلاهما نهراً . وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو

(١) في ظلال القرآن مجلد ٥ ص ٢٩٦١ .

(٢) التصوير الفني ص ١٤٣/١٤٤ .

يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً . ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبدي هذه أبداً . وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربّي لأجدن خيراً منها منقلباً . قال له صاحبه وهو يحاوره ، أكفرت بالذي خلّقتك من ترابٍ ثمّ من نطفةٍ ثمّ سواك رجلاً . لكنّنا هو الله ربّي ولا أشرك برّبّي أحداً . ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله ، إن ترن أنا أقلّ منك مالاً وولداً . فعسى ربي أن يؤتني خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً . أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً . وأحيط بشمره ، فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا بئني لم أشرك بربي أحداً . ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً^(١) .

ولعلنا نلاحظ أن الأمر موجه إلى محمد ﷺ ليضرب هذه القصة المثل ، لكفار قريش عامة وأغنيائها خاصة . إنها قصة رجلين ، أنعم الله على أحدهما بحديثين ممثلتين بالأعنان ومحفوفتين بأشجار النخل والمياه تجري فينبت الزرع وينضج الثمر . وتأخذ الرجل الغني الغفلة ، وسيطر عليه الكبر ويحتويه الجحود ، فتاه بغناه وما له وأنصاره وتصور - وهو يكفر بنعم الله - أن ذلك الغني أبدى لا يزول ، وتمادى في ظلمه لنفسه ، فادعى بأن القيامة لن تكون وإن كانت فسيجازي خيراً أكثر مما عنده . وهنا يتقدم صاحبه محاوراً إياه ومبيناً له أصل خلقه الترابي حتى يرتدع ويتواضع ويشكر الله على نعمه ، ويضرب المثل بنفسه ، فهو الرجل الفقير

(١) سورة الكهف آية ٣٢ - ٤٣ .

مالاً وولداً ، ومع ذلك فإنه يرجو الله أن يمنحه ما هو خير من الجنتين ، وينبهه - وهو المؤمن - بعذاب من الله يتمثل في إرسال الصواعق على الجنتين فتصبح ملساء لا حياة فيها ولا ماء .. ولقد تحقق ما أنبأه به المؤمن الفقير ، فهلك المال ، وحلّ الخراب والدمار ، وتحسر الغني وهو يرى ما آلت إليه الجنتان ، وظل يضرب كفّاً بكف حسرة وندماً على ظلمه لنفسه بشركه بالله وكفره بأنعمه ، وإنكاره للقيامة وأصبح وحيداً لا معين ولا مؤازر ، وادرك في النهاية أن القوة لله مصداقاً لقوله تعالى : ﴿هناك الولاية لله الحق هو خير ثواباً ، وخير عقاباً﴾ .

● وإنما لقصة بدیعة لما فيها من تشخيص حيّ للمشاهد يقصر عنه التعبير في أي أسلوب آخر غير الأسلوب القصصي .
ولقد ضرب الله القصة مثلاً للكفار من قریش الذين افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين . فبين الله تعالى أن ذلك مما لا يوجب الافتخار ، لاحتمال أن يصير الفقير غنياً ، والغني فقيراً . أما ما تحقّ المفاخرة به ، فطاعة الله وعبادته وهي حاصلة لفقراء المؤمنين ويُنّ ذلك بضرب هذا المثل الذي كانت فيه العقاب المحمودة للمؤمن .^(١)

إن الحق لا يرتبط بكثرة المال والسلطان وإنما هو مرتبط بالعقيدة . فثمة قيم زائلة وقيم باقية . والقصة ترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة والنفس المعتزة بالله ، وكلاهما نموذج لطائفة من الناس . صاحب الجنتين نموذج للرجل الثرى .

(١) سيكلوجية القصة ص ٢٥٠ .

تذهله الثروة وتبطره النعمة ، فينسى القوة الكبرى التي تسيطر على
أقدار الناس والحياة ، ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفتنى .
وصاحبه نموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه الذاكر لربه يرى
النعمة دليلاً على المنعم ، موجبة لحمده وذكره ، لا لجحوده
وكفره .^(١)

ولقد اختلطت الأداة الفنية بالغرض الدينى التربوى ، فأثرت
القصة ثراءً فنياً وأبرزت الجمال فى أسلوب تعبيرى أخاذ .. أدى إلى
«عمق المعنى وجمال التصوير»^(٢) .

ولقد تمثلت الأداة الفنية فى عنصرين أساسيين : هما السرد

والحوار .

وأما السرد فشمل الوصف وتهيئة المدخل إلى جوهر القصة ..
وإثارة الحس الجمالى فى الملقى ، ولقد رسمت الآيات الجنتين فى
إزدهار وفخامة وجمال أخاذ .

فها هو شجر العنب يحمل بعناقيده اللذيذة ، يتمتع العين وتشتهيه
النفس . وتلك أشجار النخيل السامقة تنغرس كالسياج تحيط
بالبستان ، تلقى بالظل ، وتنعمد حباتها الحمراء فى عراجينها
الصفراء ، فتبدو أكثر جمالاً ورونقاً ، وهذه المياه المنسابة فى رققة
جميلة وخرير هاش يحمل النماء للزرع والنبات .. صورة طبيعية
جميلة فى إطار من الابداع الرائع .

كما يبين السرد أيضاً حالة التعالى والافتخار ، والزهو والبطر .

(١) فى ظلال القرآن مجلد ٤ ص ٢٢٧ .

(٢) التعبير الفنى فى القرآن ص ٢٣٠ .

وكأنما يحدث نفسه - بطراً وتعالياً - وهو يتجول وسط هذا المشهد الطبيعي الأخاذ .. بأن ذلك ثابت لا يزول .. وأخذته النفس التياهة فوق في برائها ، وسقط في الكفر ..

والعنصر الثانى هو الحوار .. تلك الأداة الفعالة التى كشفت طبيعة الشخصية - شخصية الغنى الكافر الجاحد بنعم الله ، وشخصية الفقير المؤمن بربه الطامع فى ثوابه .

ولقد حملت ألفاظ الحوار تلك الدلالة ، فبينما كانت ألفاظ الأول تشى بحقيقته ﴿أنا أكثر منك مالاً﴾ ﴿ما أظن أن تبىء﴾ ﴿ما أظن الساعة قادمة﴾ جاءت ألفاظ الثانى لتوضح تلك الطبيعة المؤمنة المتواضعة ﴿.. أنا أقل منك مالاً﴾ ﴿لا أشرك بربى أحداً﴾ ﴿ما شاء الله لا قوة إلا بالله﴾ .

وهكذا جسمت هذه القصة ما تضمنه الحوار فيها من المعانى الكلية المجردة فقررت حقائقها إلى الأذهان بما ضربت من مثل بليغ مؤثر ، أبان أن القيم الحقيقية ليست فى اللذائذ المادية .. وعلى الإنسان أن يذكر ربه الذى أنعم عليه وذلك بطاعته والتواضع له والانفاق فى سبيله وإعانة ذوى الحاجات عملاً بقوله ﷺ (الخلق كلهم عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله) وعندئذ يأمن من أن يستحوذ عليه الخوف اللاشعورى المتأصل فى أعماق الإنسان من غرور النجاح المطرد والغنى الواسع^(١)

ولا ينسى القوة المطلقة التى تسيطر على حظوظ الناس فى

(١) سيكلوجية القصة ص ٢٥٣/٢٥٤ .

الحياة ، فـهـيـا يـلـيـغ الإنسان من سعة الرزق والسلطان فليس بخارج
عن مشيئة الله وملكوته .

ويجب أن نلاحظ في القصة هذا الطابع الواقعي الذي يترقق
من نسيج القصة . فالأحداث - وهي صفة أساسية في القصة
المثل - تكاد تكون من الوقائع الحياتية التي نمر بها في الحياة ، فضلاً
عن أن نماذج الشخصية لها ما يشابهها ويضاهيها في واقع الناس
ومسالكهم . فالوقائع تتشابه ، والأشخاص تتماثل ، ومن ثم يتبدى
الغرض الديني الكامن وراء القصة ، حيث يملؤنا اليقين بأن القوة لله
جميعاً ..

فالقصة مشاهد رهيبة تنامي فيها الأحداث مع النتائج في
انسجام تام . إذ يُطالع القارئ خلال القصة «مسيرة الأحداث
والأشخاص حتى النهايات الضرورية ، التي تعلمه وتقومه وتصحح
نظره إلى الحياة ..» (١) .

إن القصة المثل خير إطار تعبيرى لتمثيل القضايا الدينية ،
والحقائق العقلية وذلك بتجسيد تلك القيم الدينية والعقلية في قالب
قصصي محسوس ، بحيث تجعل المثل على أكثر قدرة على الفهم
والاستيعاب وأكثر قدرة على تمثيل المعنى الديني والعبرة الخلقية ، مما
يؤكددها في النفس ويعمقها في الإحساس .

(١) قصص وعبر ص ١٦٥ .

القصة التاريخية

إن القصص القرآني حافل بالتاريخ ، وكل الوقائع والأحداث التي حدثت وجاءت فيه صحيحة تاريخياً ، لا يدخلها شك أو وهم .. «والشخصية الدينية لها إلى جانب الوجود المادي الذي يعنى به التاريخ العام والذي تتمثل في الميلاد والوفاة والموطن والعمر ، والمظهر والمزاج والعلاقات الشخصية» وجود روحي يتمثل في الفكرة والدعوة والأثر في الناس ، توجيهاً وتغييراً وإلهاماً .. فالشخصية الدينية لا تكسب قليلاً أو كثيراً من إحاطة المؤرخ أو الناس بمظاهرها المادية وعلاقاتها الدنيوية ، لأنها موجودة في الفكر الذي دعت إليه ، وفي العقيدة التي بعثتها وفي التطورات التي أدخلتها في حياة الأفراد والأمم»^(١) ..

وقد يرى البعض ممن جنح بهم التفكير إلى أن القرآن الكريم تصرف في الحقائق التاريخية انطلاقاً من استغلال الأدب للتاريخ .. مما يوحي بعدم الالتزام في الصدق والدقة التاريخية ومما يعنى اسقاط القرآن لتفصيلات جزئية لها طابع الحقيقة في القصة الواردة ، مستندين في ذلك إلى الخلاف الذي طرأ حول تاريخية القصص مثل أصحاب الكهف وعددهم والزمن والمكان الذي شهد الواقعة ..

(١) الإسلام والمذاهب الحديثة ص ١٥٤ .

متبين إلى القول بأن القصص جاء للعظة والعبرة فقط . وإن ما قصده (المفسرون القدامى والمحدثون من قولهم إن القصص القرآني جاء للاعتبار والتوجيه الديني ، واستنباط الحقيقة الدينية منه ، هو ألا يلتفت المسلمون عن هذه الغاية السامية إلى البحث عن تفاصيل هذه القصص كلون كلب أهل الكهف وعددهم وأوصاف ذي القرنين وأسماء بعض الشخصيات التي لم يذكرها القرآن ، والأزمنة والأمكنة التي حدثت فيها هذه الأحداث .. ولكنهم لم يقصدوا أن الحقائق التاريخية للقصص القرآني قابلة للنقد وللخلاف والإنكار^(١)

وثمة ملحوظة دقيقة يجب التأكيد عليها وهي أن هناك فرقاً بين ما يرويه القرآن من مزاعم المشركين والمبطلين وبفضحها ويرد عليها ، ويعطى المسلمين بها ، وبين ما يقصده هو من عنده من قصص الأنبياء والصالحين وما ينشأ بحدوثه مستقبلاً من عبر وعظات ..

ولقد وردت آيات كثيرة ترد هذا الافتراء وتوضح هذه الأباطيل .. منها قوله تعالى : ﴿وقالوا أساطير الأولين ، اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً . قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض ..﴾^(٢)

والأساطير قصص التبس فيها الواقع بالخيال ، وأضاف الخيال الشعبي من عنده إلى الحقيقة إضافات تراكمت على مر الزمان والعصور حتى أضحت الخرافة والباطل هي سمة هذا النوع من

(١) القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته ص ١٦٨ ج ٣ .

(٢) سورة الفرقان آية ٥ . ٦ .

الأنباء وطبيعة هذا الحكى عن تلك القصص . ومن ثم انسحب
خيط الحقيقة فأضحى واهناً لا يبين .

ولقد زعم البعض ^(١) أن فى قصص القرآن أساطير من أنباء
الغابرين وأن القرآن بينائه القصة الدينية على بعض الأساطير قد
جعل الأدب العربى يسبق غيره من الآداب العالمية فى جعله القصة
الأسطورية لوناً من ألوان الأدب ..

وهو ادعاء فيه كثير من البهتان .. لأن القرآن كتاب الله يهدى
إلى الحق عن طريق الأحكام والتشريع وعن طريق الأخبار التى
يروىها عن أحوال الأمم الغابرة . وهى رواية لا باطل فيها ..

ذلك أن البطلان صفة من صفات الأساطير ، ولقد ورد فى
المعاجم أن الأساطير بمعنى الأباطيل والمفرد أسطورة ^(٢) ، وهى
حكايات خيالية عن القرون الغابرة : ولقد عقب القرآن الكريم على
إدعاء المشركين بأن القرآن الكريم من أساطير الأولين بأنه وزر
وضلال وبأن جزاءه النار وشديد العذاب . ولقد أكد القرآن الكريم
فى مثل هذه الآيات التى ورد فيها هذا الادعاء . أكد على أن الذى
أنزل القرآن الكريم أحكاماً وأمثالاً وقصصاً هو الله سبحانه الذى
يعلم السرى السموات والأرض .. وهو دليل على أن كلمة أساطير
تعنى الأباطيل وأن القرآن الكريم هو الحق والصدق والخبر اليقين ^(٣)
وإذا كانت الواقعة التاريخية لبنة من بناء يصنعه عقل إنسان

(١) ممن زعم هذا الزعم الدكتور محمد أحمد خلف الله فى كتابه (الفن القصصى فى
القرآن) .

(٢) مختار الصحاح ص ٢٩٨ .

(٣) القرآن الكريم كتاب أحكمت آيات ج ٢ ص ١١٠/١١١ .

ليفسر جانباً من حياة طائفة من الناس لفترة محددة^(١) فإن الواقعة القرآنية تعلو على الزمان والمكان .. وتتمثل في فكر الإنسان - الشخصية المحورية للقصة أو الواقعة وما جاء به من دعوة أو عقيدة . ولقد أخضع القرآن في قصصه الوقائع التاريخية إلى الحقائق الدينية إذ ليس في مجرى هذه الأحداث ما يحصل بمحض الصدفة أو بتأثير الظروف المادية وحدها ، وإنما تأتى وفق السنن التي تسير الإرادة الإلهية في الثواب والعقاب ، والبقاء والفناء .

ولقد أورد القرآن كثيراً من ألوان العذاب الذي لقيته الأمم الغابرة نتيجة عنادها وجحودها وكفرها بربها .. وتعدّد العذاب وتنوع .. من طوفان يغرق البشر ، ومن صواعق تجعل الناس كأعجاز نخل خاوية ، ومن صرخة واحدة تصيهم بالموت جاثمين ، ومن صيب فيه رعد وبرق لا يبق ولا يذر ويجعل كل شيء كالهشيم المحتظر .

وقد يرى البعض أن تلك مظاهر وكوارث طبيعية لا ترتبط بالعقاب الإلهي وهم دعاة المذهب المادي الذي يبعد الحركة التاريخية عن المنطق الديني وأحكامه . ذلك أن تعذيب بعض الأقسام السابقين بالصاعقة أو الزلزال أو الريح لا يمنع أن يكون كل نوع من أنواع هذا التعذيب قد حصل بتوفر أسبابه الطبيعية التي تجري وفق السنن الإلهية والتي هي جزء من المخطط الإلهي^(٢) ونحن حين ندرس نموذجاً للقصة التاريخية نقرر أن القرآن وهو

(١) الإسلام والمذاهب الحديثة ص ١٥٥ .

(٢) سيكلوجية القصة ص ١٧٩ .

يحكى عن أمة من الأمم ، لم يلتزم فيما انتقى من أخبار التاريخ قواعد تدوينه وعرضه ، كذكر زمان الواقعة ومكانها وترتيبها الزمنى ، وإنما انتخب الوقائع لتحقيق الهدف الدينى وصاغ ذلك فى أسلوب تعبيرى غاية فى التأثير والقوة والاعجاز .

● ولنأخذ نموذجاً للقصة التاريخية يتمثل فى أهل مدين .. ولقد وردت القصة فى سورة هود ..

قال تعالى :

﴿وإلى مدين أخاهم شعبياً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم مippet . ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بَقِيَتْ الله خَيْرٌ لكم إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وما أنا عليكم بحفيظ . قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أَنْ تترك ما يعبد آباؤنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فى أَمْوَالنا ما نشاء إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ . قال يا قوم أرأيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبى وَرَزَقْنى مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وما أريد أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ إِنْ أريد إِلَّا الإِصْلاحَ ما اسْتَطَعْتُ ، وما توفىقِ إِلَّا بالله عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ . ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أَنْ يَصيِّبَكُمْ مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وما قوم لوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ . واستغفروا ربكم ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ إِنْ رِئى رَحِيماً وَدُودٍ . قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وَإِنَّا لَنازِكُ فِنا ضَعِيفاً وَلَوْلا رِهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وما أَنْتَ عَلِنا بِعَزِيزٍ . قال يا قوم أرْهَطى أَعْزَّ عَلَيْكُمْ مِنَ الله واتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظَهِراً إِنْ رِئى بِما تَعْمَلُونَ مِيط . ويا قوم اعمَلُوا

على مكانتكم إني عاملٌ ، سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذبٌ وارقبوا إني معكم رقيب . ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمةٍ منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً للمدين كما بعدت ثمود^(١) .

هذه قصة تاريخية تتناول أهل مدين ونيهم شعيب . وهذه القصة شأنها شأن القصص الأخرى التي تناولت قصص الأنبياء مع أقوامهم .. ولقد اختلف المفسرون حول مدين ، فهي قرية من أرض معان من أطراف الشام وهي مدينة عرفت بالقبلية ، وقوم مدين الذين وردوا في هذه الآيات قيل أنهم غير أصحاب الأيكة التي وردت في آيات الشعراء في قوله تعالى :

﴿كذب أصحاب الأيكة المرسلين . إذ قال لهم شعيب ألا تتقون . إني لكم رسول أمين...﴾^(٢)

ولقد ورد عن الرسول مرفوعاً (أن قوم مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيباً النبي عليه السلام) .

وهذا الاختلاف في المكان ينفيه هذا التوافق في النسق القرآني وهو يصف طبيعة هؤلاء القوم .. بالفساد حيث يطففون الكيل والميزان مما يدل على أنهم أمة واحدة ، ولكنه تعالى أخبر عنهم في كل سورة بما يناسب سياقها . ففي سياق القصة في سورة الأعراف أرجفوا نبي الله وأصحابه وتوعدهم بالاعراج من قريتهم أو ليعودنَّ

(١) سورة هود آية ٨٤ - ٩٥ .

(٢) سورة الشعراء انظر آيات ١٧٦/١٩١ .

في ملتهم فقال تعالى : ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ فقابل الإرجاف بالرجفة . وفي سورة هود ذكر القرآن الكريم أنهم أخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين لأنهم قالوا للنبي شعيب على سبيل التهكم والاستهزاء ﴿أَصْلَاتِكَ تُأَمَّرُ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ فناسب أن يذكر القرآن الصيحة التي هي كالزجر عن هذا القول القبيح . فجاءتهم صيحة اسكتهم مع رجفة اسكتهم ^(١) .

وكما اختلف المفسرون حول مدين ، فلقد اختلفوا حول شعيب أيضاً . فقيل أنه ابن ميكيل بن يشجن ، وقيل أنه شعيب بن يشخر ابن لاوى بن يعقوب وقيل أنه من آمن بإبراهيم يوم أُحرق بالنار ، وورد عن الرسول ﷺ في رواية أبي ذر (أربعة من العرب : هود وصالح وشعيب ونبيك يا أباذر) .. ووصف بعض السلف شعيباً بأنه خطيب الأنبياء . * ولقد سكت القرآن عن ذلك كله ، وأكد على أن أهل مدين قوم كافرون يعبدون الأيكة ويقطعون السبيل ويبخسون الكيل والميزان وأن شعيباً النبي رجل منهم بعثه الله إليهم رسولاً داعياً إياهم إلى الوحدة وناهياً إياهم عن القبح والفساد فأمن البعض وكفر الأكثرون حتى أحل الله بهم البأس الشديد . ^(١) والقصص التاريخي هو أكثر قصص القرآن ، وهو وإن خلا من

(١) انظر قصص الأنبياء لابن كثير ص ٢٨٨ . ٢٩٨ . ٢٩٩ .
 • وقيل عن شعيب عنه كان بعد يوسف . وعن وهب بن منبه أن شعيباً مات بمكة ومن معه من المؤمنين وقبورهم غربي الكعبة بين دار الندوة ودار بني سهم / ابن كثير ص ٣٠٢ .

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٢٨٨ . ٢٨٩ . ٢٩٠ .

التفاصيل أو تحديد الزمان أو المكان إلا أنه يتصف بالصدق وصحة الخبر ، ذلك لأن القرآن ليس تاريخاً يروى أو قصصاً تحكى ، وإنما هو كتاب هداية وموعظة . فالقصة التاريخية لم تذكر لمجرد سرد لتاريخ الحدوث وتسجيل تفاصيل الأحداث ، وإنما للتأكيد على العظة والعبرة مصداقاً لقوله تعالى : ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب﴾ .

وتحكى القصة أن أهل مدين كفروا بالله وأشركوا به ، إذ عبلوا الأيكة من دون الله وطففوا فى الكيل والميزان ولقد بعث الله فيهم شعبياً يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وأمرهم بالعدل ونهاهم عن الظلم وحذرهم من عاقبة الظلم والفساد ، كما نهاهم عن قطع الطريق ، وذكرهم بنعم الله وآياته الكبرى عليهم .. فلقد كانوا قلة فأصبحوا كثرة ، وفقراء فأصبحوا أغنياء .. ولقد تطف شعيب مع قومه حين دعاهم إلى الحق بالطريق المبين ، فلم تبد منه جفوة بل أحسن الجدل واستأهم باللين . وذكرهم بما بينه وبينهم من صلة ، وأوضح لهم أن ظهور البينة بالنبوة والرسالة وكثرة نعم الله عليه تحول بينه وبين طريقهم الضال ودعوتهم الفاسدة ، وهو لن يكرههم على اتباع دعوته ولا يأمرهم بشيء إلا رضيه لنفسه ، وهو مشهور بينهم بالحلم والرشد ، إنه لا يريد إلا الإصلاح ما استطاع . ولكن شعيباً رأى فيهم النفور والعناد وتلك طبيعة كل الأقوام من الفجار الذين خالفوا الأنبياء ، ولكنه دأب على النصيحة والدعوة إلى الله فوجد من بعض القوم آذاناً صاغية وقلوباً واعية وآمن به نفر قليل وظل ينههم عن ارتكاب الإثم ، فارتكاب الإثم لا يمنع من الإيمان بالله

ومن ثم التوبة والنجاة من العذاب .. ولكنهم توعده حين رأوا الأتباع يكثرُونَ يوماً بعد يوم .. توعده ومن آمن معه بإخراجهم من القرية .. إلا أن يروا من دينهم الجديد ويعودوا إلى ملتهم الأولى . ولما ينس شعيب منهم دعا الله أن يجزيهم على كفرهم وجحودهم ، والقوم لا يبالون بما يقول . لاهون عن الحق ، مقبلون على الدنيا .. مسرفون في فحشهم وفجورهم وظلمهم ، بل بلغ بهم الأمر أن تحلوا شعيباً أن يحل بهم العذاب كما يردّد ، أو تسقط عليهم كسف من السماء . واستجاب الله دعاءه وآزره بنصره وابتلاهم بحر شديد ، لا يرويه فيه ماء ، ولا يظلمهم ظل ، ولا تحميمهم المنازل والبيوت . وفروا من قضاء الله إلى قضاء الله ، حيث استظلوا بسحابة تقيهم من وهج الشمس وحرارتها ، حتى إذا تجمعوا واكتملوا رمتهم السحابة بالشرر والشهب ، وجاءتهم الصيحة من السماء وزلزلت الأرض تحت الأقدام .. وكانت الفاجعة ^(١) . ولقد جمع الله عليهم أنواعاً من العذاب وأشكالاً من العقاب . لما اتصفوا به من قبح وفساد ، فسלט عليهم الرجفة الشديدة التي أسكنت الحركات ، والصيحة العظيمة التي أخمدت الأصوات ، والظلة التي رمتهم بالشرر والشهب من جميع الجهات ^(٢) .

وهذه القصة التاريخية وردت في سورة هود ، وهي سورة مكية ، ولقد نزلت في فترة حرجة من حياة الرسول ﷺ حيث تجرأت قريش عليه بعد وفاة عمه أبي طالب وزوجته خديجة رضى

(١) قصص القرآن . محمد أحمد جاد المولى ص ١١٠ .

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير ص ٢٨٧ - ٣٠٢ .

الله عنها ..

وقال المقرئ في إمتاع الأسماع : (فعظمت المصيبة على رسول الله بموتها وسماه عام الحزن) وقال : «مانالت قریش منى شيئاً أكرهه حتى مات أبوطالب» لأنه لم يكن في عشيرته حامياً له غيره . ولقد جاءت السورة بما ورد فيها لتثيت الرسول والذين معه ومؤانسته والتسرية عنه .. وهو هدف من أهداف القصة التاريخية التي تتناول قصص الأنبياء وقصص الأمم الغابرة ، حيث استعرضت الآيات الكريمة حركة العقيدة في التاريخ البشري من لدن نوح حتى محمد .. مؤكدة على التوحيد والديانة لله وحده .. وموضحة أن الأقوام قد تلقوا ذلك عن طريق رسل الله ، هداة البشر إلى الحق والصواب .. مشيرة إلى أن الدنيا دار بلاء واختبار ، وأن حرية الاختيار هي محور هذا الابتلاء .^(١)

والآيات الكريمة وهي تسوق قصة مدين «تبين مراعاة الأمانة وضرورة توفرها فيما يتصل بالشئون المالية ، خاصة إن كانوا قوماً للمال في حياتهم دور كبير . وهم في ذلك يشبهون أهل مكة وسراتها من التجار والأثرياء في عهد رسول الله ، وكانوا يتعاملون في أموالهم بالبخس والربا ، فكان إيراد هذه القصة تسرية للمسلمين من سوء المعاملة ، وبياناً للمسلك المالى الخاطيء الذى يسلكه كفار قریش ، فشئون المال لها صلة وثيقة بالدين»^(٢)

ومن سنن الله في الأمم أنه إذا استشرى فيها الفساد وانغمس

(١) الظلال مجلد ٤ ص ١٨٤٠ .

(٢) نظرات في قصص القرآن ج ١ ص ٧٥ .

حكامها في الترف ولم يأبها لمصالح شعبيهم ولم يأخذ العقلاء فيها على أيديهم كان المصير عذاباً شديداً يحق بهم ويزلزل حياتهم . وذلك مصداقاً لقوله تعالى في ختام السورة وبعد إيراد قصص الأنبياء مع أقوامهم .. ﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ، لما أغنت عنهم آلتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك ، وما زادهم غير تنبيب﴾ (١) .

وعود إلى صدق القرآن في روايته للقصص التاريخي ، ندرك أن القرآن يقرر هذا الصدق ، وهذا الاعجاز التاريخي .. في أسلوب قاطع بعيد عن الشك لا يحتمل التأويل أو الاجتهاد مع النص .. ذلك أنه يقص على رسول الله في زمان مغاير ومكان متباين وبعد أمد طويلة سحيقة ، يقص قصص الأمم الغابرة وقصص الرسل الكرام أولى العزم والقوة والصمود ، مبيناً أن تلك أمور من الغيب يوحى بها الله إلى رسوله مثلما يوحى بغيره من الآيات القرآنية الأخرى ، ويمن عليه بسرد هذه الأنباء عبر الوحي الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه (قاصداً في الوقت نفسه : تقرير الاعجاز بهذا العلم التاريخي الذي سماه المبطلون «أساطير الأولين») (٢) .. وبحسم القرآن هذه القضية في آيات كثيرة : منها قوله تعالى : ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك . ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا .. فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ (٣)

(١) سورة هود الآية ١٠٠ . ١٠١ .

(٢) القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته ج ٣ ص ١٧٢ .

(٣) سورة هود آية ٤٩ .

لقد جعل الله سبحانه بقاء الأمم ونمائها فيما تتحلى به من الفضائل ومكارم الخلق ، انطلاقاً من الإيمان والتوحيد ، والعمل بهذا الإيمان هو مناط الفعل الذى يؤاخذ عليه الإنسان ثواباً أو عقاباً ، وهو نفسه الوسيلة التى تترقى بها الأمم إلى درجة من الصفاء القلبي والطهارة فى المسلك والمقصد . ومن ثم لم يكن عجبياً ، أن ترتبط الدعوة إلى التوحيد بالعمل الصالح فى مناحيه المختلفة وتعدد أنماطه فى الحياة والسلوك وهو تلخيص لما قاله ﷺ « قل آمنتم بالله ثم استقم » فهذا الحديث الموجز لخص حركة التاريخ كلها وحركة العقيدة التى تحملها الرسل وأبلغوها إلى أقوامهم .. الإيمان والعمل به .. ولأن الإيمان إجتثاث من الجذور الوثنية وزرع لبذرة التوحيد ، ووجه دائماً بالصد والمعاندة والضلال والمكابرة ومن ثم جاءت سنة الله المتواترة فى أنه جعل زوال الأمم واضمحلالها فى التخلي عن الإيمان ، وعن العمل الصالح ، والخلق الكريم ، وتلك سنة لم تختلف من أمة إلى أمة أو من زمان إلى زمان . إنها سنة لا تبدل بتبدل الزمان والأجيال .

● وإذا ما أخذنا نموذجاً آخر .. لقوم عاد .. فإننا نجد أن تلك السنة الالهية ثابتة ، لم تتغير .. فقوم عاد وموقفهم من رسولهم .. مثلهم فى ذلك مثل قوم نوح ، وصالح ، وشعيب ، ولوط ، وموسى ، ومحمد عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

قال تعالى :

﴿وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون . يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا

على الذى فطرنى أفلا تعقلون . ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم ملرارا ويزدكم قوةً إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين . قالوا يا هود ما جئنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ، قال إني أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون . من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تُنظرون . إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم . فإن تولوا فقد ابغضتكم ما أرسلت به إليكم ، ويستخلف ربي قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً إن ربي على كل شىء حفيظ . ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجينا هم من عذاب غليظ . وتلك عادٌ جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد . وأتبعوا في هذه الدنيا لعنةً ويوم القيامة ألا إن عاداً كفروا ربهم إلا بعداً لعاد قوم هود ﴿١﴾ .

وقال تعالى فى مجال العذاب والعقاب ونوعه .

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلَكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ حُسُومًا ، فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْلٍ خَاوِيَةٍ .﴾ (٢)

ويتبدى فى هذه القصة نفس المنهج القرآنى فى التاريخ .. المنهج الذى سبق فى قصة مدين وشعيب ، وهو منهج قائم على الانتخاب والخلو من التفاصيل مع إبراز الهدف الدينى مقصد القصة

(١) سورة هود آيات ٥٠ - ٦٠ .

(٢) الحاقة آية ٦ - ٨ .

وهدفها ..

ولقد اختلف في عاد .. كما اختلف في هود ..

فعاد قبيلة عربية سكنت الأحقاف ما بين عمان وحضرموت
وكانوا يسكنون بيوتاً ذوى أعمدة ضخام .. ﴿وإرم ذات العماد﴾
المكان الذى عاشت فيه عاد . زعم البعض أنها تارة فى الشام وتارة
فى اليمن وتارة فى الحجاز .. وكذلك هود ..

وهذه الاختلافات لا تضيف جديداً أو معانى متجددة ، فليس
الهدف من سرد القصة ، هو الجرى وراء المكان بتضاريسه ، ولا
الزمان بتتابعه وأحداثه ، ولا الشخصية بملاحمها المادية .. وإنما
القصة جاءت فى القرآن انتخاب لوقائع محددة لتحقيق الهدف
الدينى .

وعاد قوم عبدوا الأصنام بعد الطوفان . ولقد كانوا جفاة
كافرين فأرسل الله إليهم هوداً وهو من نفس القبيلة .. ورجل
منهم ، يدعوهم إلى الإيمان بالله وافراده بالعبادة ، ولكنهم كذبوه
فأخذهم الله بعذاب شديد ..

ولقد استخدم عاد مع قومه وسائل الابلاغ الواعية ، الهادئة ،
فنصح لقومه وأشفق عليهم .. وحرص على هدايتهم ، وإبلاغهم
الدعوة باللين والهوادة ، فهو لا يبتغى أجراً . ولا يطلب مغنماً ،
ولكنه مخلص لله ، وداعٍ إلى الوحداية ، وحرص على قومه ألا
يضلوا ويضيعوا بعدما حباهم الله بنعمه الوفيرة والخيرات الجليلة ،
من عيون تجرى بالمياه وأرض تتيه بزرعها ونباتها وبساتينها ، وبيوت
كالقصور فى البهاء والضخامة .. إنه يذكرهم بأن خير الدنيا

والآخرة بيد الله ، وأنهم عليهم أن يتوجهوا إلى الله بالشكر .
 ليزيدهم من نعمه وفضله ، ولكنهم عتوا وأفسدوا في الأرض ،
 فنحتوا من الأحجار أصناماً يعبدونها ولجوا في وثنيهم ونسوا الله
 الذى أحياهم ويميتهم ، والذى مكن لهم في الأرض .. وتوجه إليهم
 هود داعياً وناصحاً ومحذراً أن يصيبهم ما أصاب غيرهم من الأمم
 السابقة وأمرها ليس بعيداً عنهم - وككل طاغية جبار ، قالوا في
 عناد ، كيف تريد منا أن نعبد الله من دون آلهتنا ، ما أنت إلا سفيه
 وطائش ، وبصر هود على موقفه ، داعياً إلى عبادة الله . نافيا عن
 نفسه تهمة السفه والطيش وهو المشهور بينهم بالحلم والعقل
 والرزانة .. وأشهدهم أنه برىء مما يعبدون ومما يفعلون ، وأشهد الله
 أنه بلغ الرسالة وما قصر وجاهد وما أحجم ، وآمن به قلة . ظلوا
 يتحملون الألم والعذاب من جارية عاد الوثنيين .. حتى جاء أمر
 الله ، فسير إليهم سحباً أسود يعترض السماء فعصف القوم لرؤيته
 متصورين أنه سحب عارض ممطر ، وتهاووا لاستقباله وفجأة تهب
 الرياح في عنف وشدة أخذت في طريقها كل شيء .. فداخلهم
 الخوف والفرع وهربوا إلى بيوتهم الضخمة ذات العمد .. عليها تقيهم
 من هذا الهول .. ولا فائدة ، فالرياح العاتية ظلت سبع ليال وثمانية
 أيام حسوما .. حتى أصبح القوم في النهاية كأنهم اعجاز نخل
 خاوية^(١) .. أما هود ومن آمن معه ، فقد ظلوا آمنين مطمئنين في
 مكانهم .. حتى هدأت الرياح .. وسكنت العاصفة المدوية ..

(١) شهبوا بأعجاز نخل لأن الريح كانت ترفع الفرد إلى الهواء ثم تنكسه على أم رأسه
 فتشدخه فيصبح جثة بلا رأس .. قصص الأنبياء لابن كثير ص ١٦٦ .

وهكذا استحققت عاد لعنة الله في الدنيا والآخرة ﴿أَلَا بُعْدًا
لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ﴾. ولقد بينت هذه القصص وغيرها طبيعة هذا
الدين وخطه الحركي كما يقول الشهيد سيد قطب .. فالدعوة إلى الله
تبدأ والرسول وقومه من أمة واحدة تجمع بينه وبينها أوامر القرى
والدم والنسب ثم تنتهي بالافتراق وتكوين أمتين مختلفتين من القوم
الواحد أمة مسلمة وأمة مشركة ^(١) .. فدعوة التوحيد تصر على
التحرر من الدينونة لغير الله والتمرد على سلطان الأرباب الطغاة ..
فلقد خلق الله الناس أحراراً لا يدينون بالعبودية لأحد من خلقه ولا
ينزلون عن حريتهم لطاغية فإن لم يصونوا ذلك فلا كرامة لهم عند الله
ولا نجاة .

والقيم الإيمانية ليست منفصلة عن القيم العملية في حياة الناس
وهي جوهر الحديث الذي ورد عن رسول الله (قل آمنت بالله ثم
استقم) وأى خلل في ذلك يوجب عذاب الله وعقابه . وتلك سنة
الله في كونه .

وعلى طريقة القرآن الكريم في انتخاب الأحداث والاكتفاء
بمواطن العبر من مشاهد القصة ، فإن أجزاء هذه المشاهد تختلف
من سورة لأخرى .. إذ يأتي العرض بما يناسب السياق .. وتلك
قاعدة أساسية في المنهج القرآني . ففي سورة هود جاء العذاب مجهلاً
لا نعرف نوعه ، وطبيعته .. ولكننا نعرف أن ثمة عذاباً حاق
بالظالمين من قوم عاد .. ولقد أشار القرآن إلى ذلك بكلمة فيها
الحسم ، وفيها العقاب إنها كلمة «أمرنا» .. إنها كلمة تحتل أنواعاً

(١) الظلال مجلد ٤ ص ١٨٩٦ .

عديدة ومتنوعة من العقاب .. إنه الأمر الذى يصحبه العقاب والويل : ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ، نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ..﴾ ولكن العذاب فى سورة الأحقاف قد ورد محدداً ، لقد وضحت الآيات نوع العذاب الذى حاق بهم إنه الريح التى تحمل العذاب الأليم .. وهذا العذاب قد استبشروا به لجهلهم حقيقة العارض الذى اعترض السماء وأملهم فى مطر يمحطهم بعد جفاف .. ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مِّمَطَرْنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ، رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١)

قال ابن عباس : أول ما جاءت الريح على قوم عاد كانت تأتى على الرجال والمواشى فترفعهم من الأرض وتطيرهم إلى السماء حتى يصبح الواحد منهم كالريشة ثم تضربهم على الأرض ، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم فقلعت الريح الأبواب وصرعهم^(٢) واكتفت سورة (المؤمنون) بذكر دوى هذه الريح التى أتت بالعذاب الأليم ﴿فَأَخَذْتُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٣)

ولقد أخذتهم صيحة العذاب المدمر ، وهو عقاب عادل يستحقه هؤلاء القوم الجاحلون ، وأصبحوا هلكى كغثاء السيل . قال المفسرون : صاح جبريل بهم صيحة رجفت بها الأرض من تحتهم فصاروا لشدتها غثاء كغثاء السيل الذى يضرب به المثل فى التفاهة والحقارة ، وفى الشيء التافه الذى لا ينتفع به .

(١) الأحقاف آية ٢٤ . (٢) صفوة التفاسير ج ٣ ص ١٩٩ .

(٣) المؤمنين آية ٤١ .

وصورت سورة الحاقة هذا العذاب في تفصيل واضح ، إذ تربنا هذه الريح الهائلة ، إعصاراً مستمر الهبوب ﴿سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً﴾ وكل من هذه المشاهد (يحتل مكانه الملائم من سياق القصة حتى كأنه لا يصلح له سواه .. وفيما عدا هذا تتكرر النقاط الرئيسية في كل هذه المواطن إما باللفظ وإما بالمعنى لأنها المحاور التي يدور حولها المحتوى ، ومنها تنبثق العبرة المنشودة . ففي تكرارها والحالة هذه عملية تثبتت من شأنها أن تعمق موقعها من القلب الواعي فيحتفظ بأثرها حياً فعلاً..^(١)

إن الاتجاه إلى الإيمان بالله الواحد هو أساس إنطلاق الإنسان إلى تأصيل بنيانه على أسس عقيدية مكيئة .. وهو جوهر دعوة الرسل جميعاً سعياً إلى تحرير الإنسان ليكون قادراً على مواجهة الأهواء والشهوات والغرائز الدونية .. وكذلك فإن قصة هود تؤكد على أهمية الاعتبار بتجارب الآخرين .. ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾ . إن التجربة السابقة والتأمل فيها أحد الوسائل المستخدمة في الدعوة ، وهي تؤتي النتيجة الفعالة إذا جاء استخدام العقل على مستوى التجربة .. هذا العقل الفعال وسيلة إلى استنباط العبرة من التجربة وحركتها (ومن لا يعتبر من واقع مجرب وأثر مؤكد ، يلغى عقله ، وينكر فطرته المتميزة ، ويدخل نفسه بإرادته في درك الحيوانات والبهائم)^(٢)

ويجب أن نوضح في هذا المجال أن القرآن لم يذكر شيئاً عن

(١) قصص وعبر. محمد المنذوب مكتبة الرياض الحديثة ص ٦٩ .

(٢) منبر الإسلام مايو ١٩٨٦ د . عارة نجيب ص ١٠ .

صفة عاد ولم يتحدث عن بيوتها ومساكنها كما لم يذكر شيئاً عن الجدل والحوار .. وذلك حين أورد القرآن الكريم موضوع عذاب القوم في سورة القمر في قوله تعالى ﴿كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر . إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر . فكيف كان عذابي ونذر﴾^(١) .

ولقد ترك القرآن كل تلك التفصيلات وأسرع إلى وصف العذاب ، ذلك أن مناسبة نزول الآيات تتلاءم مع العهد الذي اقتضى أن يثبت القرآن فيه طمأنينة النفس ، كما يحذر من العذاب . بأن يرسم له صورة فنية رائعة تثير الخوف في نفوس المعاندين وتبعث الطمأنينة في نفوس المؤمنين .. فثمة ريح صرصر ، ويوم نحس ، وهناك قوة الريح التي تنزع الناس وتجعلهم أعجاز نخل منقعر . وتنتهي الآيات بالأسلوب الإنشائي الذي يفيد هول عذاب الله ، الذي يقع على الكافرين .

وهذا التناول القرآني لهذه الحلقة من قصة عاد . لا تعني أن القرآن قد غفل عن الجانب التاريخي في القصة ، أو أنه ضحي بالتاريخ من أجل القصد الأدبي وأنه حين يعدل عن التفاصيل بقصد الموعظة والعبرة فلا يؤرخ لأفراد أو جماعات أو أمم .. فإن ذلك لا يكون بحال من الأحوال على حساب الصدق التاريخي الذي هو سمة القصة التاريخية في القرآن .

ومن تناول هذا الموضوع مؤلف كتاب «الفن القصصي في

(١) القمر آيات ١٨ - ٢١ .

القرآن» إذ يرى «أن هذا اللون من قصص القرآن قصص أدبي تاريخي ، يأخذ القرآن مواد القصص فيه من أحداث التاريخ ووقائعه لكنه يعرضها أدبياً ويسوقها سوقاً عاطفياً يبين المعاني ويؤيد الأغراض ويؤثر بها التأثير الذي يجعل وقعها على الأنفس وقعاً استهوائياً خطابياً يستثير منها العاطفة والوجدان»^(١)

كما يرى المؤلف في هذا الجانب أيضاً أن «أحداث التاريخ التي وردت في القصص القرآني قد رتبت ترتيباً عاطفياً وبنيت بناءً يقصد به تحريك الهمم والنفوس . ومعنى ذلك أنها لون من ألوان القصص التاريخي الفني ، وأن العمل فيها فني يُقدَّر بموازين الفن القولي لا بموازين المؤرخين»^(٢)

ومن ثم فهو يرى في النهاية أن المسألة في القصة القرآنية هي مسألة بيانية ومن ثم فهي لا توصف بتصديق أو تكذيب وإنما هي العرض الأدبي^(٣) - ويرى أن من حق العقل البشري أن يهمل هذه المعاني التاريخية أو يخالفها أو ينكرها^(٤)

.. وهذا يعني أن ما جاء من عنصر تاريخي في القصص القرآني يميل إلى الخيال والوهم الأدبي .. وهذا خلط كبير .

وعنصر التاريخ وارد في كل قصص القرآن مما يجعله ركيزة أساسية في بناء القصة .. وانطلاق القصة في هذا الجانب انطلاقاً واقعي ونفسي ، فالواقعي يعني صدق الجانب التاريخي صدقاً

(١) الفن القصصي في القرآن ص ١٤١ د . محمد أحمد خلف الله .

(٢) المصدر السابق ص ١٤٧ . (٣) المصدر السابق ص ٥٨ .

(٤) المصدر السابق ص ٥١ .

موضوعياً في الزمان والمكان ... ويجب ألا نقيس تاريخية القصة القرآنية بمفاهيم علماء التاريخ .. فالتاريخ القديم ليس له طابع الثبات ، وموقف العلماء من الحادثة الواحدة قد يتباين ويتغير ويتبدل حتى يضع جوهر الحادثة التاريخية وسط هذا الخلاف . والواقعة التاريخية إذن ليس لها طابع الثبات فقد تروى حسب وجهات النظر المختلفة .. ووقائع التاريخ في القصص القرآني وقائع منتخبة صادقة جاءت لتني بالغرض الديني وليس المقصد الأدبي فقط .. والقرآن الكريم ليس كتاباً في التاريخ يؤرخ لحركة البشر والأحداث ، وإنما هو في الأساس كتاب دعوة إلى الحق والتوحيد وتنظيم شئون الحياة على أساس ديني سليم .. ومظنة الخلاف في هذا الأمر راجع إلى مقارنة القرآن الكريم . بالكتب السماوية الأخرى التي جرى عليها التحريف ، وكثرت فيها الحوادث المختلفة . والمقارنة هذه غير واردة ، إذ كيف نقارن بين وحى الله الثابت وبين وضع البشر وخلطه بالدين ؟!

والإشارات القصصية حول الرسل والأنبياء ، والتي لم يرد فيها إلا صور العذاب ، لا يعنى أن إغفالها لعنصر الجدل والحوار ، وجوانب التاريخ .. أنها صيغت صياغة أدبية وكفى .. فالتنوع القصصى منهج رئيسي في القصة القرآنية وطريقة العرض متنوعة .. فقد تأتى القصة في نهايتها لمقصد محدد ، وهو ذكر العذاب وإلقاء الرعب والتخويف ، وقد تأتى متصلة في حلقة أخرى فتلقى أضواءً على المكان والزمان وطبيعة البشر ، وقد تأتى جدلية صرفة فيسود الحوار حول الدعوة إلى التوحيد بما يعتورها من عناد وضلال وكفر

من جانب ، وإيمان وجهاد وصبر من جانب آخر .
والقرآن وهو يعدل عن الجزئيات والتفصيلات إنما هو يتسق مع
منهجه في القصة فالقصة القرآنية لا تحفل بالجزئيات والتفصيلات ،
وإنما تسعى إلى الغرض الديني ، وتورد من الأحداث ما يتلاءم مع
الغرض الديني .. واسقاط القرآن لهذه التفصيلات لا يعنى أن ما
ورد فيها خيال ، يحتمل التصديق والتكذيب ، وإنما هو - صادق
كل الصدق - فيما أورده من قصص وأحداث تاريخية . دون أن
نلجأ إلى كتب التاريخ لنقول : هل ورد الأمر فيها أو لم يرد ؟ ودون
اللجوء إلى المقارنة مع كتب الديانات الأخرى .

فالتنوع طريقة بنائية أساسية في القصة القرآنية - فثمة إجمال
وتفصيل وبسط وإيجاز وإشارة وحوار ولفتة وتجسيد .. ويأتى ذلك
كله ملائماً للسياق القرآنى .. وللغرض الديني .

فحلقات القصة قد تأتى متقدمة ، أو متأخرة ، من حيث
الإجمال أو التفصيل فتبرز الأحداث وفق هذا المنهج .. وقصة موسى
مثل على ذلك .. فلقد وردت أول ما وردت كإشارة قصصية في
بداية الدعوة ، لتؤكد على العذاب الذى حاق بفرعون وأهله .. ثم
بدأت تتضح حلقاتها ، من الميلاد ، فالهجرة إلى مدين ، فالدعوة
والمواجهة ، فواقف السحرة ، وشق البحر ، ثم نجاة موسى وغرق
فرعون ..

ويرد ذلك كله وفق خاصية الإيجاز المعجز الذى يتسم به القرآن
الكريم فيما أورده من أنباء وأخبار الرسل والأمم الغابرة .
(لقد جاءت الأنباء والأخبار والأحاديث في القرآن الكريم ،

نموذجاً من نماذج الإيجاز الذى تخرج الجمل منه : قصيرة غابة القصر ، سرعة غاية السرعة ، ومع ذلك فهي مليئة بالوقائع من جهة ، وفياضة بالحركة من جهة أخرى^(١)

ومن ثم فإن رواية الوقائع تأتى فى القرآن موجزة ومنتخبة ، وإيجازها هذا لا يعنى بعدها عن الواقعية أو الصدق التاريخى .. بل هذا الإيجاز جعل قصص القرآن متفرداً بهذه الخاصية ، وأية مقارنة بين قصة نبيّ فى القرآن والتوراة توضح ذلك تماماً .. والقرآن الكريم ليس ككتاب أدبى يؤلفه البشر .. يخلط فيه بين الوقائع ويوظف التاريخ توظيفاً أدبياً حتى يحنج به إلى مخالفة الوقائع الحقيقية لتحقيق غرض أدبى ..

فما كان كتاب الله الكريم ليقف أمام هذه التفاصيل الصغيرة ، التى هى فى ذاتها نموذج لما يشغل به القاص أو المؤرخ . وهىء نفسه إذ وقع عليها وعلى أمثالها مما يُعد من الطرائف التى تزيد إقبال السامع أو القارئ على متابعة الحكاية . أما الرواية الإلهية ، فلا تحفل بها ، ولا تقف عندها ، لأنها لا تحقق كثيراً ولا قليلاً من الغاية التى نزل من أجلها الكتاب . ولا المقصد الذى رُويت من أجله الواقعة^(٢) .

ومن ثم فإن التلازم الفنى بين منهج الإيجاز التعبيرى وطريقة العرض القصصى ، يساعد على إيراد المعنى كاملاً وواضحاً ، ومؤثراً التأثير الدينى المقصود . فى ألفاظ قليلة ، وصورة باهرة ، كما

(١) القصة القرآنية ص ١٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٦ .

أنه يسقط كثيراً من التفصيلات الجزئية التي تبعد ذهن السامع أو المتابع عن إدراك جوهر القصة ، والخلوص إلى غرضها الديني المحدد .

وهذا الإيجاز وراء الانتقال من حلقة إلى أخرى دون اللجوء إلى مقدمات ، أو تلخيص للحلقة السابقة .. مما قد يبدو للمتابع عدم الترتيب في الأحداث .. فالأحداث تأتي وفق السياق والغرض الديني .

ويرى الأستاذ العقاد أنه من الواجب أن نذكر أن قصص القرآن جميعاً تساق للموعظة والتعليم وحسن القدوة ، وأنها تأخذ من التاريخ ما فيه الغنى لكل سياق ، أو مقصد يعني به الدين ، فليس المقصود بها تفصيل التواريخ ولا تسجيل الوقائع والسنين ، وليست كلمتها موقوفة على شيء غير ما فيه الكفاية لهذه المقاصد كما يفهمها الناس .

وإذا كان علماء التاريخ قد شكوا فيما ورد من أنباء حول الأنبياء والأمم الغابرة .. فإن حركة البحث والتنقيب والاكتشافات الحفرية قد أثبتت الصبغة التاريخية لتلك الأخبار والأنباء وثبت أن علماء التاريخ قد ساعدتهم في هذه الاكتشافات ما عرفوه من أنباء وحوادث استقوا معلوماتهم عنها من المصادر الدينية .

ولقد شكوا في وجود عاد وثمود كما شكوا في أصحاب الفيل والزلازل والبراكين والطوفان والجوائح والحروب التي سبقت مساق العبرة في القصص القرآني وانفردت بها كتب الأديان السماوية .. إلا أنهم حين حققوا الآثار تبين لهم أن عاداً وثموداً من أخبار بطليموس

وأن هلاك أصحاب الفيل من تواريخ الحبش والروم وأن المدن التي
 ساخت في الأرض أو عصفت بها الرياح حقيقة لا تقل في صدقها
 عن حقائق طيبة وطراودة وأنهم في إنكارهم قد ابدعوا للعصر
 صورة من صور الخرافة .. وهي خرافة العالم الذي ينكر ما يجهل
 ويجهل ما ينكر . ويظن أن كلمة التحقيق وحدها سلطة تخولهم دون
 غيرهم حق الاستئثار بالرفض والانكار (١) .



(١) انظر المعاني الثانية في الأسلوب القرآني . د . فتحي عامر ص ٢٦١ .

القصة التعليمية

القصص القرآني له طبيعته الخاصة ومنطقه المميز ، فهو قصص ديني في المقام الأول يخدم أغراضاً دينية تدور حول التوحيد والعقيدة والشهادة من أجل الحق وموانسة الرسول ومؤازرة المؤمنين ضد أعداء الإسلام في مواقفهم وصراعاتهم الدائر ضد الكفار الوثنيين .. وهذا التفرد يبنى خضوعه للمقاييس المعروفة في الأدب الذي يبدعه

البشر .

وقصص القرآن متناسق في منهجه مع المنهج التربوي في القرآن فهو تطبيق بالحكمي والقص والسرد والحوار عن هذا المنهج ، ذلك أن القرآن بعقائده وتشريعاته ، وأحكامه وحدة متناسقة ، وإن تنوعت طرقه في التبليغ والتعليم قصد الإمعان والتأثير وتجديد نشاط النفس بتجدد انتقاله في السورة الواحدة من غرض إلى آخر ^(١) . والمنزع التعليمي في القرآن قائم على أنه يحیی شعوراً عميقاً في الإنسان بما بينه وبين الكون من وشائج ومن علاقات سامية ، ترفع عن الوثنية والخضوع لغير الله ، كما أنه يوقظ في الإنسان الروح التجريبية واستقراء المراثيات حيث يوجه الأنبياء والأقوام إلى آيات الله في الكون ليثير في القلوب إيماناً قائماً على التجريب والمشاهدة .

(١) سيكلوجية القصة ص ٥٤٣ .

ولقد أقام القصص القرآني منهجه التربوي التعليمي على أساس العقيدة الصافية فجعلها المنطلق إلى عالم الحس أولاً وعالم الشعور الوجداني ثانية . فالتأمل في ملكوت السموات والأرض واستقراء آيات الله الكونية ، منطلق حسي يقوم على المشاهدة والتجرب والتأمل ، وعقد السياقات الكونية التي ابدعها الله خالق الكون وبارئه .. يقول تعالى في سورة الروم : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴾ . إن الاعتبار بآثار الحوادث الكونية وما حدث للأمم السابقة هو الطريق إلى الإيمان بالله .. هذا الطريق الإيماني يثير الطاقة الروحية الإيمانية داخل الذات ، فتستشرف الأفق الإيماني ، ويغمر القلب صفاء اليقين وحقيقة التوحيد ، فترسخ العقيدة وتبعث في الذات المؤمنة الطمأنينة والسكينة ، وتنامي الفعل السلوكي مع العقيدة ، وتتوجه خالصة إلى الله مبرأة من كل خوف أو دنس .. ويبقى للإنسان صلته بربه في قوة الإيمان وحرارة العمل الصالح .. جاء عن رسول الله في علامة الإيمان (إذا أراد الله بالعبد خيراً جعل له واعظاً من نفسه) .

إن من يخلص لله لا يخاف منْ دونه .. لأنه مشغول القلب به ، مطمئن النفس إلى الحق ، متيقن من مؤازرة الله له . قال تعالى مصوراً هذا الموقف حين واجه إبراهيم قومه ﴿ كَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرِكُمْ ، وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا . فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ . ومن ثم فإن أشد المواعظ الدينية نفاذاً إلى القلب هو ما جاء في

اسلوب قصصى يحمل على المشاركة ، ويثير الوجدان فى نفوس
الأشخاص فتحدث الرسالة المتمثلة فى التأثير والانفعال بالحدث
والموقف .

وقصص القرآن وهو قصص لأمر واقعة (يساق للعبر وإعطاء
المثلات ، وبيان مكان العناية ومنزلة المهتدين ، وعاقبة الضلال ،
وعاقبة الهداية ، وبيان ما يقاوم به النبون ووراءهم كل الدعاة
للحق) (١) ..

● وفى قصة «موسى والخضر» بيان لما اكرم به الله رسله من
رعاية ، وتدريب وتوجيه وتعليم وبما اختصاصهم به من أمانة
وصديق ، ونزاهة ، وإخلاص لله ، والعمل فى سبيله ، وابتعاد عن
صفات مذمومة ، كالغرور ، أو الطمع أو الادعاء بأنه ملك ناصية
الأشياء ..

وقصة موسى والخضر واحدة من القصص الكثير ، الذى
تتضمنه حياة ذلك الرسول الكرم ، وفيها العبرة ، وفيها الجانب
التربوى التعليمى .. وهى بما تضمنته من وقائع وإغراب وحوار
وسرد .. من أمتع قصص القرآن وأروع .

ولقد جاءت هذه القصة فى سورة الكهف .. تلك التى حفلت
بالقصص الأخاذ .

قال تعالى :

﴿... وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ

(١) القرآن - المعجزة الكبرى ص ١٦٢ .

أَمْضَى حَقْبًا . فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي
الْبَحْرِ سَرَبًا . فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا
هَذَا نَصَبًا . قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتَ الْحُوتَ وَمَا
أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا . قَالَ
ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا . فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا
آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعِلْمَنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا . قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ
أَتْبَعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا . قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ
صَبْرًا . وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا . قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ
اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا . قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ
شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا . فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ
خَرَقَهَا ، قَالَ أَخَرَقْتُهَا لِتَغْرُقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا . قَالَ أَلَمْ أَقُلْ
إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا . قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتَ وَلَا تُرْهِقْنِي
مِنْ أَمْرِي عَسْرًا . فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتُمْ نَفْسًا
زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نَكِرًا . قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ
تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا . قَالَ إِنْ سَأَلْتَهُ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي
قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا . فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتِيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا
أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ ،
قَالَ لَوْ شِئْتُ لَاتَّخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا . قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ
سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا . أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ
لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ
يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا . وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ
يَرَهُمَا طَغْيَانًا وَكُفْرًا . فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ

رحمًا . وأما الجدار فكان لغلّامين يتيّمين في المدينة وكان تحته كثرُهما
 وكان أبوهما صالحًا ، فأراد ربُّك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كثرهما
 رحمةً من ربِّك ، وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه
 صبراً^(١)

● والخضر هو العبد الصالح الذي رحل إليه موسى في طلب ما
 عنده من العلم اللدني . وقد اختلف في الخضر . فذكر ابن قتيبة عن
 وهب بن منبه : أن إسم الخضر «بليا» ويقال بليا بن ملكان بن فالخ
 ابن عابر بن شامخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام .
 وقيل أنه ابن آدم عليه السلام كما يورد الحافظ بن عساكر ، وقيل
 أنه ابن فرعون صاحب موسى عليه السلام .. والصحيح كما قال ابن
 جرير أنه كان متقدماً في زمن أفريدون بن أثفيان حتى أدركه موسى
 عليه السلام . وقيل أنه شرب من ماء الحياة فخلد وهو باق إلى
 الآن . واتفق الكثير على أنه جاء في زمن أفريدون الفارسي الذي
 كان أول من خندق الخنادق وقضى في ملكه ما يقرب من مائة
 وخمسين عاماً .. ولقد أورد البخاري حديثاً عن رسول الله برواية
 أبي هريرة يوضح سبب تسمية العبد الصالح بصفة الخضر . عن أبي
 هريرة قال ، قال ﷺ (إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء
 فإذا هي تهتز من خلقه خضراء)

والفروة : الحشيش الأبيض وما أشبهه : يعنى الهشيم اليابس ،
 وقيل : الفروة : الأرض البيضاء التي لا نبات فيها .^(٢)

(١) سورة الكهف آيات ٦٠ - ٨٢ .

(٢) انظر كتب التفسير وانظر أيضاً قصص الأنبياء لابن كثير ص ١٣٩ - ١٤٠ ،
 ٢٠١ ، ٢٠٣ .

ولقد روت كتب التفسير ما جاء عن رسول الله ﷺ بشأن قصة موسى والخضر :

قال ابن عباس : حدثنا أبي بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :

«إن موسى قام خطيباً في بني اسرائيل . فسئل أى الناس أعلم . فقال : أنا . فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه . فأوحى الله إليه : إن لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال موسى : يا رب فكيف لى به ؟ قال تأخذ حوتاً فتجعله بمكمل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم (أى هناك) ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما واضطرب الحوت فى المكمل واتخذ سبيله فى البحر سرباً» ..

وفى رواية لابن جرير بإسناد إلى ابن عباس قال : قال : سأل موسى عليه السلام ربه عز وجل فقال : أى رب .. أى عبادك أحب إليك قال : الذى يذكرنى ولا ينسأنى . قال : فأى عبادك أقضى ؟ قال : الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى . قال : أى رب .. أى عبادك أعلم : قال : الذى يبتغى علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى . قال : أى رب .. هل فى أرضك أحد أعلم منى قال : نعم .. قال : فمن هو ؟ قال : الخضر . قال وأين أطلبه ؟ قال : على الساحل عند الصخرة التى يتفَلَّت عندها الحوت .. (١)

(١) الكشف ج ٢ ص ٣٩٥ .

.. ولندخل إلى القصة ..

علم نبي الله موسى نبياً رجل من الصالحين آتاه الله العلم والحكمة ، ففقد العزم على لقائه ، والسفر إليه ، والضرب في الأرض للقاءه . وجهز نفسه وأخذ معه فتاه واستعدّ بطعام يساعده في رحلته ، وكان طعامه خُوتاً مشويّاً .. ووضع الحوت في مكمل واتجهها ناحية المكان حيث يجمع البحرين^(١) وفي هذا المكان جلسا يستريحان فأصابهما النوم ، ودبت في هذا الحوت المشوى الحياة فقفز إلى البحر وأمسك الله جريان الماء فصار عليه مثل الطاق ، وتلك معجزة لأنه الدليل على معرفة العبد الصالح .. وحين طالب موسى فتاه بالطعام تذكر ما حدث واعتذر بأن النسيان كان سبباً وراء ترك الحوت .. وأخبره بأنه رأى عجبا .. حين مضى الحوت إلى البحر وفهم موسى هذا المقصد .. وعاد وفتاه يتبعان الأثر حتى وصلا إلى المكان الذى انطلق منه الحوت . وهناك .. وجدا الرجل الذى أوتى العلم والحكمة ورأى موسى الرجل وتعارفا .. ودار بينهما حوار ..

● سأل النبي العبد الصالح في تأدب طالب العلم : أيمكن أن أصبحك طلباً للعلم . ولأن الأمر صعب وعسير وثقيل لا يتحمله بشر .. قال له العبد في تأكيد حاسم :

— كيف تقوى على الصبر أمام أمور لا تطيق السكوت عليها .. لجهلك بها ..

(١) هو مكان التقاء بحر الروم (المتوسط) ببحر القلزم (الأحمر) أو هو مجمع خليجي العقبة والسويس .. وقيل أن المكان طنجة في المغرب .. وهو يخالف السياق ذلك أن مشرح تاريخ بني اسرائيل هو هذا المكان .. التقاء الروم والقلزم .. لقربهما من مصر وسيناء .

● وبيادر النبي قائلاً في طاعة من يبغى العلم ويطلبه ويحرص عليه بل وبصر :

● سأصبر ما دمت في صحبتك ولن أعصى لك أمراً . واشترط الخضر على موسى أن يلتزم بالصبر ويتحلى بالسكوت ولا يسأل عن شيء حتى يوضحه هو له ..

وبعد أن أظهر موسى الأدب الذى يجب أن يتحلى به المتعلم تجاه معلمه ، ووافق على شرط الخضر .. انطلقا لتبدأ الرحلة في عالم غريب من المشاهدات والمفاجآت . وعلى الساحل شاهدا سفينة فركباها . حتى إذا أبحرت في عرض البحر أمسك الخضر فأساً فخرق السفينة بأن اقتلع لوحين .. وتدفق الماء وظل يحاول سدّ الخرق وهو يسأل الخضر مستكراً هذا الفعل .. أتخرق السفينة ليغرق أهلها .. لقد أثبتت ففعلت هذه أمراً عظيماً .. ونبهه الخضر إلى ما سبق من مشاركة وتحذير وقال : يا موسى ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً !! وأدرك موسى أنه تسرع واعتذر للخضر قائلاً : لا تؤاخذنى بما نسيت .. وامتدت الرحلة واتصلت ، وتركوا البحر وهبطا إلى البر مرة ثانية .. حيث ستشهد الساحة مفاجآت وغرائب لا تقل تأثيراً عما حدث لهما في البحر .. وانطلقا يدبان على الأرض كل منهما في صحبة الآخر حتى إذا رأى الخضر غلاماً يلعب على مقربة من إحدى القرى ، مضى إليه وقتله ، وينفعل موسى عليه السلام انفعالاً يعجز عن ضبط نفسه إزاء ما يرى من جريمة ، يرى أنه لا داعى لها ولا مسوغ ، فصاح مستكراً أشد الاستنكار : إنك يا خضر قتلت نفساً زكية بغير نفس .. لقد جئت شيئاً نكراً .. لا

ترضاه شريعة ، وينكره المنهج الرباني .. ولكن الخضر إزاء هذا الانفعال يظل هادئاً لا يأبه بغضبه .. ويذكره فقط بما اشترطاه سوياً .. وقال : سبق أن قلت إنك لا تستطيع معي صبراً .. ويستعيد موسى توازنه ، ويخف انفعاله ويسترد احتجازه الشديد ، ويتأسف طالباً منه ، أنه في حلٍّ من الصعبة إذا اعترض على أمر مرة أخرى .. فلقد بلغ العذر .. إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني^(١) ..

وانطلقا .. حيث كان الموقف الأخير من تلك المشاهدات الغريبة . إنهما سيران في القرية وقد أخذ منهما التعب مأخذه ، أحسّاً بالجوع ، ولم يجدا من يسعفهما بالطعام بيعاً أو ضيافةً ، لقد كان أهل القرية لئاماً وشر القرى التي لا يضاف الضيف فيها ولا يعرف لابن السبيل حقّه^(٢) .. ولكن الخضر تقدم إلى جدار متداعٍ في إحدى الدور فقام بإصلاحه دون أن يطلب مقابلاً فلم يتالك موسى نفسه وعلق على هذا الأمر متسائلاً في حذر : لو شئت لأخذت مقابل العمل أجراً فإننا نحتاجه لما بنا من نصب وجوع . وهنا أشار إليه الخضر في حسم جازم وقد رأى أن موسى قد أخلّ بالشرط وعاود المسألة : هذا فراق بيني وبينك .

ولأنه معلم أوتي من العلم اللدني ما عجز عن ادراكه موسى ، لم يتركه دون أن يوضح له ما غمض عليه وأشكل .. ومضى يكشف

(١) عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ .. « رحمة الله علينا وعلى موسى لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب » .

(٢) الكشف ج ٢ ص ٣٩٦ .

الستار عن تلك الأسرار .. أما السفينة التي خرقتها فقد كانت لمساكين يرتزقون بالعمل عليها من نقل للناس والأغراض الأخرى ، ففيها منفعة لهم ولغيرهم من الناس .. وكان في طريقهم ملك باغ وظالم يصادر ممتلكات الغير ، فأردت أن أعيها لأنقذها خالصة لهم من مصادرة الملك واغتصابه .

وأما الغلام المقتول فقد كان شراً على والديه .. فهما مؤمنان صالحان ، ولكنه يهددهما بأسوأ مصير .. إن سوء صنيعه سيلحق بهما الشر والبلاء ، ولأنهما يحبانه فقد يغضبان عما به من سوء فينالان غضب الله .. فكان مقتله جزاء عادلاً على مفاسده وإنقاذاً لوالديه من عواقب جرائمه ..

وأما الجدار فهو لعلامين يتيمين دفن لهما أبوهما تحته كنزاً ، ولأن الأب صالح فلقد حفظ الله الغلامين بصلاح أيهما .. وخشية أن يضيع الكنز وتمتد إليه أيدي الآخرين بادرت إلى إصلاح ما عطب فيه .. ولم أفعل ذلك عن اجتهاد لي ، أو رأى خاص أرثيته وإنما فعلت ذلك كله بأمر ربى ..

.. والملاحظ على قصة موسى والخضر ، وعما ورد عن رسول الله حول هذه القصة .. أنها تدور حول موضوع العلم وتشعب وسائله والتأكيد على أن علم الله فوق تصورات البشر .. فالعلم الذي يعتمد على العقل وحده لا يدرك من حقيقة الشيء إلا بمقدار ما تعطيه الظروف والمقدمات أما العلم الذي يستمد الإلهام الرباني فيرى الحقيقة ماثلة أمامه بكل تفصيلاتها .. ولا تصادم بين العلمين فهما جميعاً من ضروب العلم ..

كما دعت القصة إلى التحذير من الاغترار بمظاهر العلم .. وهذا وارد في حديث رسول الله .. قال ﷺ في الحديث المذكور .. (وجاء عصفور فوق علي حرف السفينة فنقر في البحر نقرة : فقال له الخضر . ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمقاره من هذا البحر ..) .

والقصة تشير إلى عجز التعليل الحسى إزاء المشاهدات الحسية ذاتها .. كعودة الحياة إلى الحوت ، وإدراك ما خفى من أمر الغلام .. وهو عجز يكسر غرور الإنسان ويبعث في قلبه الخشوع لله . كما فيها الدعوة إلى المبادرة بعمل الخير والاحسان إلى الغير .. وهذه القصة حلقة من سيرة موسى عليه السلام لم تذكر إلا في سورة الكهف ولم تتكرر . والقرآن الكريم لا يحدد المكان ، وإنما اكتفى بذكر مجمع البحرين كما لم يحدد التاريخ الذى وقعت فيه من حياة موسى .. كما لم يذكر شيئاً عن صفات العبد الصالح غير أنه أوتي العلم وإنما اكتفى بما يحقق الغرض الدينى المراد بحيث يقتصر عرض القصة بمواقفها وأحداثها على ما يؤدى إلى الأثر المنشود ، فتختار المواقف الكفيلة بإيجاد التأثير المعين وعند ذلك يتوقف العرض القصصى^(١) وقد يبدأ العرض القصصى من نقطة مبكرة تنشأ عنها أحداث ومواقف تنطوى على العبرة فيما بعد .

ولقد سارت الأحداث فى القصة على نظام محدد وفى توقيت محدد .. وترتيب خاص بحيث يبدو الحدث فى مكانه المناسب وزمنه

(١) القصص فى الحديث النبوى ص ٣٤٤ .

المناسب ، فنوم موسى وفتاه حدث جاء في توقيت محدد ليؤدي إلى حدث محدد وهو هروب الحوت إلى البحر سرياً . ويسلم هذا الحدث إلى أحداث متتابعة .. من تعب وجوع وتذكر للحوت ومن ثم العودة .. حيث محور الحدث الكبير وهو لقاء موسى بالخضر وبداية الرحلة وهذا التوقيت السردى سريع في أحداثه محكم في توقيته دون أن يقف السرد مع جزئيات تفصيلية تحل بالعرض والعرض معاً . وثمة ملاحظات في هذه القصة الباهرة .. من هذه الملاحظات ما ورد عن الحوت فلقد كان للحوت دوره البارز في القصة مثله في ذلك مثل الهدهد والنملة وغيرهما .. والقصة تعرض هذه الشخصية الإنسانية إن صح التعبير كدور تكميلي يمهد للحدث .. والقصة تتعرض لبعض مواقف النبي موسى الإنسانية . حيث تبرز العواطف والانفعالات ، فحرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار أحداث غير مألوفة لموسى .. مما أثارت العجب والدهشة ، وأبرزت سمة من سمات شخصية موسى .. وهى الانفعالية الحادة ..

وإذا كان للحوت دوره . فإن فتى موسى .. أدى دوره هو الآخر .. وسكت القرآن بعد ذلك عنه .. إنه لم يذكره إلا في صحبة موسى حتى لقاء الخضر .. ثم تبدأ الأحداث مع الخضر في تجاهل كامل للفتى يوشع .

ولقد قام الحوار في القصة بدور هام في تحديد معالم الشخصية .. وهو حوار منبثق من الموقف ، يتنامى به متلاًماً مع السياق ..

وعنصر التشويق كامن في القصة والقرآن يسرد المفاجآت .. من

رجل غامض ليراها نبي مندهش ، لابرار حكمة إلهية عليا . (إن القوى الغيبية لتتحكم في القصة منذ نشأتها . فها هو ذا موسى يريد أن يلتقي هذا الرجل الموعود ، فيمضي في طريقه ، ولكن فتاه ينسى نداءهما عند الصخرة ، وكأنما نسيه ليعودا فيجد هذا الرجل هناك . وكان لقاءه يفوتهما لو سارا في وجهتهما ولم تردهما الأقدار إلى الصخرة كرة أخرى . كل الجو غامض مجهول وكذلك إسم الرجل الغامض المجهول في سياق القرآن^(١))

وثمة فجوات في القصة سكت عنها القرآن .. واستخدم اللازمة اللغوية كلما بدأت الرحلة في موقف مختلف تلك اللازمة القرآنية هي (فانطلقا ..) وهي فجوة تتيح للخيال البشري أن يتصور ما يمكن أن يحدث .

والتعبير القرآني يعطي للكلمة دلالات تنسجم مع السياق والقرينة فكلمة «عجبا» .. تعطي تلك التنوعات في الدلالة .. إنها تفيد (التعجب من حاله - أي الفتى - في رؤية تلك العجيبة ونسيانه لها .. أو مما رأى من المعجزتين)^(٢) .

إنها بذاتها حركة عجيبة ومن حقها أن تثير عجب المتكلم ومن حق المتكلم أن يثير بها عجب الآخرين وهي إلى ذلك سبيل عجيب حقاً^(٣)

وكذلك الفرق الدلالي بين كلمتي (تستطيع) و (تسطع) . ففى الأولى يهبط الخضر ذهن موسى لاستقبال التفسير للأحداث التي

(١) الظلال ص ٢٢٨١ مجلد/٤ .

(٢) الكشف ص ٣٩٦ ج ٢ . (٣) قصص وعبر ص ١٩٠ .

أنكرها وتشوق إلى معرفتها . ولذلك استخدم فعل الاستطاعة كاملاً . ولكنه بعد ما أتم عرض التأويلات القاطعة المطمئنة ختم ذلك بالفعل (تسطع) وهو يستعمل هذا التعبير بعد إسناد كل ما فعله إلى أمر الله . فيكون في تقصير مساحة الفعل تصوير عجيب لتقصير مسافة الآثار التي أحاطت بالصورة الأولى .

كما أن لفظ (أهل) يعطى دلالات تضفي على الحدث عمقاً وتوضيحاً ، وإحدى الدلالات تدل على أعيان القرية الذين هم موضع نظر الغرب الطارئ ، يتوسم أن يكونوا لضيفته أهلاً .. والأخرى تدل على معظم السكان الذين تأهل القرية بهم^(١) .. وكلتا الدالتين توضحان ما يوصف به أهل القرية من بخل وشح ولؤم وسوء ضيافة غنيهم وفقيرهم كبيرهم وضيعهم ، وهو ما أثار موسى وطلب الأجر ..

إن القصة حافلة بأنواع التعبير الفني والعناصر الفنية مما يجعلها سجلاً حافلاً لتلقى التوجيهات الإلهية ..

والجانب التعليمي في القرآن الكريم واضح في القصص والتوجيهات العقائدية والحث على التأمل والتدبر في ملكوت السموات والأرض ، والتفكير في تجارب الآخرين من الأمم الغابرة ، واتخاذها منطلقاً للعبارة وأساساً لبنيان فكرى سليم .. وإرساء قواعد الأخلاق وأنماط السلوك النفسى السوى .. ولقد ورد ذلك كله في وحدة متناسقة . ولا شك أن إبراز هذا الجانب في

(١) قصص وعبر ص ١٩٣ .

إطار قصصى يجعل المغزى نافذاً إلى القلب فيحمل على المشاركة الوجدانية للأشخاص والتأثر بالأحداث والانفعال بالمواقف ، وتوجيه العاطفة الدينية إلى الخير والحق والفضيلة .. تلك العاطفة الدينية التي تنبى على أساس صاف من العقيدة ، تلك العقيدة التي يبدأ الرسل في الدعوة إليها أولاً .. الدعوة إلى التوحيد والإيمان بالله وحده لا شريك له .. ومن ثم حين ترسخ العقيدة الصافية وترسخ في النفوس ، تُستأصل العادات الفاسدة ، وتستقيم موازين الأخلاق والقيم .

ولهذا فإن القرآن الكريم أقام منهجه التعليمى على العقيدة أولاً لبعث الاطمئنان في النفس والاتزان في الفعل ، وإذا ما تمكنت العقيدة في النفس أيقظت في الإنسان نوازع الخير . قال ﷺ (إذا أراد الله بالعبد خيراً جعل له واعظاً من نفسه) .. (إذ لا شيء يستطيع أن يؤثر من الخارج تأثير الإيمان من الداخل . فكل قوة تتلاشى أمام قوته)^(١)

ولقد وجّه الرسل أقوامهم إلى آيات الله في الكون المحيط بهم وفي أنفسهم لينشأ في القلوب الإيمان العميق بالله سبحانه عبر المشاهدات الحسية التي تتصافر مع الوجدان المنفعل بها لإدراك حقيقة الوجدانية .. ونبذ الفاسد من العقائد الضالة ..

● وفي إحدى حلقات موسى . يوجه نبي الله نظر فرعون إلى التأمل في خلق الله ومظاهر قدرته .. عبر حوار يتجلى فيه الدرس التعليمى

(١) سيكلوجية القصة ص ٥٤٨ .

واضحاً .. مستخدماً الإشارة الحسية كمثير لمدارك العقل وآفاقه
الكامنة ، في صياغة قصصية تحيل الموقف إلى صراع بين نمطين
مختلفين في العقيدة والفكر والتوجه القلبي ..
قال تعالى في سورة طه :

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ . قَالَ هُنَّ
رَبُّكُمْ يَا مُوسَىٰ . قَالَ رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ .
قَالَ لَمَّا بَالَ الْقُرُونُ الْأُولَىٰ . قَالَ عَلِمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ
رَبِّي وَلَا يَنْسَىٰ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا
سَبِيلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّىٰ . كُلُوا
وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولَىٰ النَّهْيِ . مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ
وَفِيهَا نَعْبِدُكُمْ وَمِنْهَا نَخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ . وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا
فَكَذَّبَ وَإِنِّي ﴿١﴾

وقف موسى أمام فرعون ثابت الجأش ، نزع الله منه الخوف ،
ولا عجب فهو رسوله الذي صنع على عينه .. وقف محاوراً فرعون
حول العقيدة ، قائلاً له : لقد قرر الله فيما أوحى به أن العذاب يحق
دائماً بمن يكذب أنبياءه ويعرض عن الإيمان . ويبدو على فرعون
الإحساس بالعتو والطغيان فيحاوره في تبه وغرور : ومن هو هذا
الرب الذي تدعونني إليه يا موسى فإنتى أجهله ولا أعرفه : ويرد عليه
موسى في توضيح حاسم يوقظ فيه تلك الغفلة ويوجه نظره إلى ما
يحيط به من علامات تشير إلى الوجدانية .. وكان رده حاسماً قاطعاً
بليغاً غاية البلاغة ، موجزاً إيجازاً يتضمن المعاني كلها .. قال

(١) سورة طه آيات ٤٨ - ٥٦ .

موسى : إنه الله الذى أبدع خلقه ثم هداه للمنافع ، إنه أعطى كل شيء صورته وشكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به فأعطى العين هيئة الإبصار والأذن موافقة الاستماع وكذلك الأنف واليد واللسان ، كما أعطى كل حيوان نظيره فى الخلق والصورة ^(١) .. وهنا ينتقل فرعون نقلة فجائية أمام هذا الرد الحاسم متصوراً أنه سيخرج موسى ويعيه : قال فرعون : حدثني يا موسى عن أحوال الأمم الغابرة لم كم يعيشوا ليحاسبوا إن كان حقاً ما تقول ؟ لقد كذبوا وعصوا وصدوا .. فأين هم ؟ وقد عذبوا غير الله .. ولقد أحال موسى فى جوابه لفرعون أمر الأمم إلى الله سبحانه : يا فرعون : الله وحده هو الذى يعلم حال تلك القرون وشأن تلك الأمم ، وكل ذلك مسطر عند ربى ، الذى لا يخطئ - تنزه عنه ، ولا يغيب عن علمه شيء .

THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT
Dec. 2012 CE

ومضى موسى يعرض على فرعون الدلائل على وجود الله وآثار تدبير الله فى الكون فقال : انظر إلى الأرض لقد خلقها كالمهد لقضاء المصالح ، إنها كمهد الطفل (وما البشر إلا أطفال هذه الأرض يضمهم حضنها ويغذوهم درها .. وهى مهيأة لهم للسير والحراث والزرع والحياة ^(٢)) والله الذى جعل لكم الأرض مهاداً هو الذى شق فيها الطرق وأنزل من السماء الماء فأخرج به النباتات المختلفة الطعم والشكل والرائحة كل صنف منها زوج يتكاثر وينمو

(١) الكشف ج ٢ ص ٤٣٥ . قال الزمخشري (الله دُرُّ هذا الجواب ما أخصره وما أجمعه وما أبينه) .

(٢) الظلال ج ٤ ص ٢٣٣٩ .

ويزدهر فيصبح طعاماً لكم ومرعى لأنعامكم . أليس في ذلك كله يا فرعون علامات واضحة لمن يستخدم عقله ويتدبر به .. على وجود الله ووحدانيته . إن تلك الأرض التي تخرج هذا النعيم كله والخير جميعه هي مصيرنا حيث نعود إليها مقبورين ، كما خرجنا منها أحياء نرزق .. فمنها خلقنا وإليها نعود ومنها مرة أخرى نخرج للبعث والحساب ..

.. وانتظر موسى أن يدرك فرعون تلك الآيات الدالة على قدرة الله ووحدانيته ، ولكنه أخذته العزة بالإثم وطمع عليه الإحساس بالربوبية المدعاة .. فكذب ذلك كله بالرغم من الوضوح الجلى في سرد الدلائل الحسية والعقلية .. وأبى أن يؤمن وأن يدرك وأن يطيع تلامذاً مع ما ركب في نفسه من صفات العلو والاستكبار .

ومن خلال هذا المقطع الحوارى الذى يتناول فى جدل تعليمى مظاهر القدرة ، وتدرج مناحى التعليم ، واستخدام وسائله الإدراكية .. نتبين بعضاً من الملاحظ الهامة .. منها أن موسى قد ردّ صفة الإبداع والخلق والتسوية فى الهيئة إلى الله سبحانه واستخدم فى العطف الأداة «ثم» التى خرجت عن معناها وهو التراخى إلى المصاحبة فكل خلق وهديه . ذلك أن «كل شئ مخلوق ومعه الاهتداء الطبيعى الفطرى للوظيفة التى خلق لها وليس هناك افتراق زمنى بين خلق المخلوق وخلق وظيفته»^(١)

كما لخص موسى أكمل الآثار الالهية المدبرة للوجود .. حيث

(١) الظلا ج ٤ ص ٢٢٣٨ .

تتجلى تلك الآثار في القدرة المدبرة المبدعة في كل كائن صغير أو كبير من الذرة المفردة إلى أضخم الأجسام ومن الخلية الواحدة إلى أرقى أشكال الحياة في الإنسان . إنه الترابط المحكم بين عوالم الكائنات ، هذا التلاؤم الذى يبدو في وضع كل كائن في مكانه من التركيب الكونى ، وإيصال كل عنصر من عناصر الكون بسائر العناصر . إنه الوحدة القائمة على عدل الميزان .

والتذكير بالأرض في هذا الحوار الرائع فيه إيحاء بأن فرعون على جبروته وعلى ادعائه الربوبية ذو منشأ ترابى .. وهو مثل غيره من القصصى هو استخدام عنصر الالتفات حيث انتقل من ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم المعظم في قوله (فأخرجنا) للإشارة إلى كمال القدرة وانقياد الكون له .

يقول الزمخشري في هذا النسق البلاغى («فأخرجنا» انتقل فيه من لفظ الغيبة إلى لفظ المتكلم المطاع لما ذكرت من الافتنان والايذان بأنه مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لأمره وتدعن الأجناس المتفاوتة لمشيئته لا يمتنع شيء على إرادته ...)^(١)

● ● .. وفى مجال التربية والتعليم تأتى قصة قارون متناسقة مع المنهج القرآنى فى عرض القصص حيث تقف على جوهر المعنى ومعزاه دون اهتمام بالوصف المادى للشخصية وتاريخها وزمانها ومكانها .. إنها تحترق ذلك كله لتقف على العبرة وتقدم العظة

(١) الكشف ج ٢ ص ٤٣٦ .

التربوية في نسق تعليمي يبرز أنماط السلوك الرديئة في تصوير حسي بالغ التأثير ، فتثير المشاعر والانفعالات البشرية وترتفع بها إلى درجة من السمو السلوكي الذي ترمى إليه القصة ، بحيث يصبح مسلكاً سوياً .

ولقد وردت القصة في سورة القصص . وهي سورة حافلة بكثير من المواقف القصصية .. وسورة القصص مكية تلور حول فكرة الحق والباطل ومنطق الاذعان والطغيان وتصور الصراع بين جند الرحمن وجند الشيطان وقد سافت لتوضيح ذلك قصتين : الأولى قصة تصور الطغيان بالحكم والسلطان ممثلة في قصة فرعون والأخرى تمثل الاستعلاء والطغيان بالثروة ممثلة في قصة قارون . (وكلتا القصتين رمز إلى طغيان الإنسان في هذه الحياة ، سواء بالمال ، أو الجاه ، أو السلطان)^(١) ويحكى القرآن قصة قارون فيقول :

قال تعالى :

﴿إِنْ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِدِينَ . قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعاً وَلَا يَسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ . فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ

(١) صفوة التفسير ص ٤٢٣ ج ٢ .

الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون . فحسفنا به وبداره الأرض لما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين . وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لو لا أن من الله علينا لحسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون . تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين .^(١)

وعن ابن عباس : أن قارون كان ابن عم موسى - وعن قتادة قال : كان يسمى المتور لحسن صوته بالتوراة ، ولكن عدو الله نافق . فأهلكه البغي لكثرة ماله . . . واختلف المفسرون حول قارون والدافع الذي دفعه إلى الكيد إلى بني الله موسى . والوسيلة التي لجأ إليها لتحقيق هذا الكيد ، ولكنهم أجمعوا على أنه كان كافراً في الباطن منافقاً في الظاهر ..

ومما قاله المفسرون منسوباً إلى ابن عباس : أن قارون أعطى امرأة بغياً مالا على أن تقول لموسى عليه السلام إنك فعلت بى كذا وكذا فيقال أنها قالت له ذلك فأرعد من الفرق (الخوف) وصلى ركعتين ثم أقبل عليها واستحلفها . . فذكرت أن قارون هو الذى حملها على ذلك واستغفرت الله وتابت إليه فعند ذلك خر موسى لله ساجداً ودعا الله على قارون . فأوحى الله إليه : أنى أمرت الأرض

(١) سورة القصص آيات ٨٣/٧٦ .

أن تطيعك فيه . فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره فكان ذلك .. (١)

.. وليس غريباً على شخصية كفارون أن تسلك هذا المسلك البذئ للذليل من نبي الله موسى ، فما ركب في ذاته من عوامل العلو والغلو .. يجعله يشعر بالاستعلاء وهي صفة في الظاهر قوية لكنها تحوى في الداخل قلباً مريضاً ، يحقد ويهدم .. فهي إذن شخصية منقسمة ، يحرك بريق الظاهر الأخاذ باطنٌ يمور بفساد أخلاقي .. ولأن الطبع البشري واحد في كل زمان ومكان ، فإننا نجد كثيراً من الشخصيات في زماننا هذا تلجأ إلى هذا الأسلوب المتدنئ للذليل من غيرهم . وهو سلوك يدينه القرآن ، وهي شخصية مرفوضة بالمنهج القرآني القويم .

إن قارون يحمل نفساً مريضة ، وعقلاً لا يدرك أو يفهم ، وقلباً خالياً من الانفعالات السوية كالحب والحق . (إن النفس المريضة نفس معطلة الحواس لا تستقبل الخير . نشطة في إرسال موجات الشر والفتنة والفساد والضلال والغواية .. إنها نفس شريرة) (١) .. وهي نفس ظالمة تظلم نفسها بسلوكها وتوقع الظلم بغيرها . ذلك لأن من سماتها الظلم والبغى .. ومن ثم نرى هذا الموقف الذي نحن بصده .. العلاقة بين الظالم الذي أبطره غناه والمظلوم الذي وقع عليه البغى ومن قبل الفقر .. قائمة عبر نوعين من حالات النفس : حالة الشكوى والتنى ، وحالة النشوة والفرح والاستعلاء .. وهما

(١) قصص الأنبياء ابن كثير ص ١٦٦ .

(٢) دراسات نفسية وتأملات قرآنية د . عزت الطويل ص ٢٥ .

موقفان مدانان في القصة .

...وقارون من قوم موسى بل من عشيرته الأقربين ، آتاه الله المال الوفير والسعة في الرزق فحاز سعادة الدنيا ، فاكتنفت خزائنه وعجز الأقوياء من أتباعه عن حملها .. وكان قارون يحيا حياة البذخ والترف يسكن القصور الشامخات ويصطفى الخدم والعبيد ولا يبدو إلّا في أبهى منظر وأجمل زينة . وسيطر المال عليه ففرح وبطر وجحد نعم الله عليه .. وفرض سلطانه على قومه وسامهم البطش والعنت .. وهو في زينته لا يسمع إلّا إطراء المنافقين . ولا يحس نقمة المحروم ولوعة المظلوم

ولكن القوم وقد رأوه سادراً في غيه ، نصحوه طالبين منه أن يشكر الله على نعمه ، حتى لا يعوبه المال فيضل فيكفر ، ويضن بماله على المحتاج والمسكين من قومه وعشيرته .. وها هو المال فلتأخذ منه طيبه وتمتع به في إطار الحلال الذي شرعه الله .. ولا تنس حق البؤساء والمساكين في هذا المال الذي استخلفك الله عليه .. ولكنه حين سمع هذه النصيحة ، ازداد تكبراً وصلفاً (وأنى للطاغية أن تفتح آذانه للنصيحة تلتى إليه . ومنّ للمستكبر ينال النصح من نفسه ويمس شغاف قلبه)^(١) .. وجاء رده على القوم جافياً ومتعالياً .

لقد أعطيت هذا المال لأنتى جدير به ولولا رضى الله عنى ومعرفته بفضلى واستحقاقى له لما أعطانى هذا المال دون قومى

(١) قصص القرآن ص ١٤٦ .

جميعاً ، فاحتفظوا بالنصيحة لعلها تقوّم أموركم وتزيد من مالكم .
ولكن الله عزّ جلّ يؤكد أن هذا الإنسان المغرور بماله . الجاحد نعم
الله عليه ، لا يدرك أنه ليس جديداً في عالم الكفرة الطغاة ، وليس
بدعاً في عالم الجاحدين ، هؤلاء الذين أهلكهم الله بكفرهم
وطغيانهم .. ولم يستمع قارون لذلك كله بل أراد أن يزيد في إيلام
القوم فخرج عليهم في كامل زينته يحيطه الأتباع الكثيرون في حلل
من الذهب والحريز ، على خيول موشحة بالذهب ومعه الجوارى
والغلمان .. ولما رآه ضعفاء الإيمان من قومه خدعهم الدنيا ببريقها
وزخرفها وتمنوا في أسمى أن يكون لهم مثل هذا الثراء الفاحش ..
واعتبروه رمزاً عظيماً للغنى وصاحب الحظ في الدنيا .. ولكن عقلاء
القوم الذين ثبت الإيمان في قلوبهم زجروا الضعفاء الذين أصابهم
رعشة الثراء وزينته ، ونصحوا لهم أن جزاء الله لعباده الصالحين خير
وأبقى .. واستحق قارون عذاب الله . واستجاب الله لدعاء موسى
وخسف به وبداره الأرض ، وما كان له من فئة يدفعون عنه
العذاب .. فابتلعت الأرض ولقفت ماله وقصوره فكان عبرة لقوم
موسى والضعفاء من قومه .. ولما رأى القوم ما حل بقارون رجعوا
إلى أنفسهم نادمين .. وأدركوا أن الله منّ عليهم باللطف وتفضل
عليهم بنعمة الإيمان والرحمة ، وحملوا الله أنهم لم يكونوا مثله ..
وأن عند الله الخير الوفير ، ودار النعيم الخالد الذى لا يبلى ولا
يزول .. تلك الدار التى وعد بها المتقون الذين يبتغون رضوانه
ويحذرون عقابه .

.. وعندما ننعم النظر فى هذه القصة ندرك أن سلطان المال

ينتهي بصاحبه إلى البغى والبطر فاهلاك والبوار ومن ثم فإن المعنى الكامن وراء القصة يشعر بأن قيمة المال والزينة ترخص إلى جانب الإيمان والصلاح . كما تشعر بالاعتدال في الاستمتاع بطيبات الحياة .. في توازن لا ينجح إلى الافراط أو التفريط .

والقرآن الكريم لا يحدد زمان القصة ولا مكانها وإنما يكتفى - تناسقاً مع المنهج القرآني في سرد قصصه - بأنه كان من قوم موسى .. ذلك أن الهدف هو تقرير القيم الإيمانية والقواعد السلوكية . وجزاء البغى الذى مارسه قارون على قومه .. وكل باغٍ يمارس طغيانه على قومه في كل زمان ومكان .

(ولا يذكر فيما كان البغى ، ليدعه مجهلاً يشمل شتى الصور)^(١) من بغى بالمال والسلطان واغتصاب الأرض والأشياء . وحرمان الحقوق ، كما يفعل الطغاة عموماً . ولقد أبرزت الآيات المنهج الإلهي القويم . المنهج الذى يعلق قلب واجد المال بالآخرة . ولا يحرمه أن يأخذ بقسط من المتاع في هذه الحياة .. وهذا المنهج القويم يحقق التعادل والتناسق في حياة الإنسان . ويمكنه من الارتقاء الروحي من خلال حياته الطبيعية .

والقصة حفلت بالأحداث والانفعالات البشرية ، فمن تناول بالبغى والإعراض عن النصيحة إلى الزهو بالنفس والاعتداد بها ونسيان نعم الله وفضله ، إلى العذاب الذى حاق بأهله .. لما فعلوه من بطر وغلو وفساد .. إلى تصوير النفس الضعيفة أمام سطوة

(١) الظلال مجلد/ه ص ٢٧١١ .

المال والجاه ، إلى الإيمان الحق الذى يرى فى ذلك كله خداعاً
وابتعاداً عن الحق .

كما أبرزت القصة فيما أبرزت القيمة الثابتة للإنسان بين المادة
والروح .. موضحة استخدام النعم التى أنعم الله بها على خلقه .. فى
حدود المصلحة العامة للجماعة على نحو يضمن المتعة والخير ،
فالتوجيه الإلهى يضبط غريزة التملك وينظمها فتربط بين الفرد
والجماعة ، وتحمى المجتمع من عواقب الصراع الهدام حول المال
والغنى .

كما أن المال وما يجره من متع ليس هو الذى يحدد قيمة الإنسان
فى مقياس الحق ولكن (قيمة الإنسان إنما يقررها العمل المنسجم
مع تعاليم الله) (١)

ولقد تراوحت القصة بين السرد والحوار والوصف وإبراز
المشاعر المتضادة فجسدت بذلك المعنى المراد أقوى تجسيد وأروع
ورسمت بتلك الصورة المحسمة تلك النهاية للبغى والفساد ، وأدانت
فى تصويرها كل الانفعالات التى تخرج عن المنهج الإيمانى الحق ..

(١) قصص وعبر ص ١٣٧ .

القصة النفسية

يسمو الإنسان بنفسه ويعلو عن الطبيعة الجامدة وإن بدت حية زاهية تخلب اللب وتأسر الفؤاد ، ذلك لأن الإنسان هو الأعقل وهو الأعمق والأفضل .. ومن ثم استحق أن يتحمل الأمانة التي عجزت عن حملها السموات والأرض .. إنه القوة المبدعة ، والروح الصافية المتسامية . وهو في الوقت ذاته يجمع الأضداد والتناقضات ، ويمر داخله بصراعات ، ويشتجر في نفسه صراع أبدي بين الخير والشر ، الحق والباطل . وهو كتلة من الوجدان والمشاعر تشفى فيحصل على منزلة عليا ويصبح نورانياً كالملائكة ، ويسف فيسفل ويضحى ثقيل المادة مطموس القلب ويقترب من الحيوانية ويتعادل في حالات الانهيار والثقل مع الجمود والمادة : .. ومن ثم جاء التوجه الإلهي إلى البحث في أعماق النفس البشرية التي تجمع هذا الخليط العجيب من المشاعر والرؤى والانفعالات ، من أجل إدراك جوهرها .. والقبض على العنصر الخير فيها والتسامي به ..

ولقد كشفت القصة القرآنية عن الشعور الإنساني الفطري الكامن في الذات البشرية حيث لمست أبرز المشاعر الإنسانية ، وأرقها وانبلها ، كما عرّت النفس البشرية في عنادها وتهورها ووقوعها تحت سطوة الانفعال اللاسوي كالحقد ، والغيرة ، والبطر ،

والجنس ، والانتقام ، والخوف ..

«الجانب الوجداني من الإنسان هو بطبيعته أدخل الجوانب في موضوع الفن»^(١)

ومن ثم يتأتى عمق التأثير في العمل الفني حين ينجح في تصوير الوجدان البشرى تصويراً عميقاً وموحياً يكشف عن جوهر النفس ، وطبيعة الذات البشرية .

والنفس منبع القوى الباطنية في الإنسان ومناطق سموه وترقيه ، أو انحطاطه وترديه . ولقد دعا القرآن الإنسان أن ينظر في نفسه كمنطلق إلى الإيمان بخالق النفوس الذى يعلم سرها ونجواها .. قال تعالى : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ ..

وطريق النفس إلى المعرفة يتمثل في ذلك الشعور العميق المتأصل في نفس كل إنسان مهما كان حظه من العلم والثقافة ، وهو ميله الذى لا يغالب ، وانعطافه الذى لا يقاوم نحو السمو والجمال والخير . ومن آيات روعة القرآن وجلاله أن الخالق يحدثنا فيه بنفسه عن همسات الضمائر وخواطر القلوب وما في خبايا النفوس ، وهو أدرى بما أودع فيها من أسرار^(٢) ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾^(٣)

والقصة القرآنية تنظر إلى الإنسان في حقيقته ، وتعرضه عرضاً تكشف فيه ما انطوت عليه نفسه من خير وشر ، وضعف وقوة ، كما

(١) منهج الفن الإسلامى ص ٦٥ .

(٢) سيكلوجية القصة في القرآن ص ٢٦٦ .

(٣) سورة الملك آية ١٤ .

أنها تكشف ما عند الإنسان من قدرة قادرة على الارتفاع والسمو وما لديه من استعداد إلى التدنى والهبوط .. والإنسان في المعنى العميق الذى يكمن وراء القصة القرآنية قادر على أن ينتصر على جوانب الشر والضعف فيه وأن يطمس مسارب الشر ومداخله . والنفس هى جوهر الإنسان ولبابه ، وإليها وبها يكون صلاح الإنسان أو فساده . فمن نفس الإنسان توجد أنسام الطمأنينة والخير والراحة النفسية ومنها أيضاً تنور الأعاصير المهلكة .

ولقد قسم القرآن الكريم النفس إلى أقسام ثلاثة هى : النفس المطمئنة وهى النفس التى تؤمن بالله وتستحضره فى كل موقف . وهذا الذكر الدائم يفيض على النفس أمناً واطمئناناً .

قال تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ، أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(١)

والنفس الأمارة هى المقابل للنفس المطمئنة فهى تتضاد معها وتختلف اختلافاً بيناً . إنها الوحش الضارى تنزع إلى الشر وتنتهك الحرمات . ومع ذلك فإن لهذه النفس علاجها وتطبيبها ، وهو ذكر الله والرجوع إليه .

قال تعالى : ﴿وَمَا أُبْرِءُ نَفْسِي إِنْ النَّفْسُ لَأَمَارَةٌ بالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنْ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢)

والنفس اللوامة هى التى تلوم صاحبها على ما فرط فيه بما لا يرضى ربه (والنفس اللوامة لا تسكن إلا قلب المؤمن بالله المراقب

(١) سورة الرعد آية ٢٨ .

(٢) سورة يوسف آية ٥٣ .

لجلال سلطانه وما يخشى من سطوة عذابه سبحانه ، يوم يقوم
الناس لرب العالمين فى موقف المساءلة والمحاسبة وفى مقام الثواب
والعقاب^(١)

قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ
تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(٢)

ولقد عاجلت القصة القرآنية شرور النفس ومسالكها المريضة
حتى تضرب للبشر العبرة وحتى توضح مجالات الصراع المشتجر
داخل الذات الإنسانية بين الخير والشر وهما قوتان تتصارعان منذ
همس إبليس لآدم أن يعصى ربه .

كما عاجلت القصة القرآنية جمال النفس واطمئنانها وضربت
لذلك نماذج للنفس الحيرة الكريمة ، ومن خلال هذا الضرب من
القصص القرآنى تأتى الأحكام لتعديل السلوك وتقويمه وضبط
العاطفة وكبح الانفعال .

ووراء النفس البشرية حياة متلاطمة الأمواج قليل منها يظهر
والكثير مؤلف من نزعات خفية وأهواء دفينة وأحلام مكبوتة وذلك
كله مطمور تحت قشرة رقيقة فى المخزون النفسى الذى يشبه البركان
الخامد ، ولا شك أن هذه التراكمات لها آثارها على الذات
والسلوك . ويجدر بالذكر التأكيد على أن (أول صورة للعاطفة
الأخلاقية هى الشعور بالمنوع والمكروه . فقد كانت الأشياء فى
الجماعات الابتدائية منقسمة إلى ممنوع ومطلوب وحرام وحلال .

(١) الإنسان فى القرآن الكريم ص ٩٧ .

(٢) سورة الأعراف آية ٢٠١ .

فأدى وجود المنوعات .. والمحرمات إلى إيقاظ شعور الإنسان بشخصيته وإرادته .

لقد كان هذا المنع في الجماعات الابتدائية منعاً خارجياً^(١) ولندكر في هذا المجال أن قصة قابيل وهابيل - ولدى آدم - نموذج فذ ، موجز غاية الإيجاز ، على حدة الصراع بين قوى الخير والشر أو بين النفس المطمئنة والنفس الأمارة بالسوء .

قال تعالى : ﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، قال لأقتلك ، قال إنما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بياسط يدي إليك لأقتلك ، إني أخاف الله رب العالمين . إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين . فطوعت له نفسه قتل أخيه ، فقتله فأصبح من الخاسرين . فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه ، قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخى فأصبح من النادمين﴾^(٢)

ولقد حظى نبأ ابني آدم بكثير من التأويلات والتخرجات . اعتماداً على ما ورد في التوراة وما قال به أهل الكتاب .. وكعادة القدماء حين كانوا ينظرون في قصص القرآن ، فإنهم كانوا يدلون بمعلومات تاريخية عن طريق الرواية ليس لها سند من حقيقة .. وهو تأويل لا يضمني جديداً .. وداخل هذه المعلومات استقاء معارف

(١) علم النفس د . جميل صليبا ص ٢٨٧ .

(٢) سورة المائدة ٢٧ - ٣١ .

اسطورية وردت حول القصة مأخوذة من كتب أهل الكتاب ،
وهي مليئة بأخبار الأولين .. ولقد بلغ التعنت والتأويل مداه حين
نسبوا إلى آدم ألياًناً شعرية قالها بعد وقوع الجريمة يصف فيها حزنه
ويصب فيها حكمته عن الدنيا ومصائر الناس .

وذكر السدى عن ابن مالك ، وأبى صالح عن ابن عباس ،
وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة ، أن آدم كان
يزوج كل بطن بأنثى البطن الآخر ، وأن هايل أراد أن يتزوج
بأخت قابيل ... وكان أكبر من هايل ، وأخت قابيل أحسن .
فأراد قابيل أن يستأثر بها على أخيه وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه
إياها فأبى ، فأمرها أن يقربا قربانا .. فقرب هايل جذعة سمينة
وكان صاحب غم وقرب قابيل حُرمةً من زرع ردىء زرع . فترلت
نارٌ فأكلت قربان هايل وتركت قربان قابيل . فغضب وقال :
لأقتلنك حتى لا تنكح أختي فقال (هايل) .. إنما يتقبل الله من
المتقين .. فلما كان ذات ليلة أبطأ هايل فى الرعى ، فبعث آدم قابيل
لينظر ما أبطأ به .. فلما ذهب إذا هو به . فقال له : تقبل منك ولم
يتقبل منى . فقال : إنما يتقبل الله من المتقين . فغضب قابيل عندها
وضربه بجديدة كانت معه فقتله . وقيل إنه قتله بصخرة رماها على
رأسه وهو نائم فشدخته ، وقيل بل خنقه خنقاً شديداً وعضه كما
تفعل السباع فمات .. (١)

وقيل أنه (بجبل قاسيون شمالى دمشق مغارة يقال لها مغارة الدم
مشهورة بأنها المكان الذى قتل قابيل أخاه هايل عندها) (٢)

(١) انظر قصص الأنبياء ابن كثير ص ٨٥/٨٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٨٩ .

● إن القصة تبدأ بالأمر الإلهي إلى رسوله بقص قصة ابني آدم إلى اليهود الذين يحسدون على المسلمين دينهم ورسولهم .. فيها هي الحياة قد استقرت بآدم وزوجه ، واستقبلت حواء أولادها عاماً بعد عام .. وكانت أن وضعت توأمين قابيل وأخته ، وهابيل وأخته . وشبوا جميعاً في رعاية الأبوين حتى امتلأوا نضارة وشباباً وقويت فيهم غريزة الحياة فال الفتيان إلى أن يتخذا الزوجة التي يسكن إليها .. كي تعمر الدنيا ويكثر الناس وتحقق سنة الله في الكون وتتجلى الحكمة من الخلق .

فأوحى الله إلى آدم أن يزوج كل فتي من توأم أخيه . وحين أفضى آدم إلى ولديه بذلك هبت عواصف النفس وبدت الطبيعة الإنسانية في احتوائها على المشاعر المتضادة .. وحدث الشقاق بين الأخوين ، وأثار الجال الأثوى حفيفة النفس فجمع من جمع ، وأطاع من أطاع ... وحين رأى آدم هذا .. هداه الله إلى مخرج ، فطلب منها أن يقربا قرباناً إلى الله .. ومن يتقبل الله منه يأخذ ما يتمنى ويشتهى ، فقدم هابيل قربانه واختار أزكى ما عنده وقدمه ، وكان هابيل مؤمناً سَوِيَّ السلوك محباً للخلق الكريم ، صافي القلب فُتُقبل منه ، على حين اشتط قابيل غضباً ، وامتلاً قلبه بالحق ، وخلا قلبه من الخلوص إلى الله .. وذلك حين رُفِض قربانه .. وانطفأ الأمل في قلبه وسيطرت عليه الأثرة والأنانية .. وأضحى نفسه مغموسة بالشر ، وانطمست النفس ورجعت إلى بدائيتها وتملكت النفس الأنانية والغيرة .. وهي غرائز ترتكز عليها النفوس المريضة ، ومن يقع تحت وطأتها يهدم نفسه وغيرها أيضاً .. وها هو

الجموح الأنفعالي يتأجج .. فيهدد أخاه هابيل بالقتل : لأقتلك ، ولم يرفع هابيل إلى أخيه يداً بل ناصحه أن يتعرف موضع الداء ويعالجه ، فالله لا يقبل إلا من المتقين .. فقوم السلوك ، وأخلص النية لله .. وأطعه واخضع له .. وتصور هابيل أن كلماته قد تشفيه وتستل من نفسه سخائم الحقد والغيرة .. ولكن البركان في النفس يدمدم والغيرة نار مشتعلة ، ولم تشفع له أخوة أمام غريزة مريضة تجتاحه .. فوقعت الواقعة وتمت الجريمة وراح هابيل قتيلاً ، وسجل بمقتله أول جريمة وقعت على ظهر الأرض .. وراح قابيل يبحث أخيه وظل يحملها على ظهره حتى شاءت إرادة الله أن يضع حداً لهذه الحيرة ، تكرمة للإنسان ، وتعليماً له من طائر أراد الله به أن يلقيه درساً . ويفضح التديني الإنساني الذي سقط فيه .. وها هو الغراب ينكش الأرض ويحفرها ، ويوارى جثة غراب آخر في التراب .. ووصلت الرسالة إلى قابيل فتحسر نادماً على عجزه البشري الذي لا يداني علم الغراب .. الذي جعله الله درساً له وتعلم من هذا الرمز الخاطف كيف يوارى جثة أخيه ..

وكيف يتعالى ببشريته المتدنية إلى رمزية الطائر الأخرس .
والقصة تبين بالدليل أن الغيرة والحسد في النفس المريضة يؤديان إلى العداوة والاعتداء على النفس والغير ، ولا علاج للحسد - وهو يحدث بين الأخوة كما حدث هنا . وكما حدث بين يوسف وأخوته - إلا بالبر والمواجهة لما فيه من صلاح الجماعة وصلاح النفوس وصلاح الدين .

وقصة ولدي آدم وردت في سورة المائدة ، وهي سورة مدنية

طويلة تناولت التشريع الإسلامى لتمكين الإسلام فى الأرض ،
ولتأصيل المنهج الربانى فى تنظيم شئون الكون والحياة . ولا شك أن
جريمة القتل من الجرائم التى تهز البناء الاجتماعى والنفسى . ولقد
جاء القصاص حاداً وحاسماً تلاؤماً مع عنف الجريمة وبشاعتها ^(١) .

ومن ثم فقد وردت الأحكام التشريعية التى تنظم حياة المسلمين
وتضع العقاب الملائم للقتل والنهب والسرقه والغصب .. مما يوحى
بأن قصة ولدى آدم جاءت متنامية تماماً مع السياق القرآنى ، إنها
المدخل الحسى إلى الفكر التجريدى المنظم . (ويحس القارئ المتأمل
لسياق وظيفة هذه القصة فى موضعها ، ويعمق الإيحاء الإقناعى
الذى تسكيه فى النفس وترسبه . والاستعداد الذى تنشئه فى القلب
والعقل لتلقى الأحكام المشددة ..) ^(٢)

وانطلاقاً من المنهج القرآنى فى قصصه ، فالسياق القرآنى لم يحدد
زمان القصة أو مكانها أو تفاصيلها ، بل جاءت القصة قصيرة جداً
تتضمن موقف القربان وأثره ، ولكن لا شك أن ثمة فجوات كما قلنا
تسمح بالخيال أن يملأ هذه الفجوات بما يتنامى مع الحدث الرئيسى
ونموذج الشخصية الذى دار بين نوعين من القيم .. الخير والشر .
المؤمن والجاحد ، السوى والمحبط .. وهى قيم تقبض على الصراع
وتدفع بالحدث إلى نهايته الطبيعية .. ولنا أن تتخيل طفولة الإنسان
الأولى وهو يواجه هذا النوع الغريزى من الصراع .. ولكنه غريزى
بالفطرة لأن الحواس هى التى تطفو وتتحكم ، ولازال الإنسان مهما

(١) نظرات فى قصص القرآن ج ١ ص ٩٤/٩٣ .

(٢) الظلال ج ٢ ص ٨٧٣ .

أوتى من تحضر يرتد إلى تلك الطفولة البشرية .. ويقع فيما وقع فيه قابيل ولنفس السبب ..

ونحن نتابع هذا الصراع النفسى عبر الألفاظ والتراكيب القرآنية الموجزة التى عكست لك فى قوة معجزة .. فى قوله تعالى : ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ توحى كلمة (طَوَّعَتْ) بظلالها المصاحبة ، بأن قابيل - الشخصية المهزومة المحبطة - كان فى صراع مع الضمير ، وكأنما كان يراجع موقفه . إلا أن الهوى الجامح والغيرة المشتعلة والبركان المدمدم ، ينضوى تحت كلمة (نفسه) .. التى أمرته بالسوء ودفعته دفعا إليه .. إنها النفس الأمارة بالسوء ..

.. ولننظر أيضاً إلى قوله تعالى ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ... ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ . فالفعل يشى بتحول النفس من حال إلى حال .. حالة الطيش والجموح والحقد وسطوة الغضب .. والذى لا منقش لذلك كله - فى غيبة الإيمان - إلا الجريمة التى تحوله من رجل غنى وربح وذلك بفضل الله ، إلى خاسر فقد كل شيء .. الإيمان ، والذات فى انتظار نزول العقاب .. وحين تفور النفس ، ترتكب الخطأ وتهدا .. ويتبدى العجز البشرى واضحاً . وتعتقد المقارنة بين النفس والطائر . فيندم الإنسان لعجزه وإحباطه .. والندم شعور طبيعى يتولد من تصور الخطأ .. مصداقاً لما ورد عن رسول الله ﷺ من أن الزانى لا يزنى وهو كؤم ولا يقتل حين يقتل وهو مؤمن .. لأنه فى هذه الحالة قد غاب العقل وعُيِبَ بفعل الغضب وسطوته ومن ثم يأتى الندم تباعاً .. وتلك صفة نفسية بشرية تابعت من طفولة الإنسان حتى يومنا هذا .

ولنتأمل أيضاً الفعل المبني للمجهول في قوله تعالى : ﴿فَتُقْبَلْ﴾ من أحدهما .. ولم يقبل من الآخر .. فالبناء للمجهول يبين أن القبول والرفض موكول إلى الله وهذا يفيدنا في أن لا نبحث عن الكيفية ولا نخوض في تأويلات لا تتلاءم مع السياق .. وأن الأمر كله قد تولاه الله لحكمة عليا .. ومشية مسبقة . وأن المعنى المصاحب لذلك كله هو أن الإيمان من أسباب ادراك القبول الأساسية .

يقول الزمخشري «لما كان الحسد لأخيه على تقبل قربانه هو الذي حمله على توعده بالقتل قال له : إنما أتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى لا من قبلى . فلم تقتلنى . ومالك لا تعاتب نفسك ولا تحملها على تقوى الله التي هي السبب في القبول . فأجابه (أى هابيل) بكلام حكيم مختصر جامع ، وفيه دليل على أن الله تعالى لا يقبل طاعة إلا من مؤمن متقي^(١)

إن الجريمة الأولى تعلمنا كيف نعالج سوءات النفس ونزواتها الحمقاء بمراقبة الله ، والخضوع له ، واثقائه بالإيمان والعمل الصالح .. وانزال العقاب الذي شرعه الله سبحانه في هذه الحالات ، حتى لا تقع تحت كلمتي الحسran ، والندم ، التي شملت قاييل في جريمته .

وإذا كان القرآن الكريم قد صور لنا تلك العواطف الغليظة التي تخرج من نفس أمارة بالسوء ، فتسول لصاحبها إتيان الفعل المحرم

(١) الكشاف ج ١ ص ٣٣٣ .

وهو القتل ، لما وقعت تحته من سطوة الغيرة والحسد ، والرضوخ لمشاعر إجباط نفسى تدفع صاحبها إلى الإفساد الذاتى والجماعى .. فإنه أيضاً قد حدثنا عن عواطف صافية ، كركة النسيم تهمس بها الضائير وتخطر على القلوب اليقظة الواعية .. فتكشف خبايا النفس ومطاوئها فى إشارات تمسّ أرق العواطف والمشاعر .

● وموقف موسى من ابنة شعيب خير مثال لهذا اللون النظيف من المشاعر .. وتلك القصة حلقة من حلقات موسى عليه السلام .. تسجل لحظة هروبه وخوفه من فرعون .. إنها لحظة البداية إلى الرسالة ، فهو حين قتل المصرى خطأ .. هرب حين علم أنه مطلوب واستقر به المقام تجاه مدين عسى الله أن يهديه سواء السبيل .
ويحكى القرآن عن القصة فيقول :

قال تعالى : ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى ، قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ . فَاخْرُجْ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ، قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَدْيَنُ ، قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ . وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يَصِلَ الرَّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ . فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَىٰ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ . فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ . قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ

أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرتي ثمانى حجج فإن أتممت
عشرًا فمن عندك ، وما أريد أن أشقَّ عليك ، ستجدنى إن شاء الله
من الصالحين . قال ذلك بينى وبينك . أيما الأجلين قضيت فلا
عدوان علىّ والله على ما نقول وكيل ﴿١﴾ .

وفى هذا المجال فقد ورد عن المفسرين عدة روايات .. ربما كان
تأثير ما ورد فى الكتب السابقة واضحاً فيها .. حيث تؤكد على
عامل القوة البدنية ، ذلك العامل الذى يلفت إلى صاحبه
الأنظار ، ويوقع فى القلوب الاعجاب والخوف معاً ..

ورد عن ابن عباس : سار (موسى) من مصر إلى مدين لم يأكل
إلا البقل وورق الشجر ، وكان خافياً فسقطت نعلاه قدميه (جلده)
من الحفاء .. وجلس فى الظل ، وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع
وإن نخصرة البقل (نبات عريض الأوراق) لترى من داخل
جوفه (٢) .

وقيل إن الرعاة كانوا إذا فرغوا من وردهم ، وضعوا على فم
البئر صخرة عظيمة ، فتجىء هاتان المراتان فتشرعان غنمهما فى
فضل أغنام الناس . فلما كان ذلك اليوم ، جاء موسى فرفع تلك
الصخرة وحده ثم استقى لهما وسقى غنمهما ثم رد الحجر كما كان .
وقيل : كان الحجر لا يُقله إلا سبعة رجال وقيل عشرة وقيل
أربعون ..

(١) سورة القصص آيات ٢٠ - ٢٨ .

(٢) المراد تأويلاً لأن العقل لا يتصوره ، أن جلد البطن وجلده عمومًا ، قد تلون من
كثرة ما أكل من البقل .. أو أن المعنى يقصد إلى المبالغة .

وورد أنها (المرأتان) لما رجعتا إلى أبيهما قبل الناس واغنامهما حَقْلَ بَطَانٍ . قال لها : ما أعجلكما ! قالت وجدنا رجلاً صالحاً رحماً فسقى لنا ، فقال لإحدهما اذهبي فادعيه لي ، فتبعها موسى فألزقت (ألصقت) الريح ثوبها بحسدها فوصفته ، (أى حددته) فقال لها أمشي خلفي وانعني لي الطريق . وهذا الموقف يورده المفسرون حين يتحدثون عن عفة موسى وطهره .

واختلف في أمر شعيب . أهو شعيب النبي عليه السلام .. رسول الله إلى أهل مدين ؟ ورأت طائفة أخرى أن شعيباً عليه السلام عاش عمراً مديداً بعد هلاك قومه حتى ادركه موسى وتزوج بابنته الصغرى .. وروى عن الحسن البصري : أن صاحب موسى عليه السلام هذا ، اسمه شعيب ، ليس بالنبي صاحب مدين ، وقيل أنه ابن أخى شعيب ، وقيل رجل مؤمن من قوم شعيب .. ● ومنهج القرآن الكريم حين يتحدث عن القصص ويورد موقفاً من المواقف لا يجرى وراء التفاصيل ، ولا يحدد الصفات المادية للشخصية ، ولا يسرد تاريخاً تتابعياً .. بل هو يختار من المواقف وحلقات الحياة ، ما يؤدي إلى إبراز الهدف وتوضيح العبرة . فلا حاجة لما قاله المفسرون حول قوة موسى البدنية ، فالبئر لم تكن مغطاة وإنما وجد الناس يسقون فسقى للمرأتين معهم .. (ولا حاجة كذلك لما روه عن دلائل أمانته من قوله للفتاة ، أمشي خلفي ودليني على الطريق ، خوف أن يراها أو أنه قال لها هذا بعد أن مشى خلفها فرفع الهواء ثوبها عن كعبها .. فهذا كله تكلف لا داعي له

ودفع لربة لا وجود لها . وموسى عليه السلام عفيف النظر نظيف
الحس وهي كذلك ، والعفة والأمانة لا تحتاجان إلى كل هذا
التكلف عند لقاء رجل وامرأة ، فالعفة تتضح في التصرف العادى
البسيط بلا تكلف ولا اصطناع^(١) .

ويميل الشهيد سيد قطب إلى ترجيح أن شعباً ليس هو النبى
وإنما هو رجل آخر من مدين ، ذلك أن شعباً شهد مهلك قومه ،
ولم يبق معه إلا المؤمنون فلو كان هو النبى ما سقى الرعاة قبل بتى
نيهم الشيخ الكبير ، فليس هذا سلوك قوم مؤمنين .. يضاف إلى
هذا أن القرآن لم يشر إلى أية علامات للنبوة ، قد تبدت لموسى وقد
عاش معه سنوات ..

.. أما وأن المنهج القرآنى في سرده للقصص يكف عن ذلك
كله .. فلمنص نحن إلى القصة سردها في مشاهدتها المتتابعة ..

● عرف الملأ من قوم فرعون وحاشيته نبأ ما فعله موسى بالرجل
القبطى الذى وكزه فلقى حتفه ، وها هم القوم يأتمرون عليه
ليقتلوه ، إن ما فعله موسى أمر خطير ، وجاءه رجل مؤمن من آل
فرعون يحذره ، جاءه ساعياً من أقصى المدينة ليبلغه بالأمر الخطير
ويطلب منه أن يخرج من المدينة حتى لا يلحقه الأذى . وخرج موسى
خائفاً وحيداً ، مطارداً . واتجه صوب الصحراء نحو مدين داعياً الله
أن ينجيه من القوم الظالمين .. مضى لا أنيس له إلا نور الله

(١) الظلال ج ٥ ص ٢٦٨٧/٢٦٨٨ .

ولا زاد معه إلا التقوى الخالصة ، اسلم نفسه إلى ربه ، واستسلم له ، ودعاه أن يهديه إلى سواء السبيل . واليد التي رعته طفلاً هي التي ترعاه وهو مطارد خائف .. وانتهى به السفر الشاق إلى ماء لمدين يستسقون به . وصل مكدوداً ومتعباً ، فوجد أناساً قد تراحموا على مورد المياه لسقى الأنعام ، ورأى على البعد امرأتين منغزلتين تدفعان الأغنام عن ورود الماء .. وكأنما كانتا تنتظران .. - وقد بدا عليهما الضعف والمسكنة - أن ينكشف الزحام وينصرف الجمع فتقدما للسُّقيا .

.. ورق قلب موسى لهما ، وثار في نفسه حب الانتصاف لهما وحمايتهما مما هما فيه من ضعف .

إن النظرة السليمة تدعوه إلى أن يتقدم إليهما . وسألها : ما خطبكما ؟ وفي انكسار يثير العطف قالت المرأتان : لا نقوى على السقيا حتى ينصرف الرعاة .. فنحن لا نقوى على المراحمة ، ولا نرضاها ، وليس عندنا من يقوم بالفعل ، فأبونا شيخ كبير لا يقوى عليه .. ولم يتأخر : ومضى إلى البئر وسقى لهما دون انتظار لشيء ، فهو صاحب النفس التي صنعت على عين الله ..

وتولى إلى الظل فالجو حار ، والسفرة أتعبه .. وانطلق لسانه يسترحم ربه ، ولسانه يعبر عن وحدته ، وغرته ، وألمه من هجير الصحراء ، وجوعه الذي يضيئه .. ويرفع رأسه ويدعو : إني إلى فضلك وكرمك فقير محتاج .. وكانت المناجاة تشي بالحزن والألم وتوحي بالحاجة والمساندة .. واستجاب الله وساق إليه الفرج .. إذ أرسل شعيب إحدى ابنتيه في طلبه ، فجاءته الفتاة تمشي على

استحياء مشبة الفتاة الفاضلة الطاهرة وقالت له : فى إبانة ووضوح : إن أبى يدعوك ليجزبك أجر ما سقيت لنا . وكان موسى فى حاجة إلى الأمن ، كما كان فى حاجة إلى طعام ، وكان غربياً فاحتاج إلى الأئس .. وتبع موسى الفتاة إلى بيت أبيها ، وآنس موسى الأمن والأمان وقصّ على الشيخ قصته فطمأنه الشيخ : أنت هنا آمن ، نجاك الله من الظالمين ولا سلطان لقومك علينا ، فطمئن النفس وابتعد الخوف .

وتهدأ نفس موسى وتسكن ، وكان موسى مثار اعجاب الشيخ لما زانه الله به من طبع قويم وخلق طيب . وتبادر إحدى البنتين فى مشاعر انثوية غاية فى الاستقامة والسلامة .. تبادر إلى أبيها قائلة فى إبانة وحياء : يا أبت استأجره .. وكأنا فطن الشيخ إلى المراد .. وكأنا تابعها فى اهتمام مندهش ، فسرّع الفتاة لتؤكد أنه القوى الذى زاحم وسقى ، وأنه العفيف الذى أطرق حياء حين جاءته واستدعته ، وانه الذى سار أمامها حفاظاً على الطهارة وحرصاً على المكرمات ، إنه أمين على العرض ، والأمين على العرض أمين على سواه . إن خير من استأجرت القوى الأمين .

وكأنا كان حديث الفتاة صدى يترجرج فى صدر الشيخ أملاً ورجاءً ، وقد أكد التماس الفتاة ما استقر عليه الشيخ .. ووعاه .. وأدركه .. واستجاب الشيخ ولعله أحس من نفس الفتاة ونفس موسى ثقة متبادلة وميلاً فطرياً سليماً لبناء أسرة .. وتوجه الشيخ إلى موسى قائلاً : إننى أرغب فى أن أزوجك إحدى ابنتي هاتين على أن تكون عوناً لى ترعى الغنم وتساعدنى ثمانى حجيج . وإن زدتها اثنتين

فذلك فضل منك ومئة .

ولم يكذب موسى يسمع دعوة الشيخ حتى سرى أمل الحياة في نفسه وانطلق سعيداً ، وطلب من الشيخ أنه لا عدوان عليه إن أتم أحد الأجلين .

واطمأن موسى في المقام في بيت الشيخ وقد أمن فرعون وكيدته وابتعد عنه الخوف وشعر بالأمان .

● ● إن هذه القصة واحدة من النعم الإلهية التي أنعم بها الله على موسى عليه السلام ، إذ كانت بمثابة مرحلة إعداد روحي عميق أشبه بالاعتكاف الذي يربّي الإرادة ويصفّي النفوس من عوامل الضعف .

والقصة تصور بعض الجوانب النفسية في شخصية موسى ، إنها تصور الحيرة التي عاشها موسى - ربيب القصر - وقد رأى نفسه منبؤاً ومطروداً في صحراء قاحلة . كما تصور حالة الخوف الشديد الذي سيطر عليه حين علم بنية قوم فرعون ثم الأمان وطمأنينة القلب .

كما تصور القصة عواطف الأنثى النظيفة تجاه الرجل (عواطف الإعجاب بقوته ونبله وشهامته ثم أمانته المتمثلة في محافظته عليها ، والفتاة تعبر عن هذه العواطف على طريقة الأنثى الحية الحجول)^(١) .

والتعبير القرآني استطاع أن يعبر عن كل هذه العلاقات النظيفة

(١) منهج الفن الإسلامي ص ٧٦ .

التي لا تنحرف ولا تسف لإبراز أجمل ما في النفس البشرية من مشاعر ووجدانات على طريق الحياة النظيفة التي أرسى قواعدها الإسلام .

وتسبق الزواج مشاعر وأفكار وتجارب تؤهل له وتمهد له . وهذه العواطف ليست حراما . إنها عواطف الإعجاب والميول وما يصحبها من عمل طيب وسلوك قويم . والحكم عليها هو الحكم الذي يستمد شرعيته من قوانين الدين وشرعه الذي يتلاءم مع الفطرة السوية الطاهرة النقية . إنها تهدف إلى علاقة نظيفة مثمرة منتجة ، اتساقا مع فطرة الحياة التي خلقها الله . والجمال هو فطرة الطبيعة ، وكل مشاعر طيبة مبرأة من الغرض فهي مشاعر جميلة ، تساهم في حسن الأداء ، وتقويمه وتعديله وتخليصه من الهوى والجموح والشطط والسقوط .

● ● ولقد أشعت الألفاظ بهذه المعاني جميعها ، فعكست مشاعر الخوف والحيرة والرغبة النظيفة ، وجاءت متنامية مع الموقف ومع الحالة المصاحبة .

فلفظ «يترب» يصور مشاعر القلق الذي يهيجس بالذات ويسيطر على الوجدان ، ويتبدى في حركات مسلكية تدعو إلى التلفت والتوجس وتوقع الشر . وهو فضلاً عن ذلك يعكس ملامح الشخصية الانفعالية العصبية . وكذلك اللفظ (على استحياء) يشي بما تتصف به الفتاة من عفة ونبل وطهارة فهي جاءت تمشي مشية الفتاة الفاضلة العفيفة النظيفة .. تمشي على استحياء في غير تبذل أو تبرج أو خروج عن المألوف في الفطرة السوية .. إنه لفظ قصد إلى

المعنى قصداً في إيجاز مشع .
أما قول الشيخ لموسى (لا تخف) فهو طلب بابتعاد الخوف ،
وهو قول يبعث على الطمأنينة ويشعر بالأمان - ويحتوى الموقف
كله - فالحالة التى تصاحب موسى هى الخوف من فرعون وقومه ،
هذا الخوف الذى استتبع النبذ والطرده والهروب .. فكان طبيعياً
وتلاؤماً مع النسق النفسى أن يكون بدء الحوار إبعاداً للخوف
وإشعاراً بالأمان ..

ولقد جاء لفظ (تذودان) ليصف مشاعر الضعف والذلة
والمسكنة والتى كانت عليه حالة الفتاتين وهما ينتظران السقى إنهما
امرأتان ضعيفتان مستورتان لا تقدران على مساجلة الرجال ولا
ترضيان لنفسيهما أن تزاحما الناس على فعل هو من عمل الرجال

الأقوياء .
THE PRINCE GHAFAR TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

وبأنى اللفظ (استأجره) ليكشف ذلك الهاجس الجميل الذى
تحس به الفتاة إنه الاعجاب بنوعين من القوة تبدت لها من موسى :
القوة المادية التى ظهرت فى مزاحمته للرجال وسقايته لها ، والقوة
الخلقية التى تبدى فى العفة والطهر ونقاء القلب ، والبعد عن تتبع
عورات الناس .. أو اقحام البصر فيما هو مفسد .

.. واللفظ يظهر نفسية المرأة وتكوينها الوجدانى .. فالمرأة حين
تعجب بأحد .. هذا الاعجاب التقي النظيف تحاول فى رقة ،
ونبل ، وإيحاء ، أن تزينه فى عيون الآخرين .. ومن ثم فلقد زينت
ابنة شعيب .. فى عين أيها .. موسى وزكته له وفى هذا المجال فإننا
ننقل عبارة قالها أحد المؤلفين فى هذا المجال الفنى لقصص القرآن

تناول هذا الموقف الشعورى بين موسى والفتاة يقول المؤلف «وتبدأ مرحلة أخرى تصور الاعجاب بالفتى والاحتياال على لقائه إذ تتقدم إحدى ابنتى شعيب إلى أبيها وتطلب أن يستأجره ..»^(١)

والكاتب فى العبارة يصور موسى والفتاة كما لو كانا بطلين لقصة غرام وحب ، فىها المغامرة وفىها الاحتياال ومن ثم الدسيسة للظفر بالحبيب .. ولا شك أن ذلك خيال جر المؤلف إلى الوقوع فىما لا يجب أن يقع فىه ، فالقرآن لا يحكى قصة غرامية ، وإنما هو يورد حلقة من حلقات موسى ولقائه بمن أصبحت زوجة له ، ويان نعم الله على نبيه إذ آمنه من خوف وهىأ له سبل الأمان والأمن .. والاعداد للرسالة ومواجهة فرعون . وما جاء فى القصة كان «تمهيداً طبيعياً وعادياً لأن يزوج الشيخ إحدى ابنتيه من موسى إعجاباً بقوته وأمانته وما قص عليه من قصص نبوته واستعانة به فى رعى ماله تعريضاً عن فقدته الذرية من الذكور»^(٢) .

والاحتكام إلى النص القرآنى يشعر فى حسم مدى النظافة التى شملت هذه العلاقة النظيفة التى بنيت على أساس من العفة والطهارة والتبل ..

وموسى نبى أهله عناية الله ليعلو فوق الحرص على متاع الدنيا والاحتفال بها ، فلطالما تنعم فى المال والنعم فى قصر فرعون . ولكنه فى هذا الموقف نبذ متاع الدنيا وجلس إلى الشيخ الفقير وسمع له

(١) نقلاً عن كتاب القرآن الكريم كتاب أحكت آياته ص ٢١١ والعبارة من كتاب

(الفن القصصى فى القرآن) لمؤلفه د . محمد أحمد خلف الله .

(٢) المصدر السابق ص ٢١٤ .

ورأى الشيخ فيه بعدما سمع منه ما يؤهله لحمل الرسالة فوجدها شرفاً له أن يعرض الزواج عليه من إحدى ابنتيه ولم يكن في ذلك عيب أو حرج والناس يرون المطارِد الغريب صهراً للشيخ ولكن نظرة الرجل الحكيم كانت تنظر إلى قابل الأيام ، إلى موسى والرسالة ، إلى موسى الذى صنعه الله على عينه وتنظر إلى سالف الزمان .. موسى الأمير الذى ترى في حضن فرعون ملك الزمان في ذلك الأوان .

وموسى في هذه القصة لا يحزن على جاه افتقده ولا يفكر في العودة إلى حظيرة ملك طاغ قد تبناه ورعاه وأولاه بالتربية لينعم بما عنده من جاه أو مال ونعيم .. ولكنه يهاجر إلى الله هرباً من الطغيان إلى الحق ، ويقبل أن يعيش مع شيخ عاجز ضعيف تخدمه فتاتان منكسرتان وترعيان له الأغنام .. وها هو موسى يصاهر الشيخ وها هو الشيخ يهيم المكان الطيب والإقامة الآمنة لموسى ..

(فنحن نرى صورة من بساطة الأنبياء ، واحتياهم لقضاء الله ، وفرحهم به ، والتكليف له ، لا يفرحون بما آتاهم .. ولا يأسون على ما فاتهم)^(١)

ولقد تعلق موسى بالشيخ وتزوج ابنته بعد أن وفى بأطول الأجلين .. ولا عجب في ذلك فلقد آوته الأسرة وحمته وكانت عوضاً عن أهله الذين تركهم في مصر ... ولقد لقي عندها الاحترام والإجلال والتوقير ..

(١) القصة القرآنية فتحى رضوان ص ٧٦ كتاب الهلال .

(وموسى عليه السلام نبى من أنبياء الله أعده الله لحمل رسالته .
والأنبياء هم أعظم أبناء آدم وفاءً وأكثرهم عرفاناً بالجميل لأن
الوفاء صنعة تكلف صاحبها مشقة وحرماناً وجهداً^(١) .

.. ولقد جرت القصة حسب النهج القرآنى فلم يورد من الخبر إلا
ما كان متلائماً مع جوهر المعنى والمغزى الإيمانى المطلوب لإبراز المعانى
الروحية الجميلة والتوجيهات الأخلاقية فى أسلوب موجز يشف عن
المعنى فى وضوح باهر .. لا يحتاج إلى تكلف ، ولا يقتضى التأويل ،
ولا يتحمل الجنوح إلى غير مغزاه ومراده .



● ولقد عبّرت القصة القرآنية عن مشاعر مضطربة تملك النفس
وتسيطر عليها . مشاعر ترتد إلى عنف الرغبة وسيطرتها ، واحتوائها
للذات وعجز الذات عن مواجهتها .. وربما كانت هذه المشاعر
أدخل إلى جانب اللذة وشهوة الحس منها إلى رقة الوجدان
ونظافته .. وهو تعبير عن جانب من جوانب الذات فى لحظة تهورها
وعجزها أو فى آنية الضعف التى تلبستها .. وتلك العاطفة الجنسية
عميقة فى الكيان الإنسانى منذ خلق الله الإنسان . وهى طاقة هادرة
توجه السلوك أحياناً .. ولكن ليست الدافع الوحيد إليه .. وليست
هى العامل الكامن فى توجه الإنسان وتحديد مقاصده .. وليست
هى العاطفة الطارئة على الإنسان حتى ينجعل منها أو يقع تحت
سلطتها ، وإنما هى حقيقة كونية فلا تستقيم الحياة بدونها

(١) المصدر السابق ص ٧٩ .

قال تعالى : ﴿سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرضُ
ومن أنفسهم وما لا يعلمون﴾^(١) .

ونظرة الإسلام إلى الجنس نظرة تنطلق من هذا الوجود الكونى
كله .. إنها بنية الكون إن صح التعبير . وفى القرآن الكريم أشارات
تتعلق بالجنس كحقيقة بشرية . قال تعالى ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ
لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾^(٢)

فثمة التقاء وتلاصق حتى ليبدو الجسدان جسداً واحداً ،
ولكنه التلاصق تحت جناح الستر الروحى والنفسى الذى هو وقاية
من الفحش والتبذل .

والإسلام يدرك تماماً ما يحدته التجاذب الفطرى بين الجنسين
من مشاعر وخواطر وأفكار وسلوك ولكنه يقيسها بمنهج (لأن
منهج الذى يسير عليه فى معالجة النفس هو الاعتراف بالطاقات
البشرية كلها ، نظيفة فى معرض النور ، لا مستقدرة ولا مختلصة فى
الظلام)^(٣)

ولقد تحدثت القصة القرآنية عن مجالات الجنس التى تهبط
بصاحبها وتسفل به ، وتجنح به طاقته المنحرفة إلى سبيل فاسد ..
ولكن الحديث وهو يصور لحظة الهبوط لا يرتقى بها إلى الإثارة أو
إحداث اللذة .. شأن ما نراه فى الأدب البشرى المائل إلى الإثارة
ودغدغة العواطف . وإنما يقصد التعبير إلى تصوير النفس البشرية فى
لحظة الضعف دون تزبد ، للتنفير من تلك الفطرة المنحرفة عن منهج

(١) سورة يس آية ٣٦ . (٢) سورة البقرة آية ١٨٧ .

(٣) منهج الفن الإسلامى ص ٧١ .

الله ونسق الفطرة السوى ، ومن ثم فإننا قد نلاحظ المواقف الجنسية والتهيو البشرى لها ، والصراع النفسى المشتجر فى الموقف ، والحالات الوجدانية المعبرة أدق تعبير عن الموقف ولكن فى موضعها من السياق العام دون إثارة أو إحداث لذادة عاطفية وإنما هو عرض لباطن النفس ورغباتها فى نظافة ، وقصد محسوم .

● وتعكس قصة يوسف هذا الجانب من جوانب النفس البشرية . حين راودت امرأة العزيز فتاها .. والقصة حين تعرض هذا الموقف لا تثير تلذذ القارىء بمشاعر منحرفة وإنما تهدف إلى إدانة هذا اللون من المشاعر الفاسدة فضلاً عن إبراز جانب من جوانب الابتلاء التى واجهها يوسف عليه السلام .

(والإسلام لا يحرم وصف المشاعر الجنسية - نظيفة أو غير نظيفة ، ولا يحرم وصف لحظة الهبوط والضعف ، ولكنه يعرضها كما ينبغى أن تعرض . لحظة ضعف لا لحظة بطولة . ولحظة عابرة يفتق منها الإنسان إلى ترفعه الواجب ، ولا يظل دائراً فى حلقتها المرتكسة على الدوام) (١) .

.. ولندخل إلى القصة لنقف على هذه المعانى جميعها .

قال تعالى :

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ .
وَرَاودَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ، قَالَ مُعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَأَى أَحْسَنَ مَثْوًى إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ .

(١) المصدر السابق ص ١٦٢ .

ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين . واستبقا الباب وقَدَّت قَيْصه من دُبُر ، وألقيا سيّدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم . قال هي راودتني عن نفسي ، وشهد شاهد من أهلها إن كان قَيْصه قَدْ من قبل فصَدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قَيْصه قَدْ من دُبُر فكذبت وهو من الصادقين : فلمّا رأى قَيْصه قَدْ من دُبُر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين . وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنّا لنراها في ضلالٍ مبين . فلمّا سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعدت لهنّ متكاً وآتت كل واحدةٍ منهنّ سكيناً وقالت أخرج عليهنّ فلمّا رأينه أكبرنه وقطعن أيديهنّ وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم . قالت فذلكنّ الذى لمتنّى فيه ، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجننّ وليكونا من الصّاعرين . قال ربّ السجن أحبُّ إلّىّ مما يدعوننى إليه وإلاّ تصرف عنيّ كيدهنّ أصبّ إليهنّ وأكنّ من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهنّ إنه هو السميع العليم . ثمّ بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننّه حتى حين . ﴿ ١ ﴾

جاء في حديث الاسراء «فهرت بيوسف وإذا هو قد أعطي شطر الحسن» . قال السهيلي وغيره من الأئمة : معناه إنه كان على النصف من حسن آدم عليه السلام ، لأن الله تعالى خلق آدم بيده

(١) سورة يوسف آيات ٢٢ - ٣٥ .

ونفخ فيه من روحه ، فكان في غاية الحسن البشرى . ولهذا يدخل أهل الجنة ، الجنة على طول آدم وحُسنه . ويوسف كان على النصف من حسن آدم ، ولم يكن بينهما أحسن منهما . وقال ابن مسعود : وكان وجه يوسف مثل البرق ، وكان إذا أتته امرأة لحاجة غطى وجهه . وقال غيره ، كان في الغالب مبرقعا لثلا يراه الناس . ولهذا لما قام ، عذرن امرأة العزيز في محبتها لهذا المعنى المذكور ، وجرى لهن وعليهن ما جرى . من تقطيع أيديهن بجراح السكاكين . وما ركبهن من المهابة والدهشة عند رؤيته ومعايته . (١)

وعن السبعة الأتقياء المذكورين في الصحيحين عن خاتم الأنبياء يأتي حديث رسول الله ﷺ فيوضح ذلك : «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله .» وذكر منهم «ورجل دعت امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله .» وعن النبي ﷺ مررت بيوسف الليلة التي عرج بي إلى السماء فقلت لجبريل من هذا ؟ فقال : يوسف . فقل يا رسول الله كيف رأيته ، قال كالقمر ليلة البدر . (٢)

وقيل كان يوسف إذا سار في أزقة مصر يرى تلالو وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس من الماء عليها .
● وقد فسرهم يوسف بأنه حلّ الهميان وجلس منها مجلس الجامع وبأنه حلّ تكة سراويله وقعد بين شعبها الأربع وهي مستلقية على

(١) قصص الأنبياء ابن كثير ص ٣٣٤ .

(٢) الكشاف ج ٢ ص ٢٥٣ .

قفأها . وفُسرّ البرهان بأنه سمع صوتاً : إياك وإياها . فلم يكثر له فسمعه ثانياً فلم يعمل به ، فسمع ثالثاً أعرض عنها فلم ينجع فيه حتى مُثل له يعقوب عارضاً على أعلته ، وقيل ضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله .

يقول الزمخشري في رده على هذه الروايات المفتربات :

(ولو وجدت من يوسف عليه السلام أدنى زلة ، لنعت عليه . وذكرت توبته واستغفاره كما نعت على آدم زلته ، وعلى داود وعلى نوح وعلى أيوب وعلى ذى النون ، وذكرت توبتهم واستغفارهم ، كيف وقد أثني عليه وسُمي مخلصاً فعلم بالقطع أنه ثبت في ذلك المقام وأنه جاهد نفسه مجاهدة أولى القوة ، والعزم ، ناظراً في دليل التحريم ووجه القبح حتى استحق من الله الثناء فيما أنزل من كتب الأولين ثم في القرآن الذي هو حجة على سائر كتبه ، ومصدق لها ، ولم يقتصر إلا على استيفاء قصة وضرب سورة كاملة عليها ليجعل له لسان صدق في الآخرين وليقتدى به الصالحون إلى آخر الدهر في العفة وطيب الإزار والتثبت في مواقف العثار .

فأخزى الله أولئك في إيرادهم ما يؤدي إلى ، أن يكون إنزال الله السورة في القرآن العربي المبين ليقتدى بنبي من أنبياء الله في القعود بين شعب الزانية ، وفي حل تكمته للوقوع عليها ، وفي أن ينهأ ربه ثلاث كرات ويصاح به من عنده ثلاث صيحات بقوارع القرآن ، وبالتوبيخ العظيم ، وبالوعيد الشديد ، وبالتشبيه بالطائر الذي سقط ريشه حين سفد غير أثناه ، وهو جاثم في مريضه لا يتحلحل ولا ينتهى ولا يتنبه حتى يتداركه جبريل . ولو أن أوقع

الزناة وأشطرهم وأحدهم حدة لقي بأدنى ما لقي به نبي الله مما ذكروا لما بقي له عرق ينبض ولا عضو يتحرك فياله من مذهب ما افحشه ومن ضلال ما أبينه^(١)

● ولقد جنح الخيال كثيراً في هذا الموقف بالذات ، ذلك لأن القصة تحكى عن موقف تعرض يوسف للفتنة والإغواء ، ذلك الموقف الذى عبرت عنه الآيات تعبيراً واضحاً ودقيقاً ، حتى أن ملاسبات الفعل من إغواء واغراء وصد واعتصام .. قد صورت تصويراً لا يترك للخيال بعد ذلك فسحة للتخيل .. ولم يمر الموقف مروراً عابراً بل أخذ مساحته من القصة ، بحيث غطى تلك المحنة الهائلة التى واجهت يوسف ، المحنة التى أحكت فيها امرأة العزيز خططها ليقع الفتى فى شركها .. وربما كان إيراد الروايات الدالة على حسن جمال يوسف ، من أسباب وقوع المرأة فى حبه وهواه ومن ثم محاولة إغرائه .. وكأن الجمال وحده هو المحرك للمرأة لأن تفعل . وكأن هذه الروايات تقدم لها العذر فيما أقدمت عليه .. فلا الجمال مثير بمفرده ، ولا الرغبة الجامحة يثيرها جمال ، أو قبح ، إنما هو نمط من السلوك تحكمه الدوافع القوة المتسلطة ونموذج من الشخصية الواقعة تحت أسر الجموح العاطفى ..

ولو كان الأمر بهذا التأويل الخيالى .. ما كان لعصمة الأنبياء من معنى ، وما كان للإصطفاء من مغزى وهدف ..

● وسورة يوسف مكية ، أفردت الحديث عن يوسف عليه

(١) الكشف ج ٢ ص ٢٥٠/٢٤٩ .

السلام موضحة في أسلوب سردى فذُّ ما لقيه من ألوان البلاء والحن ومن ضروب المعاناة والشدة .. فكانت الحنة الأولى له مع إخوته التي صاحبها أحداث أدت به في النهاية إلى بيت عزيز مصر حيث نشأ وترى - لتأتى الحنة الثانية وهي موضوع درسنا - لتبرز الصراع بين امرأة العزيز وفتاها الذي تراوده عن نفسه ، وقد هيأت كل الأسباب ، وغلقت كل الأبواب ، ولا منقذ من السقوط إلا رحمة الله . وتمسك الحن بعضها ببعض الآخر ، فيقع في حنة ثالثة حيث سجن ظلماً على ما لم يفعل . وفي كل هذه الحن كانت عين الله تحرسه . وتعضمه ، وتوازره حتى جاء الفرج ، وخرج من السجن عزيزاً مكرماً ، مبرأً مما اتهم به ومكّن الله له في الأرض .

ولقد نزلت السورة في فترة عصيبة من حياة الرسول ﷺ حين توالى الشدائد والنكبات عليه وعلى المؤمنين وخاصة بعدما فقد نصيره : زوجته الطاهرة خديجة بنت خويلد رضى الله عنها وعمه أبا طالب ، ولقد كانا خير نصير له وخير معين ، وبوفاتهما اشتد الأذى والبلاء حتى عرف هذا العام بعام الحزن .. وفي هذا الجو العصيب الحزين المليء بالغربة والوحشة ، والألم ، أنزل الله على رسوله هذه السورة تسرية له ، وإيناساً وتخفيفاً للألم ، ومؤازرة للنفس والعقيدة . فمن هذا الجو الحزين سينشق الفرح حين يأتى فرج الله سبحانه ، ويتصير الحق على الظلم ، كما انتصر الله ليوسف ضد أعدائه ، ومكّن له في الدنيا وجعله عزيزاً في أرض مصر وملكه خزائنها .. فالقصة في المعنى العميق تحمل البشر والأنس والطمأنينة ، وتوازر كل من يقف على طريق الحق ، متسلحاً

بالعقيدة ، داعياً إلى التوحيد . متحملاً كافة ألوان الأذى من أجل
هذا الهدف النبيل السامى ..

ولهذا الموقف النفسى الذى مر بمحمد وبالمسلمين فى بداية
الدعوة ، جاءت السورة ذات وحدة واحدة ، ألقت بثقلها ،
فظهرت المشاعر ، وآزرت الجموع ، واستلّت من النفوس بوادر
الضعف وعلامات اليأس ، وأدخلت السامعين فى سياق الحركة
التوحيدية واصطفاء الأنبياء لحمل هذه الرسالة للتصدى لجحافل
الوثنية وغرس شجرة التوحيد الخالص لله .. ومن ثم كان نزولها فى
هذا الوقت متلائماً مع الحركة التوحيدية ، ومع الحركة النفسية ،
الأمر الذى جعلها لا تتكرر فى سور القرآن .. لقد قامت بدورها ،
فى الإمتاع والمؤانسة وفى المؤازرة والمساندة ، وفى العظة والعبرة ،
وفى إبراز مشاعر النفس المختلفة من حب وكرهية ، وحقد
وحسد ، ولهفة وشوق ، وجموح واعتصام ، وغربة ووحشة ..
وفرغ ونصر .. مما يعطى لها تفرداً خاصاً فى مجال القصة القرآنية .

(وهذا الطابع الخاص يتناسب مع طبيعة القصة ، ويؤديها أداءً
كاملاً ... ذلك أنها تبدأ برؤيا يوسف وتنتهى بتأويلها ، بحيث لا
يلتزمها أن تكون حلقة منها أو جملة حلقات فى سورة وتكون بقيتها
فى سورة أخرى . وهذا الطابع كفل لها الأداء الكامل من جميع
الوجوه)^(١)

● ولنخص إلى هذا الموقف المشحون بالصراع .

(١) الظلال ج ٤ ص ١٩٥١ .

● ها هي الأيام تتوالى على يوسف في كنف عزيز مصر ورعايته ،
ويشب الفتى ويخلع رداء الحداثة ويمضي قدماً إلى الشباب وفتائه ،
قوى البدن ، وضىء الوجه ، عفيف البصر ، نقي القلب . لقد بلغ
العمر الذى تلقى فيه الحكمة والتفقه فى الدين فأحسن الله إليه وآتاه
من لدنه الحكمة والعلم .. ولكن الأيام لا تريد له الراحة والأمان
ليتفرغ لرسالته ، فها هي امرأة العزيز قد شغلها أمر فتاها ، وقد نما
وشب تحت عينيها ، شعرت المرأة المترفة بدبيب الحب ينبض فى
العروق ، وبحسيس حسى يتمشى فى الداخل فيشغل قلبها
ويحتويها .. ولم تصمد أمام جموح العاطفة ، ولم تلق بالاً إلى مكاتها
ومنزلة زوجها ولم تراع الحرمه ، لقد شغلها الغريزة ، فضاقت
صدرها ، وأجابت داعى الهوى الجامح ، وبدأت تنصب للفتى
حبال الاعراء والخادعة . لَمَحَتْ ، وأشارت ، وشجعت ،
وصرّحت ، ولكن الفتى الجميل ما كان ينظر إليها إلا غاضاً ، وما
كان يميل قلبه إليها ، أو تحدثه نفسه خاطراً ، وهو الذى نشأ فى
كنف الرجل ، وتربى تحت يد المرأة ، وشمله جميعاً بالرعاية ..
ولكن الأثني وقد شب فى الداخل حريق الرغبة ، تضاعف
هواها وهي تراه مُعرضاً عنها لا يبالي بما تشير أو تلمح .. فلم يعد
أمامها إلا الفعل الحسى نفسه تلجأ إليه وتضع فتاها أمام الموقف
الجامح . فهيأت نفسها جمالاً وزينة ، ونحت جانبا كل جوانب
السلطان ، وأبدت عشقاً متصايباً . فغلقت الأبواب وأسدلت
الستائر وتقدمت إليه قائلة فى صوت ينضح بالرغبة : لقد تهيأت
لك ، فهلّم إلى الفراش وأنت آمن فليس هناك من أحد تخشاه ..

.. ولكن يوسف النبي ولد يعقوب النبي ، ليس كأى فتى ، إنما هو المصطفى للرسالة والمحروس بعين الله .. وواجهها الفتى الجميل الحكيم مذكراً إياها بمكانته فى القصر وقال : معاذ الله أن أجيبك وأفعل السوء ، وأذعن إلى ما تطللين من فحش ، وحاشاى أن أخون زوجك ، وهو السيد العزيز الذى أكرمنى وأحسن مثواى وإقامتى وتعهدنى بالرعاية فكيف أخونه فيك .. وإن كنت قد غلقت الأبواب فإن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وكيف تطاوعنى نفسى إلى هذا الإثم والمعصية . إنه لا يفلح الظالمون . وجنحت بها العاطفة ، واستشاط غضبها واستطار ، كيف للفتى أن يرفض !! وهى السيدة ، صاحبة الصول والطول ، وأنى له ذلك ، وهى تبتدى وهو يرفض ، أهو إذلال ! أهو تمنع ! أم هى عفة ولا تدري !! وهمت به عن عزم وإصرار ، لقد عقدت العزم على الفاحشة ولن يصرفها عنها صارف ، وكأنا تقصد إلى إجباره قصداً . وأمام هذا الموقف الجانح حدثته نفسه بالنزول عند رغبتها ، ولم يكن الهم من الفتى إلا حديث نفس فى موقف مأزوم .. ولكنه حديث ككل أحاديث النفس ، خالٍ من العزم والقصد . وأدركته عناية الله فأحس بإشراق النبوة ، وترقق برهان الله على صفحة القلب ، فصرف الله عنه السوء وعصمه من الفحشاء والتبذل .. فهو المصطفى للرسالة ، ومثله لا تخدعه امرأة ، أو يغويه شيطان .. ورأت منه نية الملهوب والبعد فجذبتة فى شدة حتى مزقت ثوبه ، ولكنه يفلت من المكيدة ، ويمضى قدماً إلى الباب وهى تتبعه ، وما أن انتهى إلى الباب حتى وجد عزيز مصر ، ورب البيت واقفاً لدى

الباب ، وقد رآه مضطرباً ، ممزق الثوب . ولا تعدم الأنثى حيلة في مثل هذه المواقف فبادرت زوجها قائلة : إن الفتى لم يرعِ حرمتك وقد حفظته ، ورغب فيّ وقد صنته .. فقل لي إذن : ما جزاء مثل هذا الفعل إلا السجن ، أو إيقاع العذاب به ! وإذا كانت المرأة قد عادت إلى كيدها ولجأت إليه فإن يوسف التجأ إلى الصدق وإلى الصراحة ، فالموقف لا يحتاج إلا إلى الصدق . قال يوسف للعزيز : هي التي راودتني ، ودعنتني إلى مقارفة الفحشاء ، وجذبتني ومزقت ثوبي ..

وكان يشهد الموقف قريباً لها وكان فيه ذكاء وفطنة ، فبادر القوم قائلاً : إن كان ثوبه قد مزق من الخلف فهو والله صادق ، أما هي فتصبح كاذبة . وإن كان الثوب قد مزق من أمام فهي الصادقة ، وهو الكاذب . وتطلع العزيز إلى يوسف فرأى قبيصه ممزقاً من الخلف ، فوضح له الأمر وأدرك أن الأمر كله ناتج عن كيد النساء ومكرهن ، وطلب من يوسف أن يتكتم الأمر فلا يذكره لأحد .. وتوجه إلى امرأته ناهراً إياها طالباً منها الاستغفار والتوبة من هذا الفعل القبيح .

ولكن الخبر يشيع في المدينة ، ويتطرح على الألسنة ، ويصل إلى النساء فيجعلن منه قصة ، وبدأن يرددن أن امرأة العزيز ، تطلب من فتاه وخادمها أن يواقعها ، بل وصل بها الأمر أن تتوسل إليه كي يقضى وطرها . لقد وقعت في غرامه ، ونزلت عن عرشها ، وتلقت الصدمة عاتية حين وجدته زاهداً فيها . لقد شغفها حبا ، ووقعت أسيرة له ..

ووصلت الشائعة إلى امرأة العزيز وهالها ما سمعت ، لقد فضحت بين الناس ولم يعد للنساء من حديث غير هذا الحب المقيم المفضوح . لقد نالها النساء بالسوء ، وتزدن كطبيعتهن . فأرادت أن تجمعنهن . فدعتهن إلى طعام وهيات لهن متكآت وثيرة ، ومساند مريحة . وقدمت لهن الطعام والفاكهة ، وأعطت لكل واحدة منهن سكيناً ، لتقطع كل واحدة بها ما أمامها من حبات الفاكهة . وانتحت جانباً بيوسف . وطلبت منه أن يخرج عليهن وهن منشغلات بالطعام وتقطع الفاكهة .. وتمش يا يوسف بينهن في أجمل زينة ، حتى تفاجئن .. وفوجئن به بينهن قائماً كأجمل ما يكون إنسان ، فلما رأيته أكبرنه وأعظمته ، وأصابتهم دهشة بالغة ، فما هو فتى كالفتيان ، فما أجمله ! وما أروع ! وظلت العيون تحلق بالفتى على حين مشى السكاكين على الأكف تخرج وتقطع وهن مذهولات مندهشات .. وقلن في صوت واحد وفي نغمة مندهشة واحدة ، سبحان الله .. إن هذا الجلال الفائق يليق بملك كريم .

وهنا تتقدم امرأة العزيز إليهن ، وهي تشعر بأنها انتصرت عليهن وهي ترى عيونهن تأكل الفتى ، رغبة ، وطمعاً ، ودهشة . وقالت امرأة العزيز لهن : إنه يوسف الذى أحبه والذى لمتنى فيه ، ولقد أثر فيكن في لحظة رأيته فيها . فما بالكم وهو معى أراه أمامى صباح مساء .. لقد شغفت به ، وأصدقكن أننى راودته عن نفسه فاستعصم وأعرض ، فأدمى الفؤاد ، وأصاب القلب .. وإن لم يطاوعنى ، ويفعل ما أمره به لأدفعن به إلى غيابات السجن

وظلماته ، يعانى الظلام والوحدة ، ويفنى بهاءه وجماله الأخاذ هذا ، حتى يصبح ذليلاً مهاناً .. وأبدت النسوة رافعة بحال المرأة ، فرغبت فيها ، وحاولن كسر التآبى الذى هو فيه . واتمنع الذى يصرف قلبه . حاولن أن يلبن قلبه ، ويثرن عاطفته ، ويثرن كوامن نفسه .. حتى بدا الموقف عصياً ومثيراً .. فلم يملك يوسف إلا أن يلتجئ إلى الله ، ضارعاً أن يصرف عنه هذا السوء . ويبعد عنه هذا الكيد الذى يمارسنه وينفثن فيه سحر الأنوثة وفتنة الرغبة .. والسجن أثر عندى وأحب إلى نفسى من اقتراف الفاحشة .. إنه بالرغم من ظلماته ، وجهامته .. ووحشته ، أقرب إلىّ وأميل إلىّ قلبى من تلك الدعوة الظالمة . فلتعصمنى يارى من شرهن وكيدهن .. فأنا بشر ، وبمقتضى بشرتى لن يعصمنى من الفاحشة إلا أنت . واستجاب الله لضرعته فصرف عنه الكيد ولما عجزت النسوة جميعهن .. فزعت المرأة إلى زوجها عزيز مصر قائلة له : إن يوسف قد فضحنى ، واقتربى علىّ ، وأرى أن تسجنه فتشنى غيظى منه ، وتبرىء شرفى مما ناله من سوء . وانقاد الرجل إليها ، ودفع بيوسف إلى السجن ، مظلوماً ، وبرئاً .



وحين نعاود النظر مرة أخرى فى القصة ، ندرك أن كل المقولات التى وردت عن جمال يوسف ، أو عن تفسير الهم ، كلها مقولات خارجة عن جسم القصة ، ولا تلقى ظلالاً عليها ، أو تساعد على ادراك الموقف ، أو كشف غموض ، أو توضيح مبهم ، ذلك لأن الآيات القرآنية ، واضحة المعنى مفهومة الغرض

والدلالة ، خالية من أى غموض أو إبهام ، فضلاً عن أن الموقف القصصى قد اكتفى بذاته انطلاقاً من المنهج القرآنى فى السرد القصصى وتأكيداً للغرض الدينى الذى يساق من أجله أى موقف قصصى . فنحن هنا لسنا أمام حكاية تدور حول امرأة وفتى ، وإنما نحن فى المقام الأول أمام نبي من أنبياء الله ، مرّ بمحن وتجارب ، وكان محروساً من الله ، معصوماً عن أى خطأ يرتكب ، فهو القدوة ، وهو المثل .. لأنه المصطفى لتحمل النبوة ، إنه صقل النفس ، وتقوية الارادة وتدريبها على الصبر..

● وإذا كانت السورة تعرض للشخصية الرئيسية ، وهى شخصية يوسف .. بكل ما تنطوى عليه هذه الشخصية من أبعاد ومواقف ، وصراعات ، وتحولات .. فلقد عرضت بجانب هذه الشخصية المحور ، شخصيات فاعلة كان لها دورها الفعّال فى حركة الأحداث ونموها .. وهذا الموقف القصصى الذى نحن بصدد تناوله شخصية المرأة .. فى غرائزها ورغباتها واندفاعاتها الأنثوية .. وهى فى حمأة الشهوة قد عميت عن كل شىء ، فلم تعد تحفل بالحياء الأنثوى الفطرى ، ولا بالكبرياء الذاتية ، ولا بالمركز الاجتماعى الذى توجد فيه ، ولا بالفعل الذى يبنى عن فضيحة مزللة .. إنها مجرد امرأة ذات منصب وجهال تسعى إلى إرواء هوائها الأنثوية .. ولم تكتف الآيات بتوضيح ذلك المعنى الانثوى ، ولكنها كشفت أيضاً عن نفسية المرأة المترفة ، ذات المنصب الرفيع والجمال الأخاذ ، الذى يدين له زوجها - ولها أيضاً - بالولاء والتبعية . ليصبح دلالة إشاريّة إلى الطبقة المترفة التى خمدت فيها الغيرة والحمية فى مسائل العرض

والشرف ..

ولقد كان للمرأة تواجدتها في التعبير القرآني ، ولقد اختلف ذلك التواجد باختلاف السياق ، والمغزى ، ونمط الشخصية ، فامرأة فرعون نموذج لقوة الإرادة ، وصفاء القلب ، فلقد رفضت الوثنية ، ورفضت زوجها وما يدين به ، وولت وجهها إلى الله سبحانه لتحدد توجهها الديني والإيماني ..

وتقف امرأة لوط على النقيض . حيث خانت دعوة النبي ولم تهتد بنور النبوة وكانت حرباً عليه مع الكافرين ، وكذلك امرأة نوح ..

وتتحول أم موسى إلى رمز للأم القلقة ، الحائرة ، المعذبة بفقدان الرضيع .. ويغلب عليها الفرع والخوف والاضطراب ، لولا أن تدركها غناية الله ، فيتحول الخوف إلى طمأنينة ، والهلع إلى رضى بقضاء الله ، فيمتنع الطفل عن المراضع ليعود إلى أمه كره أخرى وهي في حال بين اليأس والرجاء ..

وفي سورة مريم يظهر لنا جانب من خصائص الأنوثة متمثلة في عذراء طاهرة مبتلة ، انقطعت عن الدنيا ، واتجهت إلى الله .. ثم ها هي يتملكها الرعب إذ تجدد نفسها في خلوة مع الملك - الرجل .. فينبثق من داخلها مشاعر التقوى .

وينقلنا لفظ «المراودة» إلى حركة نفسية تصوّر داخل الأنثى في مناورتها للرجل ومحادثته له ..

ويرى الزمخشري أن (المعنى : خادعته عن نفسه ، أى فعلت ما يفعل الخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرج من يده ،

يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه ، وهى عبارة عن التجميل لمواقعة
إياها !^(١)

والمراودة فعل يحتاج إلى زمن .. مما يعنى أن ثمة تمهيداً واغراءً
سبقاً لحظة الفعل ، حيث ظلت امرأة العزيز تبدى للفتى زينتها يوماً
بعد يوم لعلها تستثير فيه كوامن الغريزة .. ولكن الفتى يغض البصر
ويهمل الأمر كله ، مما يسرع بالرغبة إلى ساحة الفعل الذى بدأت
القصة بسرده . وهى المراودة للفعل نفسه بعد أن يثبت من
أساليب المخادعة والترزين الطويل .

.. ويسفر اللفظ عن المعنى .. فكلمة «هى لك» وكلمة
«أغلقت الأبواب» .. تتناهيان مع دلالة لفظ المراودة .. فالتنهؤ يعنى
وصول المرأة إلى قمة الرغبة . والقصد الحاسم إلى تحقيقها يعكسه
لفظ الاغلاق .. فتحن هنا أمام لحظة حاسمة ، اهتمت فيها رغبة
الجسد ، فراودت المرأة ، وتهاوت وأغلقت الأبواب .

.. وهذه الدعوة الراشحة بفحيح الأنثى لا تكون أول دعوة من
المرأة .. بل هى الدعوة الأخيرة .. دعوة الفعل نفسه .

ومع ذلك فإن اللفظ القرآنى - بالرغم من صراحته ووضوحه -
إلا أنه يتجمل فى نقل الحكاية ، تجملاً يشعر بالنظافة والاشارة
الدالة .

ويساهم لفظ (الهم) فى دفع الحدث إلى ذروة الفعل
وعقدته .. ذلك أن نتيجة الهم سترتب عليها أمور معضلة ، ومثيرة

للجدل .

ولقد روت كتب التفاسير روايات أقرب إلى الأساطير التي لا يعقلها إنسان .. وخلاصة تلك الروايات توحى بأن يوسف عليه السلام ، كان هائج الغريزة ، شبق الحس ، مندفع الانفعال .. ولقد رأينا كيف ردّ الزمخشري على هذه الروايات ردّاً فيه كثير من التهكم والسخرية

لقد انهى «الهمم» الموقف الطويل من الاغراء ، وهو تصوير واقعى صادق حالة النفس البشرية الصالحة فى المقاومة والضعف . ولكن السياق القرآنى لم يفصل تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعارضة ، لأن المنهج القرآنى لا يريد أن يجعل من هذه اللحظة معرضاً يستغرق أكثر من مساحته فى محيط القصة ، وفى محيط الحياة البشرية المتكاملة .. وهو أقرب إلى الطبيعة البشرية وإلى العصمة النبوية .. والعرض القصصى يبلغ قمة الأداء الفنى .. ولقد كانت السورة خليفة أن تستر على يوسف أنه هم بها .. ولكن الله سبحانه يريد أن يقول لعباده أن يوسف إنسان ، يهم بالخطيئة شأن الإنسان ثم يرجع عنها شأن الصالحين ، وفى هذه العبارة القرآنية روعة فنية وكشف نفسى عميق حيث تجعل القارئ وهو يقرأ ويتدبر الموقف القصصى أنه أمام شخصيات تحيا وتعيش مثل حياة الناس وعيشهم ، وهمون بالخطأ وبوشكون أن يقعوا فيه ثم يرتدون عنه (١) .

إن قصص الناس تغريماً أن تتشبه بهم حتى وإن كانوا أنبياء .

(١) السرد القصصى فى القرآن ثروت أباطة ص ٢٦ نهضة مصر .

والمراد من الهم - كما يرى الزمخشري - أن نفسه مالت إلى المخالطة ونازعت إليها عن شهوة الشباب . ميلاً يشبه الهم والقصد إليه - وكما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم وهو يكسر ما به ويرده بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم . ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى همّاً لما كان صاحبه ممدوحاً عند الله بالامتناع ، لأن استعظام الصبر على الابتلاء على حسب عظم الابتلاء وشدته ولو كان همه كهمها عن عزيمة ، لما مدحه الله بأنه من عباده المخلصين^(١)

.. وهذا يعطى للموقف القصصى قوة الفعل ، ويوحى بالصراع المشتجر ، ويكشف عن طبيعة هذا الصراع وعن مكوناته ودخائله .. ويجعلنا نتصور تلك المحنة الجديدة التي صمد فيها النبي الشاب وإن شمله إحساس بالمخالطة ...

ومن الألفاظ التي تساهم أيضاً في كشف طبيعة الأنثى ، لفظ (الكيد) . في قوله تعالى على لسان العزيز ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ .. وإذا كان الخطاب واقع في حالة فردية إلا أنه إشارة عامة للدلالة على طبيعة الجنس .. واستعظم كيد النساء ، لأنهن ألطف حيلة وأنفذ كيداً ولهن في ذلك وسائل وأساليب يغلبن فيها الرجال . وروى أن بعض العلماء أعلن أنه يخاف من النساء أكثر من خوفه من الشيطان لقوله تعالى ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً﴾ في حين عظم كيد النساء فقال تعالى : ﴿إِنْ كَيْدُكُنَّ عَظِيمٌ﴾ .

.. والعبارة القرآنية كأنما تحمل حكماً جامعاً .. حكماً أطلق في

(١) الكشف ج ٢ ص ٢٤٩ .

وجه النساء ولم يخصص في المرأة الخائنة ، التي احتالت ، وكادت ، وسجنت ..

ويرى العقاد في كتابه «المرأة في القرآن» أن الكيد في القرآن مذكور بمفاهيم متعددة . «أما الكيد الذي وصفت به امرأة العزيز وصاحباتها فهو كيد يعهد في المرأة ولا ينسب إلى غيرها ، أو هو كيدهن الذي يتسمن به ، وبصدر من خلائقهن وطبائعهن كما يفهم من الاضافة المتكررة ويدل عليه عمل امرأة العزيز فيما غشّت به زوجها ، واحتالت له من مراودة غلامها عن نفسه ، ثم من اتهامه بمراودتها وتنصلها من فعلها» .

وكلها أعمال تتلخص في (الرياء) أو في إظهارها غير ما تبطنه ، واحتياؤها للدرس والاختفاء^(١) . فالكيد الذي وصفت به المرأة في القرآن يحمل مفهوماً خاصاً ينسجم مع طبيعة المرأة وتكوينها النفسى .: كما أن التبرؤ والترين من طبائع المرأة ، فهي تتزين وتتهيا لتعزز إرادة الغير في طلبها .. وهى زينة كافية إذا راقى بمنظرها ، ومن ثم تصبح الزينة في مثل هذه المواقف وسيلة للاغراء .. وهكذا تعكس الألفاظ القرآنية دلالة الموقف القصصى ، في أداء متحرك باهر .. أخذ ، وتكشف عن شخصيات تمور بالحياة ، وتمتلىء بعواطف البشر .

والتجاء امرأة العزيز إلى النسوة اللاتي أشعن الخبر وفضحن المرأة بندرج تحت هذا النوع من الكيد والمكر .. ولكنها - نفسياً -

(١) المعاني الثانية في الأسلوب القرآنى ص ٢٩٩ .

التجأت إلى دعوتهن ، وبجاستهن وإطعامهن - وإخراج يوسف عليهن فجأة ليثيرهن بجماله .. إنما فعلت ذلك لتبرير السلوك الذي أقدمت عليه .. وحتى لا يقوين على الإنكار مما يساعد على اقتناص الاعتراف منهن بعدالة مسلكها - حسب وجهة النظر الخاصة .. وهذا ما حدث .. ويعتبر ذلك نفسياً .. تبريراً للسلوك .. والتبرير لا يعنى أن تكون التصرفات المسلكية معقولة ، وإنما يعنى أن نبرر السلوك حتى يبدو في نظرنا معقولاً .. وهى من حيل الذات الدفاعية حتى يجنب الذات الإنسانية مغبة الاعتراف الحقيقي بدوافع السلوك ..

.. ولقد أبرزت أحداث القصة القرآنية الصراع بين الخير والشر والفضيلة والرديلة ، وصوت الحق ومغريات الهوى .. فى اختيار حر وإرادة متحررة

القصة الإشارية الرمزية

هذا نوع آخر من أنواع القصة القرآنية ، يختلف تماماً عن النوع المعروف والذي تحدثنا سابقاً عن بعض منه . فالقصص في القرآن نوعان : نوع ورد في القرآن الكريم انطلاقاً من قوله تعالى : ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾^(١) حيث تسرد القصة أخبار الأنبياء والرسل والأمم الغابرة . وذكر ما لقيه الرسل من تكذيب من أقوامهم ، ومدى صبرهم الهائل حتى تم لهم النصر على الأعداء الذين مُنوا بعذاب شديد من الله .

ولقد سبق هذا النوع من القصص لتحقيق أغراض دينية متعددة منها إبراز جوهر الرسائل السماوية الداعية إلى التوحيد الخالص وإفراد الله بالوحدانية .. فالدين كله من عند الله . والمؤمنون كلهم أمة واحدة .. والأنبياء سلسلة متماسكة منذ آدم حتى محمد ﷺ . ومن ثم وجدنا في الآيات القرآنية ما يؤكد على الوحدانية والعبودية لله . وما من نبي إلا وجاء بهذه الدعوة . قال تعالى : ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾^(٢) وقال تعالى

(١) سورة يوسف آية ٣ . (٢) سورة الأعراف آية ٥٩ .

﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله مالمكم من إله غيره
قد جاءكم بيّنة من ربكم ، هذه ناقه الله لكم آية فذروها تأكل في
أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم﴾^(١) وقال
تعالى : ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله مالمكم من
إله غيره أفلا تتقون﴾^(٢) .. ونحن نلاحظ العبارة القرآنية المتكررة :
﴿اعبدوا الله مالمكم من إله غيره﴾ قد وردت على لسان كل نبي
تأكيداً على أن التوحيد أساس العقيدة «يشارك فيه جميع الأنبياء في
جميع الأديان وترد قصصهم مجتمعة في هذا السياق لتأكيد ذلك
الغرض الخاص»^(٣)

كما أبرزت القصة القرآنية وحدة الوسيلة إلى الدعوة . فوسائل
الأنبياء والرسل في دعوتهم أقوامهم إلى الإيمان بالله وخلص العبادة
له . وسائل واحدة ، حيث يعرض الرسول دعوته على القوم داعياً
إلى الإيمان بالله واحداً لا شريك له ، ثم يتبع ذلك بالتحذير من
العناد والمكابرة التي يواجهها من القوم ، ويخوفهم عذاب يوم أليم .
وتذكر القصة القرآنية في سياق الدعوة أن طريقة الكافرين واحدة
في مواجهتهم للدعوة ، وتكذيبهم للرسل ، بداية من ادعائهم بأن
الأنبياء بشر لا يفضلونهم في شيء ، وأن أثباع الرسل إنما هم أراذل
القوم .. وهم لا يفضلونهم في شيء ، ويبدى الرسل النصيح مما
يدعونهم إليه فهم يبلغون رسالة ربهم لا يبتغون أجراً ولا مغنماً ،
ولكن القوم يعاندون ويتحدون الرسل في صلاقة المتجبر ،

(١) سورة الأعراف آية ٧٣ .

(٢) سورة الأعراف آية ٦٥ .

(٣) التصوير الفني ص ١٤٩ .

أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ الْعِقَابَ كَمَا يَقُولُونَ ..

ولقد أُلْحِنَّا إِلَى ذَلِكَ فِي الْقِصَصِ الَّتِي أوردناها حول هود وشعيب وغيرهما ويرتبط بهذا الغرض غرض آخر ملازم له لأنه نتيجة له . إنه الغرض الذي يؤكد على مؤازرة الرسول وتثبيته في مواقفه وطمأنة المؤمنين معه حيث تبين تلك القصص جميعاً مصارع الأقسام الذين كذبوا برسول الله ، وكذلك نصر الله لأنبيائه والمؤمنين به .

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ . فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾^(١) وقال تعالى : ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ ، وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مَفسِدِينَ . فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتِهِمُ الرِّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾^(٢)

.. وأغراض القصة القرآنية كثيرة ومتعددة ولكنها تستقي تنوعها من الغرض الديني الكبير الذي سبقت من أجله وهو بيان وحدة الدين والرسالات ووحدة الوسائل ومؤازرة الرسول وتثبيته . وهذا الجانب القصصي نزل به القرآن الكريم .

أما الجانب الآخر من القصص فقد نزل من أجله القرآن ، ذلك لأن الآيات القرآنية التي وردت في هذا اللون إنما جاءت إشارات رامية إلى قصص وأحداث قد وقعت للمسلمين تحتاج إلى

(١) سورة العنكبوت آية ١٤/١٥ .

(٢) سورة العنكبوت آية ٣٦/٣٧ .

القول الفصل ، وتنتظر نزول القرآن الكريم ليبين فيها الحكم والتشريع والعبرة والموعظة .. وكشف حقائق المواقف وأسرارها ، وهو من هذه الناحية يعتبر قصصاً إشارياً لموضوعات ذات أحداث ومواقف وقصص .

وهذا الجانب الإشارى فى القصة القرآنية ينقسم قسمين : قسم يتخذ الرمز محوراً للقصة . وهذا يتأتى فى القصص التاريخية التى جاء بها القرآن ، أما الجانب الإشارى الآخر فيختص بما وراء الآيات من مواقف قصصية حدثت للمسلمين أنفسهم .

وخير نموذج للنوع الأول من القصص الإشارى الرمزى . قصة (البقرة) .. التى وردت فى سورة (البقرة) والتى سميت باسمها .. ولا شك ان الإشارة كرمز إلى البقرة يعنى معنى عميقاً تدل عليه تلك الإشارة المتكررة «إن الإشارة هنا إلى محسوس خارجى ، ولكنها فى الدلالة تكتسب أهمية فى الحدث لأنها أصبحت بؤرته ومحوره . وتصبح العلاقة ليست علاقة تشابهية بقدر ما هى إدراك للمغزى الخفى»^(١)

.. وتحكى الآيات القصة فتقول :

قال تعالى :

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً . قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ . قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بُكْرٌ عَوَانٌ

(١) الصورة الأدبية د . مصطفى ناصف ص ١٤٥ .

بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون . قالوا ادعُ لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرةٌ صفراء فاقعٌ لونها تَسُرُّ الناظرين . قالوا ادعُ لنا ربك يبين لنا ما هي إنَّ البقر تشابه علينا وإنَّا إن شاء الله لمهتدون . قال إنه يقول إنها بقرةٌ لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمةٌ لا شية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون . وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها والله مخرجٌ ما كنتم تكتمون . فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويرىكم آياته لعلكم تعقلون»^(١)

● وهذه القصة الرمزية التي تدور حول رمز حيوانى وهو البقرة وردت فى كتب المفسرين على صور عديدة «ولكن هذه الصور كلها تلتقى على أمر واحد هو أن رجلاً غنياً من بنى اسرائيل ، لا ولد له ، فاستعجل وارثه قتله ليأخذ ماله ، وتظاهر بأنه يطالب بدم القتل أو دية القتل»^(٢)

ولقد تناولت الكتب الدينية جانبين من القصة . كل جانب يغطى موقفاً من القصة بحيث يتبدى لنا المعنى العميق وراء القصة . ويكشف لنا السر وراء رمز البقرة . الأول وهو إحدى الصور التي وردت عن سبب حدوث القصة .

والثانى موقف حياتى يكمن وراء تعدد الصور التي وردت للبقرة بحيث تنطبق فى النهاية على بقرة اليتيم .

(١) سورة البقرة آية ٦٧ - ٧٣ .

(٢) القصص الرمزية فى القرآن الكريم . أحمد محمد جبال ص ١٢٥ .

● كان رجل من بنى إسرائيل مكثراً من المال وله ابنة واحدة ، كما أن له ابن أخ وحيداً ، فخطب ابن أخيه إليه ابنته فأبى أن يزوجه إياها لفقره وحاجته . وغضب الفتى واشتد غضبه حتى أقسم : والله لأقتلن عمى ، ولأخذن ماله ولأنكحن ابنته ولأكلن ديتة . واحتال لذلك حيلة . فجاء إلى عمه - وقد قدم إلى المدينة تجار ببضائعهم وسلعهم - فقال يا عم . انطلق معى ، فخذ لى من تجارة هؤلاء القوم لعلى أصيب منها خيراً فلأنهم إذا رأوك معى أعطونى . واستجاب العم لابن أخيه فانطلق معه إلى القافلة ليلاً ، وفى الطريق اغتاله الفتى ، ثم عاد إلى أهله ، فلما أصبح جاء يطلب عمه كأنه لا يدرى أين هو ؟ ولما لم يجده عاد إلى المكان الذى طرحه فيه قتيلاً فوجد قوماً مجتمعين عليه ، وهنا تابع الفتى تنفيذ مكيدته فألقى تهمة قتل عمه على هذه الجماعة المحيطة بجثته ، وقال أنتم قتلتم عمى فأدوا إلى ديتة ، وجعل يبكى وينادى واعماه .. ودفعهم إلى موسى عليه السلام ليقتضى فيهم ، فقتضى عليهم بالدية . ولكنهم أبوا وقالوا يا رسول الله ، إن ديتة علينا هيئنة ولكننا نستحي أن نغير به ونحن أبرياء .. فادع لنا ربك من صاحبه فيؤخذ به . وسأل موسى ربه فاستجاب له ونزل جبريل يأمرهم بذبح البقرة^(١)

وعن ابن عباس : كان رجل فى بنى إسرائيل كثير المال ، وكان شيخاً كبيراً وله بنو أخ ، وكانوا يتمنون موته ليرثوه ، فعمد أحدهم فقتله فى الليل وطرحه فى مجمع الطريق ، ويقال على باب رجل منهم . فلما أصبح الناس اختصموا فيه ، وجاء ابن أخيه فجعل

(١) القصص الرمزى ص ١٢٥/١٢٦ .

يصرخ ويتظلم فقالوا : مالكم تختصمون ولا تأتون نبيّ الله ، فجاء ابن أخيه فشكا أمر عمه إلى رسول الله موسى . فقال موسى عليه السلام .. أنشد الله رجلاً عنده علم من أمر هذا القتل إلا أعلمنا به ، فلم يكن عند أحد منهم علم منه . فسألوه أن يسأل في هذه القضية ربّه عز وجل . فسأل ربه عز وجل في ذلك ، فأمره الله أن يأمرهم بذبح البقرة ..^(١)

● أما الجانب الثاني الذي يكمل بناء القصة ويكشف عن بعض معانيها المستترة فيتمثل في أنه كان هناك ولد صالح بار بأبيه وكان يملك هذه البقرة الموصوفة بصفات لا تنطبق إلا عليها ، فلما وجدها القوم المتخاصمون عنده ، ساوموه عليها بقرة ببقرة ولكنه أبى وظلوا يزايدون حتى عرضوا عشراً ولكنه في كل مرة يرفض حتى أعطوه وزنهما ذهباً . وقيل وزنها عشر مرات .. فقبل .

● (وروى أنه كان في بني إسرائيل شيخ صالح له عجلة «بقرة» فأثى بها الغيضة وقال : اللهم إني استودعكها لابني حتى يكبر ، وكان براً بوالديه ، فشبت ، وكانت من أحسن البقر وأسمه ، فساوموها اليتيم وأمه حتى اشتروها بملء مسكها ذهباً ، وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة دنانير)^(٢)

وعن رسول الله ﷺ : «لو اعترضوا أدنى بقرة فذبجوها لكفتمهم ، ولكن شددوا فشدد الله عليهم» .
... ولندخل إلى القصة :

(١) قصص الأنبياء ص ١٢٨/١٢٩ .

(٢) الكشف ج ١ ص ٧٥ .

قتل الرجل الغنى من بنى إسرائيل ، ولم يعرفوا قاتله الحقيقى ، فلم يجد القوم ملجأ إليهم إلا موسى عليه السلام ، فذهبوا إليه يتحاكمون ويلتمسون عنده الحل وتوضيح ما خفى عليهم ..
 وسأل موسى ربّه عن الأمر . وينقل إليهم المطلب الإلهى ..
 .. يا قوم إن الله يأمركم بذبح بقرة .
 ولكن القوم ، وقد أخذوا بظاهر اللفظ دون أن يدركوا مغزاه ، بادروا موسى فى استهزاء وسخرية ، كعادتهم دائماً مع أنبيائهم ، وقالوا ..

– أتأمر بنا يا موسى .. وكأنما تسفه عقولنا !!
 ولكن موسى يواجه القوم فى حلم وأناة ، صابراً عليهم ، فهو أعلم بطبيعتهم .
 ويستعيد بالله مما قالوه ، وتنادوا فيه .
 – أعوذ بالله أن أكون مستهزئاً بكم ، فما هو طبعى وأتم تعرفون ويتدارك القوم الموقف ويتأدبون إلى حين مع نبيهم .
 – إذن .. ما البقرة التى تريدنا أن نذبجها .. ما صفتها ؟
 فالأمر مهم . والبقرة كثير ..
 ويقول موسى فى نبرة تحمل الدعوة إلى الطاعة وتنفيذ الأمر .
 – إن البقرة المطلوبة تتصف بأنها وسط بين الكبر والصغر ..
 فدعوا اللجاج وكثرة السؤال ، ونفذوا ما يطلب منكم .
 ولكن الطبع غالب ، فعاودوا السؤال فى إلحاف ، وأدخلوا أنفسهم فى دوامة الاستقصاء .. والاستقصاء شؤم^(١)

(١) الكشف ج ١ ص ٧٤ .

- يا موسى .. فلتبين لنا ما لونها .. أهى من جنس البقر ولونه ..
وكأنما لا يزالون فى أعماقهم يرفضون هذا النوع من الطلب ..
وعقولهم الضالة تصور لهم عدم ارتباط الأمر الجلل بالبقرة .. وكأنما
يقولون .. فلنمض معه إلى النهاية ، فإما نقنع .. وإما ينتهى الأمر
كله .

وينخبرهم موسى باللون قائلاً :

- إنها بقرة صفراء شديدة الصفرة تسر بمنظرها من يراها ..
ووقع القوم فى حيرة ، وازداد عجبهم من الأمر .. فالبقر كثير واللون
يتشرو ليس محددًا على بقرة بعينها .. إن الأمر يثقل عليهم .. وعادوا
إليه بعد أن تعبوا من البحث .. وعادوا السؤال بصيغته الأولى
ولكنهم أضافوا اعتذاراً جديداً .. فلعلهم أدركوا مدى اللجاجة التى
وقعوا فيها ..
- إننا فى حاجة إلى تحديد أكثر . فلا عمر البقرة كافٍ ولا
لونها .

ولقد تشابه علينا البقر .. ووقعنا فى حيرة ..
.. ولو أن القوم تعرضوا إلى بقرة ما فذبجوها كما جاء فى الحديث
لأجزأتهم . ولكن طابع التشكك أوقعهم فى دوامة الاستقصاء
فشدد الله عليهم .

وموسى عليه السلام يدرك ذلك ويتابعهم بعينه ، مدركاً هذا
الطبع المتشكك وهو وراءهم بتلك الوسيلة الحسية المشهودة
ليتعرفوا إلى الحق ..

وهو يعرف أن عقولهم قد ضلت وأنهم عجزوا عما وراء الرمز من

سرّ .. وقال لهم دون أن يغضب أو يضجر .

- إنها بقرة ، لم تسخر لحث الأرض ولا لسقاية الزرع ..
مبرأة من العيوب ، ليس فيها لون يخالف لونها الأصفر الفاقع ..
.. إنها صفراء كلها ..

واهتدى القوم إلى البقرة بعد بحث وتعب ، ووجدوها عند
ذلك اليتيم الذى بارك الله فى بقرته فاشتروها منه بمال وافر^(١)
وتوجهوا إلى موسى وقد قضوا على الحيرة التى تملكهم وابتدروه
قائلين :

- الآن جئت بالحق .. ووضحت تماماً ، بل ولقد اهتدينا إليها
وانتهى الغموض الذى اكتنف الأمر كله ..

ثم ذبحوها وما كادوا يفعلون .. ذلك لأنهم وهم أمام الأمر
الواقع شغلهم - وهم المادبون - هذا الذهب الباهظ الثمن لقاء تلك
البقرة ، والذى ذهب إلى ذلك اليتيم .. كما شغلهم أمر الفضيحة ..
فالدبح هو الكشف النهائى للسر الذى خفى وحاولوا أن يدفعوه ..
ويكشف موسى عليه السلام سر البقرة فيقول :

- اذكروا أيها القوم من بنى إسرائيل انكم قتلتم نفساً وتخاصمتم
بشأنه ، وتدافعتم ، كل فريق يدفع التهمة عن نفسه وينسبها لغيره ..
ولكن الله يفضح شأنكم ويخرج سرّكم .. ويقف القوم حائرين
خائبين المسعى وموسى يواصل .. حديثه ..

(١) قصص القرآن ص ١٣٩ .

- هيا إلى البقرة المذبوحة .. فاضربوا القتيل بشيء منها فيحيا
 بإذن الله .. ويخبركم عن القاتل ..
 وأسقط في يد القوم .. حين رأوا الآية واضحة جلية - حيث
 نهض القتيل بعد ضربه فسأله موسى من قتلك ؟ قال : قتلتى ابن
 أخى ثم عاد ميتاً كما كان (١)
 وهكذا رأى القوم بأعينهم دلائل قدرة الله على البعث والاحياء
 ليتفكروا ويتدبروا ويعلموا أن الله على كل شيء قدير (٢)



وهذه القصة الرمزية القصيرة ذات دلالات متعددة .. فهي
 تدل على طبيعة بني إسرائيل .. فقلوبهم منقطعة الصلة إلى الإيمان
 بالغيب والثقة بالله ، وعدم الاستجابة للتكاليف وتلمس الحجب ،
 والسخرية المنبعثة من سلاطة اللسان .
 ولقد ضيق بنو إسرائيل على أنفسهم دائرة الاختيار وكانوا من
 الأمر في سعة فأصبحوا مكلفين أن يبحثوا لا عن بقرة .. مجرد بقرة
 بل عن بقرة .. محددة الصفات ..
 ولقد كشف الحوار هذه الطبيعة ، المتشككة ، الساخرة ،
 الراضية ، الغليظة القلب ..

● كما تدل القصة في معناها العميق الذى يأتي من وراء الرمز -
 البقرة - على قدرة الله ، وحقيقة البعث وطبيعة الموت والحياة .
 وتلائم سياق الأداء القرآنى مع هذه النقلة الفكرية - الدينية -

(١) قصص الأنبياء ص ١٣٠ ج ٢ .

(٢) صفوة التفسير ج ١ ص ٦٨ .

حيث تحول الأداء من سرد الحكاية ومواقفها المتناقضة ، إلى استخدام الخطاب ٨. الذى يتلاءم مع المواجهة والتحدى .. حيث كشف الخطاب عن الحكمة من ذبح البقرة .. وهو المعنى العميق وراء الرمز الإرشادى . حيث أظهر الله الحق على لسان القتيل ذاته . وكان ذبح البقرة وسيلة إلى إحيائه .

(إن البقر يذبح قرباناً كما كانت عادة بنى إسرائيل .. وبضعة من جسد ذبيح ترد بها الحياة إلى جسد قتيل . وما فى هذه البضعة حياة ولا قدرة على الإحياء . إنما هى مجرد وسيلة ظاهرة تكشف لهم عن قدرة الله . التى لا يعرف البشر كيف تعمل . فهم يشاهدون آثارها ولا يدركون كنهها ولا طريقتها فى العمل . ﴿كذلك يحيى الله الموتى﴾^(١)

... والقصة بدئت بداية تثير الشوق .. فثمة مجهول لا نعرفه ، وثمة ماديّات حوارية تدور حول الظاهر - البقرة ، عمرها ، لونها ، حقيقة شكلها .

ولكن الباطن مغيب .. ولن تسفر القصة عنه إلا فى سياقه الطبيعى ومكانته الدالة عليه .. وبين البدء والمنتهى يدور الحوار .. ولكن كما عودنا المنهج القرآنى فى السرد ، فثمة فجوات كثيرة يستطيع الخيال البشرى أن يملأها بالتصور وهى فى جانب تصوّر طبيعة النبى الصابر على لحاجة القوم ، الحليم على سلوك يتسم بالثبّت والحذر - وطبيعة بنى إسرائيل الحائرة ، الشاكة ، المندهشة ،

(١) الظلال مجلد ١/ ص ٨٠ .

الباحثة عن شيء مادي ليحلّوا به شيئاً يكتنزه رمز البقرة ..
وفي النهاية تأتى المفاجأة - حاسمة ، جليلة تكشف عن القاتل ،
وتحمل العظة والعبرة عبر الرمز ، وعن طريق المشاهدات الحسية ،
للتأكيد على الغرض الدينى وهو البعث والإحياء ..

يقول الزمخشري فى هذا السياق .. سياق ترتيب القصة على هذا
النوال السياقى . (فإن قلت : فما للقصة لم تقص على ترتيبها وكان
حقها أن يقدم ذكر القتل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها .
وأن يقال : وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة واضربوه
بها . (قلت) . كل ما قصّ من قصص بنى إسرائيل إنما قصّ تعديداً
لما أُوجد منهم من الجنايات وتقريعا لهم عليها . وهاتان قصتان كل
واحدة منهما مستقلة بنوع من التقرير وإن كانتا متصلتين متحدتين .
فالأولى تقريرهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامثال . وما
يتبع ذلك . والثانية للتقرير على قتل النفس المحرّمة وما يتبعه من
الآية العظيمة . وإنما قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتل
لأنه لو عمل عكسه لكانت قصة واحدة ولذهب الغرض من تثنية
التقرير^(١))

والقصة ذات موضوع . وهو قتل إنسان برىء من أجل أن
يسلب القاتل ماله .. (فالقضية هى الطمع فى مال الغير واستعجال
الإرث قبل أن يحين ميقاته يلزهاق الرّوح وسفك الدماء ، وهذا
تكون الجريمة مضاعفة مغلظة .. والموضوع يحمل عبرة وهى أن الله

(١) الكشف ج ١ ص ٧٦ .

عز وجلّ بالمِرصاد لكل ظالم . وهو آخذه منها حاول من اختفاء واحتيال ، وفاضحه على رؤوس الأشهاد^(١) .

ومن أجل إبراز ذلك كله جاءت القصة على طريقة المنهج القرآني . فمن أجل توصيل هذا المعنى وإبرازه .. جاء التشويق لمسك أنفاس أنظار القوم ويقبض على مشاعرهم الداخلية ..

(هذه الواقعة قتل النفس جرت قبل أمرهم بذبح البقرة وإن

وردت في الذكر بعده ، والسّر في ذلك : التشويق إلى معرفة

السبب في ذبح البقرة ، والتكرير في التقرير والتوبيخ . قال العلامة

أبوالسعود : وإنما عُيّر الترتيب لتكرير التوبيخ وتثنية التقرير فإن كل

واحد من قتل النفس المحرمة ، والاستهزاء بموسى عليه السلام

والأفقيات على أمره جناية عظيمة جدية بأن تنعى عليهم^(٢)

.. ومثل هذا النوع من القصص الإشاري الرمزي يتخذ الرمز

الحسي أداة فعالة في مجريات الحدث .. يمكن وراءه الفكرة

المجردة .. ذات المعنى العميق المستتر خلف الرمز .. (وهذا التخيل

والتجسيم وعمق التصوير يساعد على تشكيل الفكرة المجردة تشكيلاً

يتلاءم مع مدركات الإنسان ووجداناته)^(٣)

فالبقرة تجسيد لموقف قصصي محدّد استولدت منه أحكام

وتشريعات .. والرمز هنا هو البنية الحية في الحدث كله .. وهي على

مستوى التشكيل الفني أدواته الفعالة . فكلمة البقرة نستطيع أن

نقف عندها ونلم بهيكلها العام وصفاتها ، ولكن البقرة في القصة

^(١) القصص الرمزي ص ١٢٧ . (٢) صفوة التفسير ج ١ ص ٦٩ .

^(٣) المذاهب الأدبية د . نبيل راغب ص ١١٢ .

هنا .. ليست هذا الهيكل الخارجى فقط وإنما هى إشارة إلى معنى عميق يكن خلف اللفظ ، ويحمل تشريعاً ورشياً بقصة بشرية هامة .. فاللفظ هنا يستقطر عالماً كاملاً ، يجيش بالعواطف وأتماط السلوك الفاسد الذى يردعه العقاب . ولفظة البقرة فى دلالتها الخارجية ينضح على القصة نمطا من التعرف الشكلى الظاهرى على نوعية البقرة ، ولكن اللفظ ينتهى فى الواقع المادى بمجرد التعرف عليه .. لخلوصه من الشكل واقتربه من المعنى الذى رمز به إليه .. (فى الحياة العملية تنتهى قيمة الكلمة بمجرد التعرف على الشيء الذى تدل عليه^(١)) .. ولكنها هنا تظل قائمة وفاعلة بما تشعه من دلالات) .. ويحمل الرمز كثيراً من المعانى والمشاعر والأحكام وأتماط السلوك .. ومن ثم فهو وسيلة وظيفية فى كل فن عظيم .. ذلك أنه من سمات الأداء القرآنى فى القصة .. اتباع طريقة تصوير المعانى الذهنية والحالات النفسية فى صور حسية .. حتى لتبدو كأنها حاضرة شاخصة . وهذه الطريقة التعبيرية : تخاطب الحس والوجدان ، وتصل إلى النفس من منافذ شتى ومن الحواس بالتخييل ، ومن الحس عن طريق الحواس ، ومن الوجدان المنفعل بالأصداء والأضواء .. ويكون الذهن منفذاً واحداً من منافذها الكثيرة إلى النفس^(٢) .

وجو القصة مشبع بالخوارق .. التى تتمثل فى إحياء القتيل . وإعادة الحياة بعد الموت تؤلف الركن الأساسى فى بناء الإيمان حيث

(١) المذاهب الأدبية ص ١٠٧ .

(٢) التصوير الفنى ص ٢٤٢ .

تربطنا بفكرة البعث والحساب . وبابتعاد الإنسان عن هذه الفكرة
الإيمانية تتوحش فيه المسالك ..

.. ومن ثم كثر ورود مشاهد البعث ، والاحياء بعد الموت
لاحداث التأثير الإيماني ، والمسلك التهديبي في النفس البشرية .
ولا شك أن القصة تكشف عن طبع يهودى ورث روح
التمرد ، والنفاق . ودأب على الفتنة والدس . ومن ثم كان الخطاب
الذى ينتقل به إلى تعليم المؤمنين طبيعة هؤلاء اليهود . وفضحهم
أمامهم «أفطمعون أن يؤمنوا لكم ، وقد كان فريق منهم يسمعون
كلام الله ثم يحرفونه من بعدما عقلوهم وهم يعلمون» .

● أما الجانب الآخر من القصص الاشارى ، فهو الذى يرد في
القرآن في أماكن كثيرة ، مشيراً في السياق القرآنى إلى الأحداث
والوقائع والقضايا والمشكلات كلتي جاء بها القرآن العظيم ليعطى فيها
العبرة والموعظة أو الحل ، أو يكشف عن أصحابها من براءة أو
خيانة ، وصدق أو كذب ، ووفاء أو غدر^(١) .

وتتضمن هذه الآيات أيضاً عدداً وفيراً من القصص
والحكايات التى كانت وراء هذه الآيات ، سبباً لها وداعياً إلى نزول
القرآن بها .. يتضمن تلك الاشارة إلى الفعل - الحدث - القصة ،
ثم يعطى الحكم في النهاية في اقتضاب أو إطناب حسبما يتأق السياق
القرآنى ويتطلبه .

وهذا النوع يندرج تحت ما يسمى «بأسباب التنزيل» .. وفي

(١) القصص الرمزى ص ٧ .

هذا المجال فإن القرآن الكريم يساير الحوادث والوقائع في حينها وينبه على الأخطاء في وقتها (فإن ذلك أوقع في النفس وأدعى إلى أخذ العظة والعبرة منها عن طريق الدرس العملي . فكلما جدّ منهم جديد نزل من القرآن ما يناسبه وكلما حصل منهم خطأ أو إنحراف نزل القرآن بتعريفهم وتنبيههم إلى ما ينبغي اجتنابه ، ولطلب عمله ، ونبههم إلى مواطن الخطأ في ذلك الوقت والحين^(١))

.. وقصة «الثلاثة الذين خَلَفُوا» تقع في هذا الجانب الاشارى . ولقد وردت في أواخر سورة التوبة . وسورة التوبة ترسم صورة كاملة لحركة المجتمع الاسلامى ، في جهاده ضد المشركين وفي سعيه نحو إقامة مجتمع إسلامى منظم .. ولكنها ترصد الخلل الذى يعترى تلك الحركة الاسلامية التنظيمية ، من تعدد في المستوى الإيمانى ، ومن أعراض السلوك النفسى كالشح بالنفس والمال من أجل الجهاد ، أو من نفاق يتلون بمشاعر الباطن والظاهر ، ومن تردد في السعى إلى الجهاد ونكوص عن الواجبات والتكاليف .

قال تعالى :

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ . وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا ، حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ ، وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ

(١) التبيان في علوم القرآن . محمد على الصابوني ص ٣٨/٣٩ .

الرحيم . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ! ﴿١﴾
وجو النص القرآني يشير إلى الغزوة التي تخلف عنها البعض .
تلك الغزوة التي أمر بها رسول الله ﷺ للجهاد ضد الروم وهي ما
تسمى بغزوة «تبوك» . ولقد حض رسول الله ﷺ أهل الغنى على النفقة
على إعداد الجيش ، ومساعدة المجاهدين الذين لا يجدون وسائل
الحرب من دواب أو زاد .. وأبرزت تلك الغزوة كثيراً من دواخل
البشر ومشاعرهم ، وكشفت عن طبيعة الانفعالات التي لازمتهم .
وبينت الصادق الإيمان من ضعيفه ، والمنافق من الصادق الوعد .
والضعيف من القوى ، والمتردد من الساعى إلى الجهاد ..
(والعسرة حالهم في غزوة تبوك . كانوا في عُسرة من الظَّهر
(الدواب) يعتقب العسرة على بعير واحد . وفي عسرة من الزاد .
نزودوا التمر المدود ، والشعير المسوس . وبلغت بهم الشدة أن
اقسم التمرة إثنان ، وربما مصَّها الجماعة ليشربوا عليها الماء . وفي
عسرة من الماء حتى نحروا الإبل واعتصروا فروثها ، وفي شدة زمان
من حمارة القيظ ، ومن الجذب والقحط ، والضيقة الشديدة) (٢)
ويمضى الرسول بجيشه في هذا الجو القاتظ الحرارة ، وفي تلك
العسرة التي كلت بالناس ، وتخلف من تخلف ، وأبطأ من أبطأ ..
وأبرزت الغزوة نماذج بشرية تتسم بالإقدام ، أو التردد .
● عن أبي ذر الغفاري أن بعيره أبطأ به فحمل متاعه على ظهره
واتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً ، فقال رسول الله ﷺ لما رأى سواده .

(١) سورة التوبة آية ١١٧ - ١١٩ .

(٢) الكشف ج ٢ ص ١٧٥ .

(كن أباذر . فقال الناس هو ذاك . فقال : رحم الله أباذر ، يمشى وحده ، ويموت وحده ويبعث وحده) .

● وأبوخيثة رجع بعد أن سار رسول الله ﷺ إلى أهله في يوم حار . فبلغ بستانه ، وكانت له امرأة حسناء ، فرشت له في الظل ، وبسطت له الحصير ، وقربت إليه الرطب والماء البارد ، فنظر فقال : ظل ظليل ، ورطب يانع ، وماء بارد ، وامرأة حسناء ، ورسول الله ﷺ في الصَّح (الشمس) والريح . ما هذا بخير . فقام فرحل ناقته ، وأخذ سيفه ورمحه ، ومَرَّ كالريح ، فمدَّ رسول الله طرفه إلى الطريق فإذا براكب يزهاه السراب . فقال : كن أباخيثة فكانه . ففرح به رسول الله واستغفر له .

● ومن الذين لم يلحق برسول الله ﷺ الثلاثة موضوع الآيات القرآنية .. وهم . كعب بن مالك ، ومرة بن الربيع ، وهلال بن مرة .

وحكي كعب بن مالك القصة فيقول :

«لم اتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط ، إلا في غزوة تبوك .. غير أني قد تخلفت في غزوة بدر ، ولم يُعاتب أحدٌ تخلف عنه .

.. وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، أني لم أكن قط أقوى ، ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتها في تلك الغزوة . ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى^(١) بغيرها حتى كانت تلك الغزوة . فغزاها رسول الله ﷺ في حرّ

(١) ورى : أوهم الناس بغيرها .

شديد ، واستقبل سفيراً بعيداً ، ومفازاً^(١) ، واستقبل عدداً كثيراً .
فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجههم
الذى يريد . والمسلمون مع رسول الله كثير ولا يجمعهم كتابٌ حافظ
(أى ديوان) .

قال كعب : فقلَّ رجلٌ يريد أن يتغيب إلا ظنَّ ذلك سيخفى
به ، ما لم ينزل به وحى من الله . وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة
حين طابت الثمار والظلال ، فأنا إليها أصغرُ^(٢) .

فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه . وطفقت أغدو لكى
أتجهز معه ، فأرجع ولم أقض شيئاً . وأقول فى نفسى أنا قادرٌ على
ذلك إذا أردت . فلم يزل ذلك يتأدى بى حتى استمر بالناس
الجلدُ ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه . ولم أقض
من جهازى شيئاً ثم غلبت فرجعت ولم أقض شيئاً . فلم يزل ذلك
يتأدى بى ، حتى أسرعوا وتفارط^(٣) الغزو . فهممت أن أرحل
فأدركهم فياليتنى فعلت . ثم لم يقدر ذلك لى ، فطفقت إذا خرجت
فى الناس بعد خروج رسول الله ﷺ ، يحزننى أنى لا أرى لى
أسوة^(٤) ، إلا رجلاً مغموصاً^(٥) عليه فى النفاق أو رجلاً ممن عذر
الله تعالى من الضعفاء . ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ
تبوك . فقال وهو جالس فى القوم بتبوك : ما فعل كعب بن مالك ؟
فقال رجل من بنى سلمة : يا رسول الله حبسه برداه والنظر فى

(١) مفاز : أرض واسعة لا ماء فيها ولا عمارة .

(٢) أصغر : اختار الجلوس تحت الظلال .

(٣) تفارط : تقدم الجيش .

(٤) مثل . (٥) مغموص : مطعون فى دبه .

عَظْفِيهِ ^(١) . فقال معاذ بن جبل رضي الله عنه : بئس ما قلت .
والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً . فسكت رسول الله ﷺ .
قال كعب : فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من
تبوك ، حضرنى بنى ^(٢) فطفقت اذكر الكذب وأقول : بم أخرج
من سخطه غداً واستعين على ذلك بكل ذى رأى من أهلى . فلما
قيل : إن رسول الله ﷺ قد أظلم قادمًا ، راح عنى الباطل حتى
عرفت أنى لم أنج منه بشيء أبداً . فأجمعت صدقة ^(٣) .

وأصبح رسول الله ﷺ قادمًا ، وكان إذا قدم من سفر بدأ
بالمسجد فركع فيه ركعتين ، ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه
المخلفون ^(٤) يعتذرون إليه ويحلفون له . وكانوا بضعاً وثمانين رجلاً .
فقبل منهم علانيتهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله تعالى حتى
جئت .

فلما سلمت بسم تسمي الم غضب . ثم قال : تعال : فجئت
أمشى حتى جلست بين يديه . فقال لى : ما خلقتك ؟ ألم تكن قد
أتبعت ظهرك ^(٥) قلت : يا رسول الله إني والله لو جلست عند غيرك
من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر . لقد أعطيت
جدلاً . ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كاذب
ترضى به عنى ، ليوشكن الله يسخطك علىّ وإن حدثتك حديث
صدق تجد ^(٦) علىّ فيه . إني لأرجو فيه عقي ^(٧) الله عز وجل .

(١) خيلاء . (٢) البث : أشد أنواع الحزن .

(٣) أجمعت صدقة : عزمت عليه وهيات نفسى له .

(٤) الذين تخلفوا عن الذهاب إلى تبوك .

(٥) الظهر : الراحلة . (٦) تجد : تغضب .

(٧) يرجو حسن عاقبة الصديق .

والله ما كان لى من عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر متى حين تخلفتُ عنك . قال : فقال رسول الله ﷺ : أما هذا فقد صدق فقم خنى يقضى الله فيك .

وسار رجال من بنى سلمة فاتبعونى ...

ثم قلت لهم : هل لقي هذا معى من أحد ؟ قالوا : نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت ، وقيل لهما مثل ما قيل لك . قلت : من هما ؟ قالوا : مرارة بين الربيع العمرى ، وهلال بن أمية الواقفى .

قال : فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرًا ، فيها أسوة ، ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا نحن الثلاثة من بين من تخلف عنه .

قال : فاجتنبنا الناس . حتى تنكرت ^(١) لى فى نفسى الأرض فما هى بالأرض التى أعرف . فلبثنا على ذلك خمسين ليلة .

فأما صاحبى فاستكانا ، وقعدا فى بيوتها يبيكان . وأما أنا فكنتُ أشبَّ القوم وأجلدهم ، فكنتُ أخرج ، فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة . فأقول فى نفسى هل حرَّك شفتيه بردَّ السلام أم لا ؟ ثم أصلى قريباً منه وأسارقه النظر . فإذا أقبلتُ على صلاتى نظر إلىَّ ، وإذا التفت نحوه أعرض عنى . حتى إذا طال ذلك علىَّ من جفوة المسلمين ، مشيت حتى تسورت

(١) تغيرت .

جدار حائط ألى قتادة وهو ابن عمى وأحب الناس إلىّ ، فسلمت عليه فوالله ما ردّ علىّ السلام ففاضت عيناى .. وتوليت حتى تسورت الجدار ..

فبينما أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطي^(١) من نبط أهل الشام ممّن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فطلق الناس يشيرون له إلىّ حتى جاني ، فدفع إلىّ كتاباً من ملك غسان ، وكنت كاتباً ، فقرأته فإذا فيه : أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان أو مضیعة . فالحق بنا نواسك . فقلت حين قرأتها : وهذه أيضاً من البلاء . فتميمت بها التّنور ، فسجرتها^(٢) . حتى إذا مضت أربعون من الخمسين ، واستلبت^(٣) الوحي ، إذا رسول يأتيني فقال : إن رسول الله ﷺ يأمرک أن تعتزل أمراؤک ، فقلت : أطلقها ؟ أم ماذا أفعل ؟ فقال : لا بل اعتزلها فلا تقرئنها . وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك : فقلت لامرأى : الحق بأهلك فكوني عندهم حتى يقضى الله في هذا الأمر . وجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت له : يا رسول الله إن هلال بن ربيعة شيخ ضائع ، ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ، ولكن لا يقربنک . فقالت : إنه والله ما به من حركة إلى شيء ، ووالله ما زال يبکی منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا . فقال لي بعض أهلى : لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتک فقد أذن لامرأة

(١) فلاّح . (٢) أشعلتها .

(٣) أبطأ وتأخر .

هلال أن تخدمه ؟ فقلت لا استأذن فيها رسول الله ... فلبثت بذلك عشر ليالٍ فأكمل لنا خمسون ليلة من حين نُهي عن كلامنا ، ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فيينا أنا جالسٌ على الحال التي ذكر الله تعالى مِنَّا ، قد ضاقت على نفسي ، وضاقت على الأرض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ أوتى على سلع^(١) يقول بأعلى صوته يا كعب بن مالك أبشر ، فخررت ساجداً ، وعرفت أنه قد جاء فرجٌ ، فأذن^(٢) رسول الله ﷺ بتوبة الله عز وجلّ علينا حين صلى صلاة الفجر . فذهب الناس يبشروننا ، فذهب قبل صاحبيّ مبشرون ، وركض إلى رجلٍ فرساً ، وسعى ساعٍ من أسلم قبلي وأوفى على الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس . فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرنى ، نزعت له ثوبي فكسوتها إياه ببشراه . والله ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أنا^(٣) رسول الله ﷺ ، يتلقاني الناس فوجاً فوجاً يبشرونني بالتوبة ويقولون لى ، لتنهك توبة الله عليك .

حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس ، فقام طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه يهرول حتى صافحني وهنأني . والله ما قام رجل من المهاجرين غيره .. قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يرق وجهه من السرور : أبشر بخير يوم مرّ عليك مُدّ ولدتك أمك .

(١) أشرف على جبل سلع ، وهو جبل بالمدينة .

(٢) أعظم . (٣) أقصد .

فقلت : أؤمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : لا : بل من عند الله عز وجل .

وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ ، استنار وجهه حتى كأن وجهه القمر ، وكنا نعرف ذلك عنه . فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله إن من توتى أن أنخلع ^(١) من مالى صدقةً إلى الله وإلى رسوله . فقال رسول الله ﷺ : أمسك ^(٢) عليك بعض مالك فهو خير لك .

فقلت : إني أمسك سهمى الذى بخير ، وقلت : يا رسول الله إن الله تعالى إنما أنجاني بالصدق ، وإن من توتى ألا أحدث إلا صدقاً ما بقيت فوالله ما علمت احداً من المسلمين ابلاه الله تعالى فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم احسن مما ابلانى ^(٣) الله تعالى . والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ الى يومى هذا ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله تعالى فيما بقى . قال : فأَنزل الله تعالى ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ حتى بلغ : ﴿إِنَّهُمْ رِءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ﴿حتى بلغ :﴾ اتقوا الله وكونوا مع الصادقين .

قال كعب : والله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد إذ هدانى الله للإسلام ، اعظم فى نفسى من صدقى رسول الله ﷺ ^(٤) ..

(١) أتركه . (٢) أحبس/أبقي .

(٣) المراد : أنعم على وأكرمى .

(٤) انظر صحيح البخارى المجلد الثانى (كتاب المغازى - باب غزوة تبوك ص ١٣٠ - ١٣٤) .

● ● إن ورود قصة الثلاثة المخلفين في هذا السياق الاشارى القصير ، يعطى للنص القرآنى الكريم الأداء المميز الذى ترتقى فيه العبرة الى قصتها ، انطلاقا من جو السورة الذى هو معرض رهيب لصور الجهاد والصراع النفسى المشتجر فى الذات . إنها صور لأنماط من البشر أثابهم الله ، ثم تاب على البعض منهم بعدما أخذ جزاءه وعرف خطاه .

فلقد عرفنا نمطا من الناس باعوا الدنيا من أجل الدين ، وتحملوا المشاق فى سبيل الجهاد ونصرة الحق . مثل ابى ذر الذى حمل متاعه على قلته وسار يذب فى الصحراء القائضة حين رأى بطئا فى راحلته ، حتى يدرك رسول الله .

كما أرتنا نمطا من المترددين الذين وقعوا تحت سطوة صراع نفسى رهيب ، بين الركون الى الراحة فى ظل البستان ونعيم المرأة وبين حرارة الصحراء ومشقة الجهاد . ولكن الايمان يعلو على كل شىء ، ويحسم الصراع فى صالح الايمان ، وينفضون عن انفسهم حلاوة التمتع ، وينطلقون برواحلهم الى الجهاد والحق برسول الله ومن امثال هؤلاء ابوخيثمة .

وترينا آيات السياق الذى نحن بصدد نمطا آخر من البشر حرموا انفسهم من مرافقة الرسول ، ومشاركتهم فى الجهاد ، متلذذين بما لديهم من نعيم ، ومتعللين بفسحة الوقت . والبحث عن راحلة ، حتى غلبتهم الراحة فاستكانوا فى ظلها ، فحرموا من متعة المرافقة ، ومن جزاء الجهاد ، وحل بهم ندم نفسى رهيب ، وغضب كبير من الله ورسوله ومن المؤمنين .

ولعلنا نلاحظ من السرد القصصى الجميل الذى سرده كعب وهو يحكى عن موقفه .. تلك النبرة الصادقة فى الحكى ، بحيث رسم لنا صورة واضحة للشخصية المأزومة التى وقعت نتيجة فعل انفعالى سريع تحت أسر صراع رهيب يعتل فى النفس .. ولقد توزعت قصته ناحيتان هامتان : الوصف النفسى لما حل به ، من ندم ، وأسف وهو يلاحظ العيون كل العيون تلاحقه بالتهمة والتقصير ، وكان غضب الرسول عليه ثقيلًا لم يحتمله .. كما انه عبر بوضوح عن جانب نفسى آخر وهو «مراودة» النفس له بالجلوس .. والتلذذ بالراحة ، فهو فى عمقه النفسى يتمنى ان يبقى ، ولكنه فى الظاهر السلوكى ، يذهب ويجىء بحثًا عن الراحة متعللاً بفسحة الوقت وطوله ، حتى غلبه فى النهاية الصوت العميق المستكين داخله والذي ظل يحركه هنا وهناك ، حتى بقى ولم يلحق بالمجاهدين . ولقد عكست الالفاظ المصاحبة تلك المشاعر فى اضطرابها وتداخلها وتناميها ..

والناحية الثانية : هو الوصف الخارجى الذى جُوبه به من قبل الآخرين حتى بدا يومه ثقيلًا ، وليله بطيئًا ، فالثمة عالقة بكل العيون ، حتى من اقرب الناس اليه ، وينضاف الى هذا الهمم الثقيل الرسالة التى وصلته ، لتزيد من عذابه ، ولتمتحن مقدرته على الصمود .. انها شخصية مأساوية من الدرجة الأولى ، تضافر فيها الخارج والداخل ليرسما لنا هذه الشخصية الفذة فى دائرة الصراع المحكم الذى وقع فيه .

والآيات الاشارية التى تحمل تلك القصة ، لا تذكر شيئًا عن

هؤلاء الثلاثة الذين خلفوا ، انطلاقاً من المنهج القرآنى .. الذى لا يهتم بالشخص كشخص .. ولا بالمكان كمكان او الزمان كزمان . كما لم تبين لنا الموضوع الذى كان فيه التخلف ، أو الذنب الذى اقترفوه . واستحقوا عليه العقاب ثم التوبة ..

فالقضية هنا ليست «قضية أشخاص خطئوا فتأبوا ، بمقدار ما هي قضية نظام إلهى ، يستهدف مجرد الردع عن مثل تلك الخطيئة ، وفتح ابواب التطهر من آثارها ، للذين امتحنوا بنظير ذلك الموقف»^(١)

ومن ثم فإن ملازمة الايمان وتقوى الله ، تعتبران رادعا داخليا حيا يظل يشغل صاحبه حتى يهتدى الى الحق فى النهاية .. تلك التقوى التى تجعل المخطئ لا يلجأ إلا الى الصدق والاقرار بالواقع الذى حدث .. راجيا ان يكون الصدق وسيلة الى رضى الله وعفوه . إنه الصدق الذى جعل صاحبه يعترف بخطئه امام الرسول وامام الأشهاد .. وهو الصدق الذى عامل به الناس هؤلاء حين امرهم الرسول بنذ الثلاثة ومقاطعتهم .. والتزامهم بالأمر كله ، بالرغم من ان البعض فيهم كان أقرب الأقربين اليهم .. وهو درس اخلاق ونفسى واجتماعى ، فيه عبر الوحي ، ورحيق التربية المحمدية التى قدمت للتاريخ نموذجا لكمال المسلم .. فى ضعفه وقوته ، وعلى المسلمين ان يتفعلوا بهذا الایحاء التربوى العظيم ليسيروا على المنهج الاسلامى ملتزمين به واضعينه امام اعينهم ، لتنظيم شئون الدولة والمجتمع الاسلامى .

(١) قصص وعبر ص ١٤٤ .

«وليتنا نأخذ بمبدأ المقاطعة الاجتماعية لكل مفسد لمصالح الدنيا ، وكل ملحد في معالم الدين ، فليس منا .. كما هو منهج المدرسة القرآنية المحمدية .. الغشاشون والمحتكرون لأرزاق الناس ، وشاربو المسكرات ، والمعتدون على الأعراض والأموال والدماء^(١)» وذلك يعنى تواصل الهدف والمغزى ليسرى في كل أنشطة الحياة الاسلامية .

ولقد جاء البناء التعبيري على قصره ، متساوفاً وتساوفاً رائعاً بين اللفظ والمعنى بين القالب والمحتوى ، وهو بعض من مواطن الإعجاز القرآنى في الأداء الأسلوبى . (فهو محكم السرد ، دقيق السبك ، متين الأسلوب ، قوى الاتصال ، آخذ بعضه برقاب بعض فى سورة وآياته وجمله^(٢) .. متين النسيج والسرد ، متآلف البدايات والنهايات مع خضوعه فى التأليف لعوامل خارجة عن مقدور البشر ، وهى وقائع الزمن وأحداثه .. نزل مفرقا منجما ، ولكنه تم مترابطا محكما^(٣) .

فالألفاظ التى صاحبت قصة الثلاثة تضىئ ساحة المعانى وتكشف عنها ، وتوضح دخالها ومكوناتها ، وتبرز فى وضوح خلجات النفس التى حركتها الأحداث فى إيجاز محكم ، وإشارة موجزة ، فيتم التواصل المتنامى بين اللفظ والمعنى .
إن المفردة القرآنية ترسم صورة الموضوع رسماً واضحاً ، بما تحمله من جرس صوتى وبما توحيه من خيال ، وبما تثيره من انتباه ،

(١) القصص الرمزى ص ١١٢ .

(٢) التبيان فى علوم القرآن ص ٣٩ . (٣) المصدر السابق ص ٤٠ .

وبما تستدعيه من مدلولات حسية . إن كل مفردة تحمل معنى خاصا بها .. يتفرق كع موجة السياق القرآنى الرائق . فمفردة «التوبة» وردت اكثر من مرة على صغر الآيات وقلتها . فمرة جاءت بالفعل الماضى مسبوقه بالتوكيد (لقد تاب) لبيان رضى الله عن الذين تحملوا مشقة الجهاد . إنها لفظة فيها احياء بجلال التوبة . وهو نوع يستحقه الذين بادروا الى الجهاد .

وتأتى لفظة التوبة بالفعل الماضى مسبوقا بثم الدالة على التراخى لتعطى فسحة من الزمن بين توبتين . الثانية فيها أبطأ الزمن وثقل بطؤه على الثلاثة ، فوشت بدلالات ايجابية تصل الى المتلقى لترسم صورة نفسية للثلاثة الذين وقعوا تحت وطأة الزمن الطويل ، واكتنوا بمرارته ، وحزنوا لبطء الرحمة والعفو . (ثم تاب) .

وأردفت المفردة بأخرى (ليتوبوا) ليحدث التلاصق بين الفعل الربانى والفعل البشرى ويختمها القرآن بكلمة «التواب» صيغة المبالغة من التوبة ، حيث النبع الالهى الذى يجب ألا يغفل المسلم عنه ابدا ..

وكذلك فإن العبارات القرآنية ، التى صاحبت السياق القرآنى ، كشفت عن الحالة العامة والخاصة التى كانت سائدة . ف(ساعة العسرة) تعبير قوى يشئ بالحالة العامة التى كانت قبل واثاء غزوة تبوك .. حتى ان الناس - كما يقول الزمخشري وكما ورد فى كتب السيرة - كانوا يقتسمون التمرة الواحدة .. واللفظ يوحى بمعنى عميق وهو أن العسرة كشفت عن انماط معينة من البشر ، ومن الفعل .. فكأنما هى المدخل الحقيقى للأحداث كلها التى حدثت .

وجاءت عبارات ﴿كاد يزيغ قلوب فريق منهم﴾ ضاقت عليهم الأرض بما رحبت . ضاقت عليهم أنفسهم﴾ لتكشف الصراع النفسى المشتجر داخل ذوات الثلاثة الذين خلفوا . فالأولى ترسم لنا صورة القلق والتردد والوسواس النفسى الذى شغل البعض .. وهو نوع يتضاد مع عمق الايمان الذى يجب أن يترسب فى نفس المسلم . والثانية توضح مدى القلق والحيرة الذى أصاب الثلاثة حتى بدت الدنيا على اتساعها فى أعينهم ضيقة وحملت العبارة التضاد بين (الرحب - الضيق) ليكشف الأزمة النفسية . فيقول الزمخشري فى هذا المجال (وهو مثل للحيرة فى أمرهم كأنهم لا يجدون فيها مكانا يقرون فيه قلقا وجزعا مما هم فيه)^(١) وتلتصق العبارة الثالثة بالثانية لتوضح المردود الخارجى على الذات ، حيث الضيق الذى صارت اليه نفوسهم ، والذى تستشعر منه الجو الخائق الذى شعروا به ، والضغط النفسى الذى عانوا منه ، والمجاهدة فى سبيل التخلص منه . حيث لا ملجأ لهم إلا الله . فقلوبهم (لا يسعها أنس ولا سرور لأنها خرجت من فرط الوحشة والغم)^(٢) ويصبح الخروج من ذلك كله هو التقوى والصدق ، وهما يحمل الفضائل التى يحبها الله .

إن دراسة الاشارات النفسية والدينية فى القصة الاشارية يكشف عن علاقة الشعور الدينى بالعاطفة ، وارتباط الجانب العقيدى بالنفس ، لما تتضمنه القصة من إثارات متنوعة ، وتجارب

(١) الكشف ج ٢ ص ١٧٦ .

(٢) المصدر السابق ص ١٧٦ .

دينية مختلفة .. كان الانسان محورها ، ومن دعوات سماوية استفزت
مشاعر الداعين والمدعويين ، وتولد عنها صراع طويل بين الحق وأهله
والباطل وناسه ، وكانت عين القصة تسجل وترصد وتوازر الحق
وأهله .

والقرآن الكريم من خلال هذه الاشارات القصصية الرامزة الى
موقف ما ، أو حكم ما ، يتخذ أسلوبا حكيما ومعجزا ، من حيث
التربية والتعليم ، والتغلغل الى داخل الذات البشرية بتلون
مشاعرها ، وتضارب أهوائها ، وضبط حركة الفعل لديها .. وهو
مايتنادى به علماء التربية وخبراء التعليم في المدرسة التربوية الحديثة .

والقرآن بتلك الاشارات القصصية الرامزة يثير في الفرد المسلم
كوامنه الادراكية العاقلة فيجعله يواجه مشاكله المختلفة ، ويتصدى
لها في ضوء ما أبرزه القرآن من قيم وأحكام وتوجيهات ..^(١)

(١) انظر مقالاً للمؤلف عن القصة الرمزية في القرآن جريدة الندوة السعودية في
١٤٠٧/٦/١٨ هـ ١٩٨٧/١/١٨ م .

قصة اليوم الآخر

كانت قضية التوحيد من القضايا الأصولية الأولى في العقيدة الإسلامية وكانت الدعوة الى عبادة الله وحده لا شريك له ، بمثابة اقتلاع للعرب من جذورهم الوثنية . كما كان جوهر الرسائل السماوية الأخرى . والقرآن الكريم يقرر ذلك في أكثر من آية . قال تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ، إلا نوحى إليه ،

أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾^(١)

ولكن كثيرا من الانحرافات والتحريفات «التي وقعت في تصورات أتباع الرسل الى جانب طغيان الجاهليات على الديانات ، لم تبق في الأرض كلها من تصور ديني صحيح إلا التصور الذى جاء به محمد ﷺ وحفظ الله أصوله ، فلم تمتد اليه يد التحريف ، ولم تطمسها كذلك الجاهليات التى طغت على حياة الناس .. ومن ثم أصبح التوحيد خاصة من خصائص هذا الدين»^(٢)

ولقد جاء الاسلام والعالم تخنقه الوثنية ، وتثده روح الأساطير والخرافة ، ووقع الانسان متخبطا في الظلمات ، مابين فساد وانحلال وظلم وشقاء .

(١) سورة الأنبياء آية ٢٥ .

(٢) خصائص التصوير الإسلامى ص ٢١٤/٢١٥ . سيد قطب .

وكان الاسلام هو المخرج الى الهدى بعد الضلال ، واليقين بعد الحيرة ، والوحدة بعد التعدد . ولقد جاهد ﷺ سنين طويلة للدعوة الى عبادة الله وحده ، وتجنب الوثنية القاتلة ، التي أحاطت برقاب العرب وضمايرهم ، ولم يكن ذلك سهلا ، فإن تخرج قوما من ديانة أو ديانات تعودوا عليها سنين طويلة .. الى ديانة جديدة ، تدعوهم فيها الى الوحدةانية ، أمر شاق يحتاج الى صبر وتحمل وحكمة من الداعي ، كما يحتاج الى إثارة الفطرة البشرية النقية وإزاحة ما عليها من ركام الوثنية ، والتوجه الى مظاهر القدرة في الكون والانسان والحياة ..

ولقد تبع ذلك قضية على جانب كبير من الأهمية ترتبط ارتباطا وثيقا بقضية التوحيد . وهي قضية البعث والنشور ..

ولقد أنكر العرب هذه القضية انكارا تاما ، ولم يطاوعهم عقلهم على ادراك القضية ، وظل السؤال معلقا في أذهانهم : مصاغا صياغة قرآنية معجزة تكشف هذا الجانب الإنكارى . قال تعالى ﴿أَفَلَا مَتْنًا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَ لَمَبْعُوثُونَ . أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾^(١) .. وهذا الاستفهام الإنكارى يعكس لنا طبيعة القوم وصدهم عن الدين . وانكارهم للبعث .. متصورين - انطلاقا من منطق وثني مادي - أن الحياة حين تنتهى لن تعود .. وليس ثمة حياة أخرى .. لا بعث ، ولا قيامة ، ولا حساب ولا جزاء .. ويتبع القرآن الكريم هذا الموقف بالآية الحاسمة ، الدالة على البعث ووجود اليوم الآخر .. قال تعالى ﴿قُلْ إِنْ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ . لَمَجْمُوعُونَ إِلَى

(١) سورة الواقعة آية ٤٧ - ٤٨ .

مِيقَاتُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١﴾

ولقد عنى القرآن الكريم بمشاهد القيامة عناية أخذت جانباً كبيراً من السور القرآنية ، حيث البعث والحساب والنعيم والعذاب ، والرد على إنكار المنكرين ، فى نسق تعبيرى مصور يحيل الأمر الذهنى الى مشهد حى متحرك ، كما وضع الإطار القصصى كبديل تعبيرى مصور لقضية البعث والإحياء من جديد .. وضرب لذلك أمثلة توضيحية تقرب للناس قضية البعث بعد الموت .. ولقد رأينا ذلك فى قصة البقرة ، التى كانت وسيلة حسية بالغة الحسية فى كشف القاتل ، حيث ضرب المقتول ببعضها ، فهب واقفاً وقد عادت إليه الحياة ، لقد أدت البقرة دورها فى إثبات الحياة بعد الموت ، وما القيامة ، والنشور إلا مثل هذا القتل الذى ضرب ببعض البقرة فعادت إليه الحياة ^(٢) قال تعالى ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضُهَا كَذَلِكَ يُخَيِّجُ اللَّهُ الْمُتَوَلَّى ، وَرَبِّكُمْ آيَاتُهُ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ .

ولقد وردت مشاهد يوم القيامة والبعث فى ثوب قصصى وصفى يغلب عليه السرد الوصفى ، بحيث (يحس المتلقى للنص القصصى بالحركة والحياة تضطرب امامه من خلال الألفاظ والعبارات . وفوق ذلك ، نواجه فى العرض القصصى شخصيات نعرفها ، أو نعرف شيئاً عنها ، تشارك فى أحداث تلك القصص التى هى أحداث اليوم الآخر . ذلك كشخصيات بعض الأنبياء والرسل والملائكة ، وهذا عامل مهم فى خلق اليقين بذلك اليوم والاقتناع

(١) سورة الواقعة آية ٤٩ - ٥٠ .

(٢) انظر فصل القصة الإشارية .

به (١)

إن الملاحظ في عرض كثير من مشاهد يوم القيامة في إطارها القصصى الوصفى أنها تجسد الواقع المغيّب والمستقبلى في نسق تعبيرى مصور ، نحس فيه ونحن نقرأ ونتابع المشهد بالصورة والحركة والابقاع والحياة المتلاطمة .

ولتأكيد معنى البعث ، والقيامة ، تكررت المشاهد في كثير جدا من السور القرآنية وكل مشهد يتنامى ويتناسق مع السياق القرآنى وموضوع السورة . وهذا التكرار يتلاءم تماما مع منهج القرآن في عرض الدعوة ، وتأكيد قضية البعث كقضية هامة وأساسية تتبع مباشرة قضية التوحيد . ولقد جاء التكرار مواكبا لحركة الإنكار أولا ، ولتقييم السلوك وردعه ثانيا . ذلك أن العالم الآخر ومشاهده هو مكان للعقاب والثواب . . . وتلك قضية أساسية في المنهج القرآنى في تقويم السلوك وتربية النفوس . والاسلام حرص على أن تظل هذه القضية حية متحركة ، تشغل قلب المسلم فيحسن القيام بمبادئ الدين والمعاملة ، وترسيخ قيمة هامة ، وهى قيمة المسئولية ، والاحساس بالمسئولية عن الفعل والقول ، ومن ثم فإن جانب الحرية والارادة البشرية وارد ومطلوب لأنه مناط كرامة الانسان ، وأحد عوامل مساءلته .

وإذا كان هذا التكرار واردا ومطلوبا لتأكيد القيمة التى ذكرناها ، فإن ذلك لا يعنى التماثل بالرغم من أن الأساس واحد

(١) القصص في الحديث النبوى ص ٢٩١ .

والقضية واحدة . ولا يعنى الاطناب فى قضية عامة ترد باستمرار ، ولكنه التكرار المنفرد - إن صح التعبير- فهو تكرار للفكرة ، لكن السياق ينفرد فى وضعه فى كل سورة عن غيره فى سورة أخرى .. ذلك أن كل (مشهد يختلف عن سابقه فى كلياته أو جزئياته وذلك لون من الاعجاز . شبيه بالاعجاز فى خلق الملايين من الناس . كلهم ناس ، ولكن لكل سحنة وسمه ^(١) ؟)

وتعنى مشاهد القيامة بتصوير الهول فى ذلك اليوم ، وهو هول عام شامل لا يفوت منه شىء ، الكون كله بما فيه ومن فيه . حتى لتبدو كل المفردات حية شاخصة يدب فيها نوع من الحياة . وهذه المفردات التى تكون المشهد الحى قد تكون مفردات طبيعية ، كالشمس والنجوم والجبال .. وقد تكون نفوس البشر ، فى موقف الهول ، وقد تكون بين هذا وذاك .. ولكنها فى كل الأحوال تعكس فى إطار قصص وصنى ذلك اليوم بما فيه من هول وخوف وعقاب وثواب ، وجنة ونار ، وجحيم ..

قال تعالى : ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ . لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ . خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ . إِذَا رَجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا . وَبَسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا . فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا .﴾ ^(٢)

والمراد بالواقعة القيامة ، وسميت بذلك لأنها تقع لا محالة . وكل نفس حينئذ مؤمنة صادقة مصدقة ، وفى هذا اليوم ينخفض أقوام ويرتفع آخرون . وفى هذا اليوم تتحول مفردات الطبيعة

(١) مشاهد القيامة فى القرآن ص ١٠ .

(٢) سورة الواقعة آيات ١ - ٦ .

وتتبدل حيث تتحرك الأرض حركة شديدة حتى لتهدم كل الأشياء فوقها من جبال شامخات لتتحول إلى غبار يتطاير في الهواء . فاهول هنا عام وشامل .. يشمل السماء والأرض والحيوان والإنسان .. هذا الهول المادى المحسوس يلقي بأثره النفسى الهائل على الإنسان فى هذا الموقف العصيب . حيث تبرز المشاعر النفسية المضطربة والخوف الشامل .. وحتى ليتطرح الناس كالسكارى خوفاً ورعباً ، يفر كل منهم من الآخر ، الأب ، والابن ، والصاحب . فكل منهم به شاغله الذى يشغله ، وخوفه الذى يملأه ، ذلك اليوم الذى يجعل الأم رمز الحنان والعطف ذاهلة .. لا تدرى ما حولها ، ولا تلقى بالا إلى رضيعها الصغير .. الكل خائف وجل . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ۖ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۚ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُدْهِلُ كُلَّ مَرْصِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا ، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسَكَارَىٰ ، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝۱۰۸ ﴾ .

وتصور المشاهد القرآنية لليوم الآخر بعد البعث والنشور . تصور النعيم والعذاب . وهذا النعيم والعذاب ، مصور تصويراً حسيّاً ، فيدركهما المتلقى إدراكاً واعياً محسوساً ، يكون له النفاذ ، والتأثير . وسورة الواقعة - كغيرها من السور - تعطينا هذا النموذج ..

فثمة نعيم وعد به المؤمنون الصالحون ، نعيم الجنة الممتلئة بالسدر والطلح ، والظل ، والماء ، والفاكهة «وهو نعيم تتمتع به البطون والأجسام ، وتلتذذ الجوارح والأبدان . ويدق النعيم والعذاب ويعمقان ، حتى ليغدوا ظلالاً نفسية رقيقة ، تنفرد بها النفوس أو

تنضح منها على الوجوه في مثل هذه الصور للنعم»^(١)
 قال تعالى : ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ . فِي سِدْرٍ
 مَحْضُودٍ . وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ . وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ . وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ . وَفَاكِهَةٍ
 كَثِيرَةٍ . لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ . وَفُرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ . إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ
 إِنْشَاءً . فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا . غُرُبًا أَتْرَابًا﴾^(٢)

وأصحاب اليمين يتنعمون بهذا النعيم كله ، كما يتنعمون معه
 بالنساء .. وكل نعيم تبدل وتحول ، إنه ليس كما كان في الحياة
 الدنيا ، فالنساء مثلاً خلقن خلقاً جديداً ... «ومعنى إنشاء النساء
 أن الله تعالى يخلقهن في الجنة خلقاً آخر ، في غاية الحسن بخلاف
 الدنيا ، حيث تصبح كل امرأة بكرة ، مهما آتاها زوجها ، متحبة
 لزوجها متوددة ، قال مجاهد : العاشقات لأزواجهن المتحبات
 لهن ، اللواتي يشتهن أزواجهن»^(٣) وهن مستويات في السن مع
 أزواجهن .. كل ذلك نعيم يستمتع به أصحاب اليمين .

.. أما أصحاب الشمال فطعامهم زقوم وشرابهم حميم ، كلما
 شربوا منه ازدادوا عطشاً ، فهم كالإبل العطاش التي لا تروى لداء
 يصيبها ، إنهم مبتلون بريح حارة وماء مغلي ودخان أسود شديد
 السواد .

قال تعالى : ﴿وَأَصْحَابُ الشَّامِلِ مَا أَصْحَابُ الشَّامِلِ . فِي سَمُومٍ
 وَحَمِيمٍ . وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ . لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾^(٤)
 وقال تعالى : ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمَكْذُبُونَ . لَا تَكُونُونَ مِنْ

(١) مشاهد القيام ص ٥٣ . (٢) سورة الواقعة آيات ٣٧ - ٣٨ .
 (٣) صفوة التفاسير ج ٣ ص ٣٠٩ . (٤) سورة الواقعة آيات ٤١ - ٤٤ .

شجر من زقوم . فثألون منها البطون . فشاربون عليه من الحميم .
فشاربون شرب الهيم . هذا نزلهم يوم الدين ﴿١﴾

مشهد مخيف حافل بألوان العذاب المادية والحسية ، نحس به
مائلاً في الموقف ، وفي اللفظ ، وفي الدلالة . وفي تناسق
الجزئيات .. فالضلال يؤدي إلى الكفر والكفر يؤدي بصاحبه إلى
النار .. وفي النار يصبح الطعام والشراب متلائمين مع جو الحرارة
اللهيب ، في هذا الجو الذي يتزف الجسد فيه عرقاً شديداً يصبح
الميل إلى الشراب كثيراً ومستمراً ، ليستمر العذاب بشرب الماء
الساخن المغلى ..

كما أن مشهد أصحاب اليمين يعكس طمأنينة النفس ، والتلذذ
بالنعيم .. فثمة ألفاظ مادية تعكس نعيم النفس وباطنها الرضى ،
وهي توحى بالظلال النفسية ، حين تؤكد على النعيم المادى ..
فكان ألفاظ النعيم المادية تعكس نعيم النفس الباطنية وقد رضى الله
عنها .. فأدخلها الجنة ، ومتعها بالنعيم . إنها اللذائذ المادية ، التي
توحى باللذائذ النفسية الداخلية .

والآيات الكريمة تتابع في إيقاع موسيقى أخذ ، يعكس الجرس
الصوتى فيه ، إيقاع الحركة المادية . ولعلنا نلاحظ حركة المدّ في
أواخر الآيات ، التي تستغرق حركة في الزمن ، وكأنما تمدّ المعنى
بنوع من الاستمرار والدوام .. كما أنها تعطى تأكيداً للمعنى وكذلك
الآيات القصيرة ، التي تحمل - في إيجاز - معانى عظيمة مترعة

(١) سورة القيامة آية ٥١ - ٥٦ .

بالأمل ، ومبشرة بالنعيم ، ومنذرة أيضاً بالويل والجحيم . وكذلك الالتفات من ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم ، لاسناد القدرة إلى الله ، وإسناد النعيم والرضى إليه .. ولا إثارة كوامن الإنسان الراقية لترتقى إلى هذه المنزلة .

كما أن مشاهد القيامة تتضمن هذا الجدل الذى يشتجر بين المشركين وأهلهم ..

«ومن أطرف مشاهد القيامة . ذلك الجدل العنيف الذى يقوم بين المشركين وأهلهم أو بين المتبوعين وأتباعهم . وذلك السمر اللطيف الذى يدور بين المؤمنين والملائكة ، أو بين المؤمنين والمؤمنين»^(١) إلى غير ذلك من أنواع الجدل والحوار ، وأنواع المشاهد ومقاصدها .

قال تعالى فى الموقف الأول :

﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ورَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ، لو أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا . كَذَلِكَ يَرىهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ، وما هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ .﴾

وقال تعالى فى الموقف الثانى :

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ . قَالُوا إِنَّا كُنَّا فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ . فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا ، وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّعِيرِ . إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ .﴾

(١) مشاهد القيامة ص ٥٦ .

.. ولنخض بعد هذا العرض إلى الوقوف في تأمل أمام مشهد قصصى لليوم الآخر ، ورد طويلاً بحيث يبرز فيه الموقف القصصى الوصفى بروزاً واضحاً . ولقد ورد هذا المشهد في سورة الأعراف . قال تعالى :

﴿يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنكُمْ رِسَالٌ مِّنكُمْ يَقْصُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي مِّنْ أَتَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . مِمَّنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ، أُولَئِكَ يَنَالُهُمُ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رِسَالُنَا يَتُوفُونَهُم بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ . دُونَ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ . قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ ، كُلَّمَا دَخِلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أَخْرِاهُمْ لَأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ ، قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ . وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لَأَخْرِاهُمْ مَّا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ . إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُلَاحِظَ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ . لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ .. وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نَكْلَفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رِسَالُ رَبِّنَا

بالحق ، ونودوا أن تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون . ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ، قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين . الذين يصدّون عن سبيل الله ويغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون . وبينها حجابٌ وعلى الأعراف رجالٌ يعرفون كلاً بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلامٌ عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون . وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون . أهؤلاء الذين أقسمت لا ينالهم الله برحمةٍ ادخلوا الجنة لا خوفٌ عليكم ولا أنتم تحزنون . ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو ممّا رزقكم الله قالوا إنّ الله حرّمها على الكافرين . الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرّبهم الحياة الدنيا ، فالיום ننسأهم كما نسأ لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يحدون .^(١)

● وسورة الأعراف سورة مكية قررت أصول الدعوة وهو التوحيد . كما قررت البعث والجزاء . وذكرت قصة آدم عليه السلام وخروجه من الجنة بوسوسة الشيطان ، وهبوطه إلى الأرض لبدأ الصراع البشرى بين الخير والشر والذي هو مناط الثواب والعقاب في اليوم الآخر .

والسورة تعرض رحلة البشرية منذ نشأتها إلى نهايتها في عرض قصصى مبهر ومن ثم جاءت قصص الأنبياء الذين دعوا أقوامهم إلى

(١) سورة الأعراف آيات ٣٥ - ٤١ .

التوحيد وعبادة الله بدءاً بنوح عليه السلام ومروراً بيهود وصالح ولوط وشعيب وموسى حتى محمد ﷺ .. وهى فى هذا العرض لتلك الرحلة البشرية فى علاقتها مع الخير والشر ، مع التوحيد والكفر ، إنما تعرضها فى صورة معركة مع الجاهلية .

«ومن ثم فإنها تعرضها فى مشاهد ومواقف ، وتواجه بهذه المشاهد والمواقف ناساً أحياء كانوا يواجهون هذا القرآن ، فيواجههم هذا القرآن بتلك القصة الطويلة ، ويخاطبهم بما فيها من خبر ، مذكراً ومنذراً ، وينحوض معهم معركة حقيقية حية ..» (١)

ومن أجل توصيل هذه العبر والعظات جاءت النداءات التى وجهها الله إلى نبي آدم ..

.. تلك النداءات المتتالية التى تحمل التأكيد على التوحيد والنبوة والتحذير من الشيطان الذى نشأ منذ البدء على عداوتهم وتضليلهم «يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ..»

● ولقد سميت السورة بسورة الأعراف لوجود ذكر اسم الأعراف فيها .. والأعراف هو السور المضروب بين الجنة والنار يحول بين أهلها .. أى بين أصحاب الجنة وأصحاب النار «روى ابن جرير عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف فقال : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فقعدت بهم سيئاتهم عن دخول الجنة ، وتخلفت بهم حسناتهم عن دخول النار فوقفوا هنالك على

(١) الظلال مجلد/٣ ص ١٢٤٥ .

السور حتى يقضى الله فيهم ..»^(١)

ومشهد القيامة الذى نحن بصدده يتناول فرقاً ثلاثة ، فرقة المؤمنين أصحاب الجنة ، وفرقة الكافرين أصحاب النار ، وفرقة ثالثة لم ترد إلا فى هذه السورة وهم أصحاب الأعراف . والمشهد يوم القيامة على الحقيقة فلم يأت للتمثيل أو لمجرد التخيل .

والموضوع فى مشاهد القيامة موضوع دينى ذو «دلالات فكرية وخلقية وجمالية» . وهو من أصنى التصورات التى عرفتها البشرية لفكرة الجزء فى الآخرة ، حيث تبرز الفكرة اتصال الحياة الدنيا بالآخرة اتصالاً وثيقاً بحيث تكون الآخرة هى الامتداد للدنيا بلا فواصل .

فالنفس البشرية تولد فى صورتها الحسية الجسمية على الأرض ، ثم تخوض التجربة الكبرى ، تجربة الحياة ، وتتطور فى أثناء هذه التجربة تطورات مختلفة ، بعضها صاعد وبعضها هابط ، وبعضها يتأرجح بين الصعود والهبوط .. حتى إذا تمت التجربة الأرضية كان التطور كذلك قد تم وأخذت النفس صورتها النهائية الصاعدة أو الهابطة ، وكان الجزء بصورته هو التطور النهائى للحياة ، بما يناسب تطور النفس مع سماتها الأخيرة»^(٢)

.. ويبدأ المشهد الحى فى اليوم الآخر - كما ورد فى السورة - ببناء عام موجه إلى البشر ، وكأنما هو مدخل يربط أصول الدعوة بممارسات الإنسان وجزائه عليها .

(١) صفوة التفاسير ج ١ ص ٤٣٥ .

(٢) منهج الفن الإسلامى ص ١٧٤ .

●● المدخل :

جاءت دعوة الله إلى رسله ليبينوا للناس الأحكام والشرائع ، ويدعونهم إلى التوحيد والعمل بأحكام الله ، وعلى الناس أن يؤدوا دورهم وفق هذا التوجيه فمن أطاع الله واتقاه ، وصل إلى رضى الله ، وانتهت به رحلته إلى الأمن من الخوف والرضى من المصير . ومن يكابر ويعاند ويستكبر عن الإيمان فهم في نار جهنم خالدين فيها أبداً .

●● الاحتضار :

وها هم المكذبون بالله ، الذين افتروا على الله بالباطل أمام مشهد مهول - تقشعر منه الأبدان .. وها هم ملائكة الموت يقدمون في رهبة ليقبضوا أرواحهم .
.. وهم في موقف العاجز ، الذى لا يقوى على فعل شئ ..
وهم الثياهور في الدنيا ، المستكبرون على أمر الله .. وتحاورهم الملائكة في أسلوب ساخر يتسم بالتوبيخ والتبكيت .. يقولون .
- أنتم الآن في اللحظة الحاسمة ، تسلب منكم الحياة ، عاجزين عن دفع شئ ، لا تجدون عاصماً من الموت .. فأين آلهتكم التى فتتكم وأضلتكم .. وعبدتموها من دون الله !!
واسقط في أيدي الكفرة .. بماذا يجيبون ! ماذا يقولون في هذا الموقف العصيب ! لقد ضاعوا وانتهى الأمر ، وحقت عليهم اللعنة ، واستحقوا الطرد من رحمة الله .. وجاء ردهم مبتسراً ، وشاهداً عليهم . قالوا ..
- غابوا عنا وتاهوا فلا نعرف لهم مقراً .

فما أضيع العباد الذين لا تهتدى إليهم آلهتهم ولا تسعفهم في الموقف العصيب .. لقد أقروا واعترفوا في هذا الموقف المروع بكفرهم وضلالهم .. ولم تخل مشاعرهم من الندم على ما فات والتحسر على الدنيا التي كان يمكن أن يقطعوا رحلتها على غير ما فعلوا .. ولكنهم الآن في انتظار البعث ليلقوا العقاب الشديد .

●● البعث :

ويتهى مشهد الاحتضار ويسجل الملائكة عليهم اعترافهم وندمهم واستحقاقهم للعذاب ، ونستقبل مشهد البعث حيث يوجدون في النار عقاباً وعذاباً .. وتقف الآيات صامته عن الفترة بين الموت والبعث .. فجوة كبيرة لا ندري عنها شيئاً ، تأخذنا الآيات أخذاً متساقطاً إلى النهاية ، فلقد كانت البداية حياة ضالة ، ولقد كان موتهم اعترافاً بكفرهم فلم يبق إلّا الجزاء على الفعل .. وجاءت النقلة في الزمان حيّة ، مصوّرة تكشف عن المصير المؤلم للمضالين المستكبرين ..

.. أما وقد اعترفتم بكفركم ، فادخلوا مع أمم أمثالكم ضلوا وفسدوا .. ويأتى النداء : انضموا إلى زملائكم وأوليائكم من الجن والانس .. واخلدوا في نار جهنم .

وترد على النار الأمم الضالة ، والنار تلتهم جلودهم وتحصدهم حصداً .. وكلما وردت أمة من الأمم وحق بها العذاب تصرخ لاعة الأمة السابقة ..

.. فلتدخلوا إذن سابقين ولاحقين فكلكم أولياء وكلكم سواء ، فما اتعس نهايتكم وما أفضعها من نهاية .

●● التلاعن :

وتلاحقت الأمم من الكفرة بعضها وراء بعض واستقر بهم المقام في نار جهنم .. وتواصلت أجيال الكفر أمة أمة ، الأول بالآخر والقاصي بالداني ، واشتد بينهم الخصام والجدل .. وبدأت كل أمة تلعن أختها ..

وقفت الأمة الأخيرة ، وقد ارتعدت من الهول ، متوجهة إلى ربها مبدية ندمها صارخة لاعنة قادتها ووثنيها .. تستمطر عليهم العذاب ، وترجو الله أن يضاعف لهم العذاب .. ها هم يرجعون إليه في اللحظة الحاسمة بعد أن كانوا يفترون عليه ويكذبون بآياته ..

— ربنا هؤلاء هم الذين أضلونا عن سبيلك وزينوا لنا طاعة الشيطان .. ربنا ضاعف لهم العذاب ..

وبأى الأمر واضحاً من قبل الله عز وجل .. وقد رأى موقفهم وتلاعنهم ..

— لكم ما طلبتم جميعاً من مضاعفة العذاب الذي تستحقونه .
وتنبئى الأمة الأولى ، أمة القادة والمتبعين ، لترد على هذا القول الشامت ، بقول أكثر شماتة ، فيه من السخرية والعناد ما فيه ..

— لا فضل لكم علينا في تخفيف العذاب ، فنحن متساوون في العذاب لأننا متساوون في الضلال .. فنحن كقادة ضللنا وأضللنا ، وأنتم كتابعين ففضلالكم وتقليدكم ..
إننا نتشنى فيكم فنذوقوا العذاب بما أجرتم .

●● ويتهى هذا الموقف الساخر الأليم ، ليتبعه تقرير المصير

لا يتبدل .. فالذين كذبوا بآيات الله واستكبروا عن الإيمان وطاعته لا يصعد لهم عمل صالح^(١) ولا تفتح لهم أبواب الجنة .. إن الأمر مقضى به ، ومن المستحيل أن ينعموا بنعيم الجنة .. إنهم كمثل من يحاول إبرار الجمل من ثقب الإبرة^(٢) ! فهل يقدر ؟ وهل يأملون ! فإلى أن يلج الجمل في سم الخياط فهم في نار جهنم خالدون فيها .. فراشهم نار ، واغطيتهم نار . وهذا جزاء كل من ظلم وتعدى حدود الله .

●● المؤمنون :

وَبُعث الذين آمنوا وصدقوا برسله وعبدوا الله حق عبادته ، كل حسب طاقته وما في وسعه .. وهؤلاء هم أصحاب الجنة ، جزاء إيمانهم وعبوديتهم . إنهم المستحقون لرضى الله ، وما أروعهم وهم يرفلون في حلال السعادة .. لقد منّ الله عليهم .. فظهر قلوبهم من الحقد والحسد والبغضاء .. وسكنت قلوبهم الحجة والتعاطف والود .. وصدق فيهم قول الرسول ﷺ «يدخلون الجنة وليس في قلوب بعضهم على بعض غلٌّ» .

إنهم ينعمون بجمال الجنة ونعيمها .. فالأنهار المليئة بالماء المصفى تجري من تحتهم .. يرتوون ويغتسلون ، ويمتعون النظر .. وفي هذا النعيم يتوجهون إلى الله سبحانه معترفين بالفضل مبتهلين

(١) قال ابن عباس : لا يرفع لهم عمل صالح ولا دعاء : صفوة التفسير جـ ١ ص ٤٤٥ .

(٢) يرى سيد قطب رحمه الله أن الجمل هو الحبل الغليظ ، ذلك لأنه يتلاءم مع طريقة التصوير في القرآن وتناسق أجزاء اللوحة ووحدة الجو في النظر .. ذلك أن المعنى يتحقق والصورة تتناسق بهذا التفسير : أنظر « المشاهد » ص ١٠٤ .

إلى الله .. قائلين في خشوع وطمأنينة :

- إننا نحمد الله على منته ونعمره ، فلولا هداية الله وتوفيقه لنا ما كنا نعمنا بالجنة وما تحوى .. ولقد صدقنا رُسُلُ الله فيما أخبروا به عن الله عزَّ وجلَّ .. وآمنا به . وعبدناه .. فمن الله علينا .. وجعلنا من أصحاب الجنة ..

وتتصاعد من الأرجاء نداء رطب ندى .. نداء الملائكة إلى المؤمنين يزفون إليهم مشاركتهم في فرحتهم . ويؤكدون أن الجنة التي حصلوا عليها إنما كانت بسبب العمل الصالح في الدنيا^(١) ..

●● التَّنَادَى :

وتستمر المشاهد بعضها وراء بعض .. فلقد اطمأن أصحاب الجنة إلى دارهم واستيقن أصحاب النار من مصيرهم وإذا الأولون ينادون الآخرين يسألونهم عما وجدوه من وعد الله القديم^(٢) يتوجه أصحاب الجنة إلى أصحاب النار قائلين في فرح ، خاص بهم ، وفي سخرية من أصحاب النار .

- لقد وجدنا ما وعدنا به ربنا على ألسنة رسله من النعيم .. وجدناه حقاً وصدقاً .. ترى هل وجدتم ما وعد الله به الكافرين من عذابي وعذاب .. هل وجدتم ذلك حقاً وصدقاً؟^(٣)
ويجيء الجواب .. مكتسباً بالحزن والألم والندم .. يجيء في

(١) قال القرطبي : ورثتم منازلها بعملكم ، ودخولكم إياها برحمة الله وفضله .

(٢) الظلال ج ٣ ص ١٢٩٢ .

(٣) وإنما قالوا لهم ذلك اغتباطاً بخلافهم ، وشيئة بأهل النار وزيادة في غمهم - الكشف ج ٢ ص ٦٣ .

كلمة واحدة .. نعم .

ويقف المنادى بين الفريقين معلناً أن لعنة الله على الظالمين .
الذين منعوا الناس في الدنيا عن اتباع الحق .

●● أصحاب الأعراف :

وها هو السور العظيم الذى يقف فاصلاً بين الجنة والنار ، يقف حاجزاً بين أهل الجنة وأهل النار .. حتى يمنع وصول أصحاب النار إلى الجنة .. ووقف على السور رجال يعرفون أصحاب الجنة بسيماهم ، كما يعرفون أصحاب النار بسيماهم .. فأهل الجنة بيض الوجوه ، أما الآخرون فسود الوجوه^(١) .. والمشهد - ساحة العرض الفسيحة - مشهد الأعراف .. واقف كالحاجز وكأنما هو نقطة مرور ، ويفرز عندها أهل الجنة من أهل النار ، ويوجه كل إلى مستقره .. يعرفون سمات كلا الفريقين فيستقر كل فريق في مستقره .. ويشيئون كل واحد بما يستحقه ..

ويتوجه هؤلاء إلى أصحاب الجنة بالترحيب والسلام وإلى أصحاب النار بالتبكي والايلام^(٢)

- أيها المؤمنون أصحاب الجنة .. سلام عليكم .. وأهلاً بكم .. ويتقدم أهل الجنة .. بعد هذا الترحيب .. ويتلفتون لفتة حذرة .. إلى أهل النار ، وما يقاسونه من عذاب وألم .. فاستغاثوا برهم .. أن يبعدهم عن هذا العذاب ، وينعم عليهم بنعيم الجنة التي ما كانوا يطمعون فيها لولا رحمة ربهم ..

(١) قال قتادة : يعرفون أهل النار بسواد وجوههم . وأهل الجنة بياض وجوههم .

(٢) المشاهد ص ١٠٦ .

يمضى المؤمنون إلى الجنة فرحين مستبشرين ، يرحب بهم أصحاب الأعراف .. على حين يتوجه رجال الأعراف إلى الكافرين الظالمين .. أهل النار .. مبكين لهم ، ساخرين منهم ..
- هل نفعكم جمع المال ؟ .. وكثره ! هل نفعكم استكباركم عن الإيمان .. هل آذرتكم آفتكم التي عبدتم من دون الله ! أم هل أسعفكم قادتكم الذين اتبعتموهم ..

انظروا .. إلى المؤمنين أصحاب الجنة .. أليس هؤلاء المؤمنون الضعفاء الذين كنتم تسخرون منهم في الدنيا ، وتؤكدون أن الله لن يدخلهم الجنة ! .. ها هم الآن يدخلون أمام ناظريكم إلى الجنة .. يدخلونها بسلام غير خائفين ولا محزونين .. فلتطب لكم الحياة يا أصحاب الجنة ..

●● الاستغاثة :

استقر الظالمون في نار جهنم ، واحسوا بالبلاء الشديد ، واشتد بهم العطش من حرارة النار .. وصدر منهم صوت ممتلىء بالرجاء والذلة والاستجداء صوت صادر من أهل النار إلى أهل الجنة ..
- أفيضوا علينا من الماء .. فلقد بلغ بنا العطش مداه .. واشتد بنا الجوع .. اعطونا من أشربة الجنة ، وتفضلوا علينا بأطعمتكم .. وبأتيهم الجواب واضحاً وحاسماً ..

- إنكم ممنوعون من شراب الجنة وطعامها .. وأنتم تستحقون ذلك .. فلقد هزتم من دين الله وجعلتموه سخيرة ولعباً .. وخدعتكم الزخارف العاجلة والشهوات القاتلة .. وفي هذا اليوم الحاسم أنتم متروكون في العذاب .. لا شفيع ولا نصير .. كما تركتم

العمل الصالح في الدنيا حين كفرتم بالله ولم تؤمنوا به ..



ويتوالى هذا الموقف الطويل مشهداً وراء مشهد .. يحىء ويذهب .. يختصر الزمان كله منذ البدء إلى المنتهى . الزمان في حركة دائبة .. طوى الزمان كله ، وتداعت الأحداث ممتجة بين الحياة والبعث .. فالانصال قائم والامتداد بينهما موصول .. وهذا التراوح بين الزمن الماضي - الحياة الدنيا - والزمن الآتى - البعث والحساب .. يكشف لنا في صورة كاملة هذا النمط من الحياة التي عاشها كلٌّ من أصحاب الجنة وأصحاب النار .. إن رجعة الزمن دليل ومبرر على حضور الوقت وآنية الزمن .. والفعل حدث في زمن ، والإيمان - العمل صالح مسلك زمني في إطار مكاني . والكفر - الضلال والظلم مسلك زمني في إطار مكاني أيضاً .. ولكنهما في البعث توحداً ، فالزمان دائم مستمر لا رجعة فيه بعد الحساب .. والمكان مستمر ومتوحد ومحدد .

وهذه الرحلة الطويلة في عالم الغيب المشهود رحلة تعكس حركة

الحياة كلها .. منذ بدء الخلق إلى البعث والنشور ..

ولقد عني القرآن بمشاهد القيامة . البعث والحساب ، والنعيم والعذاب فلم يعد ذلك العالم الآخر الذى وعده الناس بعد هذا العالم الحاضر ، موصوفاً فحسب ، بل عاد مصوراً محسوساً ، وحياً متحركاً ، وبارزاً شاخصاً ، وعاش المسلمون في هذا العالم عيشة كاملة .. رأوا مشاهدته ، وتأثروا بها ، وخفقت قلوبهم تارة ، واقشعرت جلودهم تارة ، وسرى في نفوسهم الفرع مرة ، وعادوهم

الاطمئنان أخرى ، ولفحهم من النار شواظ ، ورف إليهم من الجنة نسيم ، ومن ثم باتوا يعرفون هذا العالم تمام المعرفة قبل اليوم الموعود . هذا العالم بسيط كل البساطة ، واضح وضوح العقيدة الإسلامية ، موت وبعث ، ونعيم وعذاب . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم الجنة بما فيها من نعم ، وأما الذين كفروا وكذبوا بقاء الله ، فلهم النار بما فيها من جحيم ، ولا شفاعة هناك ، ولا فدية من العذاب ، ولا اختلال قيد شعرة في ميزان العدالة الدقيق .. وهذه الحقيقة البسيطة الواضحة تعرض في صور شتى وترسم في عالم كامل ، حافل بالمشاهد ، وتترأى عشرات من الأوضاع والأشكال والسمات ، وتؤلف بذلك ملاحم فنية رائعة ، تملأها النفس ، وتتابعها الخيال ، ويستغرق فيها الحس ، وتترأى فيها الظلال ، وتصف إلى الثروة الأدبية صفحات مفردة لا شبيه لها ولا مثال^(١) .

(١) مشاهد القيامة في القرآن ص ٤٢ - ٤٣ .

القصة الوعظية

إذا كانت القصة القرآنية تاريخاً لحركة الدعوة الدينية ومسيرتها في الحياة ، وإذا كان عبء هذه الدعوة قد قام به الرسل والأنبياء .. في مجالات الصراع بين الحق والباطل ، فثمة قصص أخرى لم يكن أبطالها أنبياء وإنما كانوا أفراداً عاديين ، ولم يكن الغرض الديني منها هو إثبات التوحيد والدعوة إلى الوحدانية ، وإنما الهدف هو إبراز العظة الدينية والدعوة إلى التصحية في سبيل الله ، والدعوة إلى التحمل والجهاد .

هذا النوع نستطيع أن نطلق عليه القصة الوعظية .. بحيث تأتي في السياق القصصي بالقدر الذي يبلغ العظة ويوصلها إلى المتلقين ، حتى يتواصل التأثير . وهو القدر الذي يتفق مع الغرض الديني .. «قال صاحب الشهاب : ويتناول القرآن الكريم قصص الأنبياء والمرسلين ويذكر طرفاً من معجزاتهم . ومن المقرر أنه ليس الغرض من ذلك استقراء الوقائع ، ولا تحديد الأزمان ، ولا تناول الظروف والملابسات ، ولا تسجيل مجرد للحوادث والأشخاص ، ولا البحث التاريخي الاصطلاحي والفني ، وإنما الغرض من ذلك الهداية والعظة والعبرة ، وتقرير قواعد هذه الهداية في النفوس بذكر القصص وعرض وقائعها أمام السامعين والقارئ والقرآن الكريم

يصرح بهذا في وضوح .^(١)

والقصة الوعظية نجدها في قصص أصحاب الأخدود ، وأهل الكهف والذي مر على قرية .. وأصحاب الجنتين .. وهى قصص تتضمن التضحية في سبيل الايمان ، والاستشهاد من أجل اليقين .. كما في قصتي الأخدود والكهف وهى من هذه الناحية عظة لكل جبار يصد عن دين الله ، ويسوم الناس البلاء والعذاب .. ذلك لأن مصيره النار والعذاب الشديد ، كما أنها في هذا المجال تعطى النموذج الطيب لمسلمى مكة ، حتى يصمدوا أمام جبابرة مكة وظالمها .. وفيها تسرية عن المسلمين الذين يقع عليهم ظلم الجاهلين من مكة .. فضلاً عن أن حركة الدعوة تؤكد على سقوط كثير من الشهداء من أجلها .. وكأنما الحركة متصلة ..

.. أما قصة الذى مرّ على قرية ، فهى تدل في وعظية واضحة على التأكيد على البعث والنشور وهو لب دعوة التوحيد وأحد أصوله الكبرى .. ولقد سبقت الموعظة في صورة قصصية مجسمة أوصلت الهدف الدينى في وسيلة حسّية سرديّة مؤثرة . أما أصحاب اللجنة .. وقد وردت فيما سبق عن القصة المثل .. فهى هنا تأتى لإبراز العظة والعبرة في مجال السلوك البشرى الذى يجب أن يتعالى على الغرور والجحود بنعم الله ..

● ولنأخذ في هذا المجال .. قصة أصحاب الأخدود . وقصة الذى مرّ على قرية .. والقصة الأولى وردت في إشارة موجزة .. في

(١) نظرات في القرآن . محمد الغزالي ص ١٢٢ دار الكتب الحديثة .

سورة البروج ..

قال تعالى : ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ . وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ . وَشَاهِدٍ مُّشْهَدٍ . قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ . النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ . إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ . وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . إِنَّ الَّذِينَ فُتِنُوا بِالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ (١)

والقصة القرآنية - كطبيعتها الفنية - أشارت إلى أصحاب الأُخْدُودِ .. مجرد إشارة ، دون الاهتمام بالتفصيلات ، أو توضيح القصة ، وأشخصها ، وملابساتها .. إنطلاقاً من أن القصة لا تهدف إلى سرد حكايا فقط وإنما تخترق القصة كلها إلى لبها ومعناها .. وعرضها الديني . ولكن القصة وردت مفصلة في كتب الصحاح ، والتفاسير .. وتنوعت القصص واختلفت ولكن المغزى واحد ..

● روى عن النبي ﷺ أنه كان لبعض الملوك ساحرٌ ، فلمَّا كبر ضمَّ إليه غلاماً ليعلمه السحر . وكان في طريق الغلام راهبٌ ، فسمع منه . فرأى في طريقه ذات يوم دابة قد حبست الناس . فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان الراهب أحب إليك من الساحر فاقتلها . فقتلها . فكان الغلام بعد ذلك يبرئ الأكمه والأبرص ويشفي من الأدواء . وعمرى جليس للملك فأبرأه . وأبصره الملك

(١) سورة البروج آيات ١ - ١١ .

فسأله فقال : من رد عليك بصرك ؟ فغضب فعذبه . فدل على الغلام . فعذبه فدل على الراهب . فلم يرجع الراهب عن دينه . فقد بالمنشار . وأنى الغلام فذهب به إلى جبل لي طرح من ذروته . فدعا . فرجف بالقوم فطاحوا ونجا . فذهبوا به إلى البحر ليغرقوه . فدعا . فانكفأت بهم السفينة فغرقوا . ونجا . فقال للملك لست بقاتلى حتى تجمع الناس في صعيد وتصلبني على جزع ، وتأخذ سهماً من كنانتي وتقول بسم الله رب الغلام ، ثم ترميني به فرماه . فوقع في صدغه . فوضع يده عليه ومات . فقال الناس آمنا برّب الغلام . فقبل للملك نزل بك ما كنت تحذر .

فأمر بأخاديد في أفواه السكك ، وأوقدت فيها النيران . فمن لم يرجع منهم طرحه فيها . حتى جاءت امرأة معها صبي فتقاعست أن تقع فيها . فقال الصبي : يا أماء اصبرى فإنك على الحق . فاقتمحت . (١) .

● وقيل وفد إلى نجران رجل ممّن كان على دين عيسى عليه السلام فدعاهم فأجابوه . فسار إليهم ذونواس اليهودى بجنود من حمير ، فخيرهم بين النار واليهودية . فأبوا ، فأحرق منهم اثني عشر ألفاً في الأخاديد .. وذكر أن طول الأخدود أربعون ذراعاً وعرضه اثنا عشر ذراعاً .

.. ولا شك أن ما ورد عن رسول الله قد أوضح لنا القصة

(١) الكشف ج ٤ ص ٢٠٠ ، ووردت مفصلة وطويلة في كتاب جمع الفوائد . الجامع لكتب السنة المطهرة : جمع محمد بن سليمان الورداني المغربي ج ٢ ص ٣٨١/٣٨٢ وكذلك البخارى .

وحدّد معالمها وأشخاصها .. وهو ما سكت عنه القرآن ..

والقصة موقف من مواقف التضحية والفداء . وهي تحت على
الاهتداء بنور الله والالتزام بما أوحى به والاعتقاد بأن الفلاح
والنجاح في التمسك بالعقيدة . والقصة تحدث أيضاً عن قضية
الالتزام اليقيني بالعقيدة الدينية السمحة . والتمسك بها ، وإن كلف
ذلك التضحية والشهادة .. ولا شك أن تكرار نماذج التضحية
يؤدى إلى ترسيخ العقيدة في نفوس المسلمين .. فنستقر في
وجداناتهم .. وتلك قضية ذات أهمية بالغة بالنسبة لما كان يواجهه
المسلمون من مشكلات إزاء تمسكهم بالدين .

● والقصة وردت في سورة البروج .. وهي سورة مكية .. تتعرض
لحقائق العقيدة الإسلامية .. والخور الذى تدور عليه السورة هي
حادثة «أصحاب الأخدود» وهي قصة التضحية في سبيل
العقيدة .. كما أن القصة كما وردت في الحديث توضح جانبين
هامين : أن الغلام المؤمن الذى تحدى الملك أقدم على التضحية
لتعرية الملك وأتباعه . وإقناع من آمن بقوة العقيدة . وأيضاً إبراز
الشخصية الظالمة المتمثلة في الملك الطاغى ، وهي شخصية يسرى
الظلم في دمه ، وبها شهوة قوية في الانتقام ممن لم يسمعوا كلمته ،
أو يدينوا بدينه . «وبأتى الموقف المشحون بكل معانى الانتقام لدى
الملك ، التى فجرتها في كيانه مواقفه الفاشلة في صد هذا التيار
المتدفق بالصحة والإيمان . فإذا به ينتقم من المؤمنين بخد الأحاديث
في أفواه السكك ، وإضرار النيران فيها ، وإلقاء المؤمنين في أحضان
اللهب المتصاعد !»^(١)

(١) القصص في الحديث النبوى ص ١٧٧ .

والسورة بدئت بالقسم . والقسم من المؤكدات . والتأكيد هنا لإبراز القدرة الإلهية . ولقد أقسم الله سبحانه بمنازل السماء ، ويوم القيامة وبالأنبياء الشاهدين على أمهم على استحقاق أصحاب الأخدود للطرد واللعن من رحمة الله . وبصحب هذا التأكيد تشويق . فيثور في الذهن : ومن أصحاب الأخدود ؟ ولماذا استحقوا هذا العذاب ؟ لا بد أنهم ارتكبوا جرماً خطيراً . وفي التشويق إثارة لحواس الإنسان .

وبناء الفعل للمجهول يعطى دالتين : دلالة وقوع العذاب والطرد من الرحمة . ودلالة التشويق وحب الاستطلاع لمعرفة هذا المجهول .. وهو الذي وضعه رسول الله في حديثه . ولقد ورد المشهد مركزاً غاية التركيز ، فها هم يحفرون ويوسعون في الحفر وكلما حفروا ، كلما قست قلوبهم وانطوت على غل شديد ، للمؤمنين الذين سيقى بهم في الأحاديث . وها هي النيران مشتعلة .. والقوم يريدون أن يروا نتائج حسية مشهودة . كي يتلذذوا بإحراق المؤمنين ، فجلسوا حول النار وتحلقوا حافة الأحاديث ليشهدوا هذا الفعل الشنيع ..

ولك أن تتخيل الفجوة هنا وهي فجوة تصور مشهد المؤمنين وهم مُساقون إلى مصيرهم وكلهم ثبات ، وكانوا كلما عُرضوا على نار الأخدود استهزأوا بهم لثباتهم على العقيدة . وفجوة أخرى تصور مشهد الكفرة وهم يطلبون من المؤمنين الرجوع عن الدين .. ولك أن تتصور وسائل الترغيب والترهيب بما يتلوها من تلون في حركة الوجوه وملاحظها وذلك لصرفهم عن العقيدة . ولكنهم يفشلون ،

حيث يستقبل المؤمنون النار كما لو كانوا يستقبلون روضة من رياض الجنة .

إن قصة أصحاب الأخدود علاوة على أنها نموذج للتضحية بالنفس من أجل العقيدة . فهي أيضاً وعيد للكافرين وتسرية للمؤمنين ، وتوضيح أن التحريق البشع هو مصير الطغاة أنفسهم .. على حين ينعم المؤمنون برضى الله وبالفوز بالجنة .

يقول سيد قطب : «كذلك تنتهى رواية الحادث وقد ملأت القلب بالروعة . روعة الإيمان المستعلى على الفتنة ، والعقيدة المنتصرة على الحياة ، والانطلاق المتجرد من أوهام الجسم وجاذبية الأرض . فقد كان في مكنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الفرقة لإيمانهم . ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم في الدنيا قبل الآخرة ! وكم كانت البشرية كلها تخسر ! كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير . معنى زهادة الحياة بلا عقيدة ، وبشاعتها بلا حرية . وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد ، إنه معنى كريم جداً ومعنى كبير جداً هذا الذى ربخوه وهم بعد في الأرض ، ربخوه وهم يجدون مسّ النار فتحترق أجسادهم ، ويتنصر هذا المعنى الكريم الذى تركيه النار ! وبعد ذلك لهم عند ربهم حساب ، ولأعدائهم الطاغين حساب» (١) .

● أما القصة الثانية وهى قصة الذى مرّ على مدينة .. فهى تتناول قضية الموت والاحياء .. ولقد صيغت في صورة حسية مشخصة

(١) الظلال ج ٦ ص ٣٨٧٤ .

يتخللها الحوار والجدل لإثبات قدرة الله سبحانه على البعث بعد البلى والفناء كقدرته جلّ وعلا على الخلق من عدم .. وهى فكرة أساسية فى التصور الإسلامى لقضية التوحيد والبعث .. وهى دليل محسوس عيانى .. على تجسيد القضية تجسيداً واضحاً .

وإذا كانت ملابسات القصة وظروفها ، قد حدثت فى زمن بعيد يرجح أنه قبل بعثة المسيح وفى عصر يختصر ، فإن القصة نفسها تتواصل فى الزمان إلى أن يبعث الله الموتى من جديد . لأنها تحمل فكرة أصولية وهى فكرة الحياة والموت ، والتي دار حولها صراع طويل بين الرسل والأنبياء وبين الأمم الغابرة واللاحقة ، فهى من كمال التوحيد وتماحه .. وانكارها ، كفر وضلال .. وهى من هذه الناحية تدخل فى باب التوحيد الخالص ، لأن الله سبحانه هو المتفرد فى الخلق ، وفى الحياة ، وفى البعث ، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد ..

وقد وردت القصة فى سورة البقرة وهى من السور المدنية التى تهتم بالأحكام الإسلامية والتشريع فى مجالات الدين والمعاملات ، وهى أيضاً مليئة بقدر كبير من الجدل والحوار حول قضايا التوحيد والألوهية .. فضلاً عن المواجهات التى حدثت بين المسلمين واليهود . ومن ثم فإن العبرة والعظة فى القصة واضحة جلية «فالتوجه إلى الله وحده بالشعائر التعبدية ، والطلب والرجاء والخشية والتقوى ، كالتلقى من الله وحده فى التشريع والتوجيه ومنهج الحياة ونظام المعيشة ، وقواعد الارتباطات وميزان القيم والاعتبارات كلاهما من مقتضيات التوحيد ، وكلاهما يصور المساحة التى تشملها

حقيقة التوحيد في ضمير المسلم وفي حياته على السواء»^(١) !
 فقصه الذي مرّ على مدينة إذن .. تجسد في إيجاز حيّ محور
 التوحيد والعبودية .. وهو تفرد الله بالخلق ، وتفرد بالبعث ، الأمر
 الذي يترتب عليه الإيمان الخالص والعمل بأحكام المنهج الرباني
 فكراً وسلوكاً ..

ولقد وردت القصة في الآية الآتية :

قال تعالى :

﴿أَوِ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي
 هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ، فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ، قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ،
 قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ ، فَانْظُرْ إِلَى
 طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ، وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ ،
 وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ ، قَالَ
 أَعْلِمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢)

● وأوردت كتب التفسير كثيراً من الروايات حول الرجل صاحب
 القصة ، وأجمعت على أنه العزيز ..

وخلاصة القصة أن عزيزاً كان رجلاً صالحاً من بني إسرائيل في
 عهد بختنصر ، خرج ذات يوم على حماره فمر على قرية خربة ،
 فدخلها ومعه سلة تين وعنب ، فاعتصر العنب وأخرج خبزاً يابساً
 فألقاه في القصعة التي معه لئيل لأكله ثم نظر سقف تلك البيوت
 الخربة ورأى ما فيها وهي قائمة على عروشها وقد باد أهلها ورأى

(١) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص ٢٢٤ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٥٩ .

عظماً بالية فقال ﴿أَنَّى يَحْيَىٰ هَٰذَا ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ قالها تعجباً ، فبعث الله ملك الموت فقبض روحه فأماته مائة عام . فلما أتت عليه مائة عام بعث الله إلى عزيزاً ملكاً .. فخلق قلبه ، ورَكَّب خلقه ، فاستوى جالساً فقال له الملك كم لبثت ؟ قال لبثت يوماً أو بعض يوم فقال له الملك : بل لبثت مائة عام . فانظر إلى طعامك وشرابك . الخبز اليابس والعصير الذي اعتصره في القصعة ، فإذا هما على حالهما لم يتغيرا ؟ وكذلك التين والعنب غضُّ لم يتغير شيء من حالهما . وانظر إلى حمارك . فانظر إلى حماره قد بليت عظامه وصارت نخرة . فنادى الملك عظام الحمار فأجابت وأقبلت من كل ناحية . فقام الحمار رافعاً رأسه وأذنيه إلى السماء . ثم ركب الرجل حماره حتى أتى محلته فأنكره الناس ، فانطلق فإذا هو بعجوز عمياء ، فأخبرها باسمه فقالت العجوز : إن عزيزاً رجلاً مستجاب الدعوة فادع الله أن يرد عليّ بصرى حتى أراك .. فدعا ربّه فابصرت فقالت : أشهد أنك عزيز . وانطلقت إلى محلة بنى إسرائيل وهم في أنديتهم فقالت : هذا عزيز قد جاءكم فكذبوها . فأخبرتهم بما حدث لها ، فنهض الناس فأقبلوا عليه .

وقالت بنو إسرائيل : فإنه لم يكن فينا أحد حفظ التوراة فيما حَدَّثنا غير عزيز وقد حرق بختنصر التوراة ولم يبق منها شيء إلا ما حفظت الرجال ، فاكتبها لنا ..

.. وجلس في ظل شجرة وبنو إسرائيل حوله ، فجَدَّد لهم التوراة . ونزل من السماء شهابان حتى دخلا جوفه ، فتذكر التوراة فجَدَّد لها بنى إسرائيل ..

.. وعن ابن عباس : أنه كان يجلس مع بنيه وهم شيوخ وهو شاب لأنه مات وهو ابن أربعين سنة ، فبعثه الله شاباً كهيئة يوم مات .. (١)

.. والقصة قد وردت - اعتراضية في قصة إبراهيم . حيث فصلت بين موقف إبراهيم الجدلي مع الملك الطاغية ، عابد الوثن ، ودار الحوار حول الموت والحياة ، الإمانة والإحياء .. دليلاً على القدرة الإلهية .. وموقف إبراهيم الثاني حين طلب من ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ؟ وهو تساؤل قريب من تساؤل الرجل الذي مرَّ على القرية .. فكأن هذه المواقف الثلاثة .. تتناول موضوعاً واحداً وهو البحث المتطلع إلى سر الحياة والموت . والإحياء والإمانة ظاهرتان مكرورتان في كل لحظة ، وهما في نفس الوقت سر يحير الألباب . ولا بد من اللجوء إلى الألوهية القادرة لحل هذا السرّ الملعن الذي يعجز عن ادراك كنهه كل الأحياء .. ومن ثم جاء التساؤل .. ﴿أَتَى يَحْيَىٰ هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وكذلك ﴿...أَرْنَىٰ كَيْفَ نَحْيِي الْمَوْتَىٰ ؟...﴾

.. وفي قصة الرجل الذي مرَّ على القرية .. جاء الحدث موجزاً متلاًماً مع طبيعة القصة القرآنية .. التي لا تحفل بالتفاصيل .. فلا الآيات أخبرت عن اسمه ولا أخبرت عن القرية التي مرَّ عليها ، ولا الطريقة التي بعث بها . ولا الهيئة التي ركَّب بها عظام الحمار النخرة .. لقد سكّ القرآن عن ذلك كله ، لأن التفاصيل لا

(١) انظر قصص الأنبياء لابن كثير ص ٣٢٦ ج ٢ وانظر الكشف ج ١ ص ١٥٦/١٥٧/١٥٨ .

تضفى جديداً على القضية الأساسية .. وهى قضية الحياة والموت ..
الخلق والموت والبعث .. وتتم القصة بمشاهد متتالية .. يأخذ بعضها
برقاب بعض .

●● مشهد البلى :

ركب الرجل حماره ومعه طعامه وشرابه ، ومضى حتى وصل إلى
مكان خرب ، وكان الفناء يمرح فى كل مكان ، والبيوت أطلال ،
لم يبق منها إلاّ قواعد مهدمة .. والخواء يضرب فى كل مكان ..
ويسيطر على الحس والنظر والمشاهدة ..

●● التساؤل :

ويعن الرجل النظر فى هذا الخواء ، فالمشهد أمامه مرسوم
ومجسم وحواسه كلها تستقبل هذا المشهد وتندesh له .. وتضطرب
مشاعر الرجل ، فما أعظم البلى ، وما أعنف تأثيره عليه .. ودار
عقله بعيداً ، وقلبه ينبض بمشاعر متسائلة .. وكأنما يعيش لحظة
حاسمة فى حياته .. حواسه كلها مستفزة ، وبصره مشدود .. ولا
يملك الرجل فى هذا الجو المرعب الخيف إلاّ أن يتساءل فى تعجب
ودهشة كيف تدب الحياة فى هذا الموت من جديد !!

●● الموت والبعث :

وفجأة يضيع السؤال ويتلاشى .. ويضيع المشهد كله من
أمامه ، فقد مات الرجل ، مات فجأة ، ولم يجد بعد إجابة
للسؤال .. مات ولم يجد علاجاً يشفيه من تساؤله الملح ، فالرغبة فى
بحث السر كامنة ، ولكن الموت خطفه . وظل مقبوراً فى مكانه مائة
عام .. مائة عام كاملة .. تتغير فيها الدنيا من حال إلى حال ..

ويعث الرجل إلى الحياة فجأة كما مات فجأة ..

●● المحاورة :

وجد الرجل نفسه حياً .. مظاهر الحياة تدب فيه وفيما حوله ..
المكان والشمس والكون كله وقيل له بعدما أظهر من الحيرة
والدهشة :

- كم لبثت على الحالة التي أنت فيها ..
ولأن الزمن في عالم الموت غير محسوب والاحساس به معدوم ،
لأن الإحساس بالزمن من طبائع الوعي والحياة ، أسرع قائلاً .. في
عفوية ..

- لبثت بعض يوم أو يوماً على أكثر تقدير ..
وقيل له .. وقد تبدلت آثار واضحة لم يدركها الرجل .

- بل لبثت مائة عام ..
مائة عام !! وبندھش الرجل دهشة بالغة ، ويقع في حيرة لا
نهائية .. كيف ؟ .. وكأنما الرجل لم ينظر حوله ، ولم يتعرف بعد على
المتغيرات التي حدثت في تجربته المثيرة .. ولأنها تجربة حسية
مشخصة .. برزت الآثار المحسوسة التي تعطي الدليل القاطع على
لبثه مائة عام ..

ف قيل له - في أمر علوى - أن يستقرىء المشاهدات التي حوله .
- ها هو طعامك الجاف الذى تركته من مائة عام لم يتغير ..
وها هو شرابك الذى عصرته لم يصبه العفن أو العطب ..
ولكن عقل الرجل لا يزال مندهشاً .. إذا كان فى تصوّره أنه
لبث يوماً أو بعض يوم فإن العطب لن يصيب الطعام أو الشراب ..

إن الأمر يحتاج إلى دليل قوى وحاسم .. قبل أن يبدأ في رحلته إلى ذويه ..

●● الآية :

وتجيء الآية ، عظة وعبرة ، ودليلاً حاسماً .. على التساؤل الذى مات به ، وبعث به .
فقبل له :

- انظر إلى حمارك الذى تعرت عظامه وتفسخت وبلت وأصبحت كالريم . ها هى العظام يأتى بعضها إلى البعض الآخر ، وانظر كيف تكسى باللحم ، وتعود فيها الحياة ، وتدب الحركة فى الأعضاء .. فأنت أمام حالين مختلفين .. حالة الطعام والشراب الذىبقى مائة عام ولم يتغير شيء فيها .. وحالة البلى التى أصابت الحمار .. إن كلنا الحالتين آية على قدرة الله ، القدرة المطلقة التى لا يعجزها شيء ..

ويدرك الرجل بحواسه كلها أطراف المشهد ، ويصل إلى الجوهر الحقيقى ، ويأتيه الجواب .. جواب السؤال الذى شق به ، فمات مائة عام وبعث ليجد الإجابة .. فى إطار تجربة حسية مشاهدة ، لا تحتاج إلى تأويل .. تجربة تخترق القلب والعقل معاً ..

- إنك يا رجل آية للناس .. وما حدث إنما هو وسيلة مشاهدة لادراك قدرة الله سبحانه ، ولتصبح معجزة ظاهرة تدل على كمال القدرة الإلهية .. ولتصبح موعظة وعبرة لقومك ولغيرك من الأقسام .. على مر السنين والأيام ..

وحين أدرك الرجل ذلك كله ، ورأى بحواسه ما رأى ، أيقن

وعلم علم المشاهدة أن الله على كل شيء قدير ..
 ... وهكذا كانت التجربة الحسية المشاهدة ، والتي سببها
 تجربة مشاهدة أخرى بالنسبة لإبراهيم عليه السلام ..
 تمضي هذه التجربة ، فتضيف إلى رصيد أصحاب الدعوة
 رسيداً جديداً ، وإلى رصيد التصور الإيماني بعداً صحيحاً .
 (وتقرر - إلى جانب حقيقة الموت والحياة وردهما إلى الله - حقيقة
 أخرى هي .. حقيقة طلاقة المشيئة .. التي يعنى القرآن عناية فائقة
 بتقريرها في ضمائر المؤمنين به ، لتتعلق بالله مباشرة ، من وراء
 الأسباب الظاهرة والمقدمات المنظورة . فالله فعّال لما يريد !!^(١))
 .. ولقد قامت الألفاظ القرآنية بدلالة إحياء المعاني الكامنة
 وراءها .. وتضافرت الألفاظ لتبرز المعنى الجوهرى الكامن

ولفظ «خاوية» تعنى البلى والفناء .. وهى ضد الامتلاء الذى
 يعنى الحياة والحركة وهى جاءت كمدخل حسى للتجربة الحسية
 المباشرة .. ليتولد عنها الإحساس بالدهشة والرهبة معاً .. والذى
 تحمله لفظة «أنى» .. وهى أداة استفهامية تحمل تساؤل الدهشة ،
 «والاعتراف بالعجز عن معرفة طريقة الإحياء .. واستعظام لقدرة
 الخيى»^(٢) .. وجاءت لفظة (لم يتسّنه) بالنفى لإثبات دوام الحال
 دون تغييره .

فضلاً عن أنها تحمل دلالة مرور الزمان الطويل .. ذلك أن

(١) الظلال ج ١ ص ٣٠١ .

(٢) الكشف ص ٢٥٧ ج ١ .

الشيء يتغير بمرور الزمان .. أما الطعام والشراب فبقى على حالته ..
كما أن استخدام أداة العطف «ثم» التي تدل على العطف
والتراخي ، يعطى دلالة الزمن في التجربة ، بمعنى أن حركة الخلق
قد تمت أمامه في ببطء وتراخ حتى يتأكد تأكد اليقين من مراحل
الاحياء وكيفيةها ..

وتكرار كلمة (انظر) جاء متلائماً تماماً مع التجربة الحسية
المشاهدة ، ذلك أن النظر هو الحاسة الوحيدة القادرة على تمثيل
ورؤية حركة الخلق والاحياء بكاملها وتماها .. وهى وسيلة حسية
إدراكية يدرك بها الإنسان المراتب والمشاهدات .. فالبرهان العقلى
قد توارى تماماً فى هذا الموقف وحل محله البرهان التجريبي الذى
أداته النظر ..

(فالمشاعر والتأثرات تكون أحياناً من العمق والعنف بحيث لا
تعالج بالبرهان العقلى ، ولا حتى بالمنطق الوجدانى ، ولا تعالج
كذلك بالواقع العام الذى يراه العيان . إنما يكون العلاج بالتجربة
الشخصية الذاتية المباشرة .. التى يمتلىء بها الحس ، ويطمئن بها
القلب ! (١)

(١) الظلال ج ١ ص ٣٠٠ .

التنوع القصصى

وردت القصة فى القرآن الكريم لتدل على حقيقة الدين ، وإبراز الغرض الدينى .. وتحديد الوسيلة لتحقيق رضى الله .. والاقرار بالعبودية المطلقة ، وهى فى هذا الجانب أداة فنية موصولة منذ بدأ الرسل يدعون إلى التوحيد ويبلغون أمهم بوحى الله .. ورسالته .. كما أنها تدل على طبائع البشر المتصادمة ووسائل علاجها ، وإبراز سنن الله فى العقاب والثواب .. ومن ثم تصبح القصة كما قلنا سابقاً من أنجح الوسائل التعبيرية فى تهذيب النفوس وتأديبها ، وصقل القلوب ورياضتها على الصلاح ، وتقويم السلوك وتعديله ، ورسم السياسة العامة الصالحة للجماعات المؤمنة .. وتشخيص الحقيقة المجردة بحيث تكون أكثر تأثيراً وفاعلية ، مما يجعل العبرة والعظة تنساب طبيعة إلى القلوب .

فالقصة فى القرآن (ليست عملاً فنياً مستقلاً فى موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه - كما هو الشأن فى القصة الفنية الحرة التى ترمى إلى أداء غرض فنى طليق - إنما هى وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية . والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شئ ، والقصة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتشبيهاً^(١)

(١) التصوير الفنى ص ١٤٣ .

ومن ثم فقد خضعت القصة القرآنية في موضوعها وفي طريقة عرضها لمقتضى الأغراض الدينية . الأمر الذى لمسناه في عرضنا السابق لأنواع القصة في القرآن - فبالرغم من انطلاق القصة من هدف ديني محدد وهو إقرار التوحيد والعبودية لله الأمر الذى يصبح به هذا الغرض محوراً موضوعياً للقصة جميعها .. إلا أن التنوع واضح في إيراد القصص .. إنه تنوع على لحن واحد إن صح التعبير . فوجدنا القصة التمثيلية تضرب في مجالات الإنكار والجحود وغرور النفس ، وبُعد المسلك البشرى عن الحق الذى أمر به الله كما لمسنا في القصة التاريخية الصراع الأبدى بين الحق والباطل . وموقف الأمم الغابرة من الرسل والأنبياء .. والعقاب الذى حل بهذه الأمم من خسف وزلزال ورياح .. مما يدل على وحدة الرسالة ، ووحدة الوسيلة ، ووحدة الفعل منذ آدم وحتى محمد ﷺ . كما ساهمت القصة التعليمية بما تضمنته من وسائل العرض والتربية في خلق قيم دينية سليمة ، وإبراز المسلك القويم في السلوك البشرى ، وإدانة الأفعال التى تتنكر للحق وتجدد بالرب .. كما أبرزت القصة النفسية حقيقة المشاعر الإنسانية .. التى تتراوح بين الغلظة والشفافية والعفة والابتزاز ، والمحبة والحقد ، وكانت في كل هذه المشاعر .. ترصد النفس في لحظة سموها ، وسفلها .. دون خروج على الإطار النظيف الذى التزمت به القصة .. ولم تخل القصة القرآنية من الإشارات الرمزية التى وردت عبر أدوات غير عاقلة كالبقرة أو الهدهد .. أو عبر حوادث مختزنة تشير إلى أسباب النزول القرآنى .. لتكشف من وراء هذا الرمز الإشارى عن معانى عميقة ، كامنة تحت هذا الرمز

الإشارى .. معانٍ تحفل بالحياة ، والحركة والتنوع والصراع ، وكشف طبائع الناس . فضلاً عن القصص الوعظية البحتة ، التى تكشف معدن المؤمنين الصالحين الذين يضحون بأنفسهم من أجل العقيدة ، هروباً من الوثنية والظلم .. أو إثبات حقائق التوحيد الكلية من بعث ونشور ، دليلاً على قدرة الله وعظمته ، ولم تنس القصة القرآنية أن تنتقل إلى عالم الغيب ، فتحدث عن مشاهد القيامة ، فى صور حسية مشخصة بحيث يتضح لنا فى موقف البعث أممات البشر المؤمنين الذى رضى الله عنهم فدخلوا الجنة ، أو الكافرين الذين غضب الله عليهم فعاقبهم بالنار .. أو هؤلاء الذين يقفون على الأعراف انتظاراً لرحمة الله ..

... وإذا كانت هذه هى أنواع القصة القرآنية على قدر ما اسعفتنا به الدراسة .. فإن هناك تنوعاً قصصياً آخر .. يضاف إلى ما سبق ليعطى لنا صورة كاملة للتنوع القصصى فى القرآن الكريم ..

● وأول هذا التنوع القصصى .. يرتبط ارتباطاً بالشخصية المحورية فى القصة .. بحيث نستطيع أن نضعها فى أطر ثلاثة ..

● الإطار الأول : هو القصة التى تتناول الأنبياء والرسل .. وجهادهم فى الدعوة إلى التوحيد ، وما كانوا يلقونه فى سبيلها من شرواذى ومكابرة وعناد ، واعراض وجحود ، وكيف صبر أولوا العزم من الرسل على ما كذبوا به حتى جاءهم نصر الله عزيزاً مؤزراً .. وتبع ذلك .. أن ورود مثل هذه القصص يختلف طويلاً وقصراً .. وتكراراً .. ولعل قصة موسى دليل واضح على هذه الشخصية الفاعلة القوية فى مواجهة حشد هائل من الصراع

المأساوى ..

● وتنوع قصص القرآن مرة ثانية ، حين تتناول جماعة من البشر . وهى على قلتها .. نموذج حىّ للتعبير القرآنى فى مواجهة النفس البشرية .. لحظة الفعل الحاسم فى مجريات الدين والحياة . وهى تكشف - بطبيعة الحال - الجو الدينى الذى يغلف القصة وتحرك الأشخاص .. مع أو ضدّ الدين .. ولعل قصص أهل الكهف ، وأصحاب الأعدود . وأصحاب الجنة .. مثال واضح على ذلك .. فجماة البشر تتحرك فى إطارها الدينى الخاص .. ولكنهم يتحركون على مسرح حىّ .. مجسم يعكس كل نامة فى النفس وكل رد فعل فى السلوك ، وكل توجه فى الدين ..

● وتنوع مرة ثالثة فتتناول الأشخاص مفردين .. كقصة قارون .. الذى كان من قوم موسى فطغى وتكبر بما أوتى من مال وكنوز .. وكان إذا نصحه الناصحون أن يتذكر الله .. ونعمه عليه ، وأن يتذكر اليوم الآخر ، فيجعل للفقراء نصيباً من ماله .. يأبى الإصغاء ويتأدى فى سلوكه الجاحد .. فلحقه عذاب الله ، فخسف به وبداره الأرض ..

● والملاحظ على النوعين الأخيرين من القصص أن القرآن الكريم لا يكررها مثلاً يحدث فى قصص الأنبياء والرسل . فلم ترد إلا فى موضع واحد وفى سورة واحدة بعكس قصص الأنبياء التى تتوزع على سور القرآن توزعاً واضحاً ومكرراً .. وربما كانت قصة يوسف هى الاستثناء الوحيد فى هذا المجال .. فلقد وردت كاملة فى السورة التى سميت باسمه . وهذا التوزيع الذى انفردت به قصص الأنبياء مع

أهمهم الغاية تحتفظ دائماً بجوهر الأحداث ووحدة الموضوع مع تنوع في الأداء التعبيري واختيارات المواقف ليتلاءم مع النسق القرآني الذي وردت فيه .

وقد تنوع القصة بين الطول والقصر ، والإجمال والتفصيل (ولكل من الإجمال والتفصيل هنا عمل يراد . ففي الإجمال ضرب من الإيهام يبعث القلق في النفس المكذبة ، ويحملها على التظن وإعمال الخيال والذهاب معه مذاهب شتى في تصور الواقع الموعود ، وفي التفصيل مكاشفة صريحة لا تدع لأمريء أثارة من تعلل أو انخداع)^(١)

وللقصة في جميع مجالاتها بسطاً وإيجازاً ، غاية ثابتة لا تتغير ولا تبدل وهي بسط العقيدة وتقريبها إلى أذهان الناس ووجداناتهم .. وتوصيلها هذه المفاهيم للمسلمين الذين يقفون مع الرسول في صراعه ضد الجهل والجهالة العمياء - والعناصر التي تتضمنها القصة القرآنية في جميع أحوالها لا تتغير ، فكل ما يخدم القصة ويرز جوهرها ، واردة في القصة ، لا حذف ولا انتقاص .. وكل ما يخرج عن الجوهر في القصة أو يعطل تأثيرها أو ينتقص منه أو يحركه من مجاله ونسقه بحيث يغطي عليه موقف آخر .. لا نجده في القصة القرآنية «سواء كان هذا النبأ طويلاً متعدد الحلقات ، يمتد لزمان غير قصير ، وتتداخل في تطوراتها شخصيات كثيرة ، كقصة يوسف عليه السلام التي استأثرت بسورة كاملة ، أو كان من آيتين أو ثلاث أو

(١) مع القرآن الكريم - دراسة مستلهمة ص ٣٦ .

عشر كالأنباء والأحاديث العديدة التي انتشرت في قصص القرآن .. (١)

● ولعل الإيجاز هو السمة المميزة لما نزل من القصص القرآني في بداية الدعوة ذلك أن الله سبحانه جعل لأهل مكة قصصاً مميزة تتلاءم مع البيئة . فالبيئة وثنية ، والقوم يعبدون الأصنام ، وطال عهدهم بها ومصاحبتهم لها . أجيالاً وراء أجيال . حتى انطبعت قلوبهم بها وتشربت نفوسهم بطقوسها .. فقسفت القلوب وتحجرت المشاعر .. وأصبح اقتلاعهم من جذورهم يحتاج مجاهدة كبيرة . وصبراً طويلاً . وامتازت هذه القصص بالحدث الموجز ، واللفظ الموقع ، والرين الصوتي ، والتقل السريع حتى يحدث تأثيره في النفوس . بما تتضمنه من زجر ووعيد وإثارة . ذلك أن الغرض الدني الكبير هو تحذير مشركي مكة من العناد والضلال والاصرار على الباطل ، فجاء تخويفهم عبر سرد أحداث ما سبقهم من الأمم الضالة . تلك الأمم البائدة التي خالفت أمر الله وكذبت رسله فحق عليها العذاب والبلاء .. قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادِ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ . وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ . وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ . الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ . فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ . فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ . إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ ۝ ﴾ (٢)

● وسورة الفجر مكية ، ولقد ذكرت الآيات قصص بعض الأمم

(١) الإسلام والمذاهب الحديثة ص ١٧٧/١٧٦ .

(٢) سورة الفجر آيات ٦ - ١٤ .

الغابرة كقوم عاد وثمود وقوم فرعون .. وبينت ما حل بهم من عذاب . ولقد تتابعت القصص بعضها وراء بعض في سرد موجز ولكنه يحمل المعنى المراد .. والتأثير المطلوب حيث تقبض على الأنفاس ، وتقطع على الضالين والكفرة الجدل واللجاج وتخترقهم مباشرة في جوهر الوثنية الضالة ، وترصد العقاب الإلهي بهم . إن هذه الآيات القصار قد جمعت مصارع أقوى الجبارين الذين عرفهم التاريخ القديم ..

ولا شك أن التصريف البياني أعطى دلالات جمالية للنص القصصى السريع التنقل .. حيث بدئت الآيات بالاستفهام المنفي .. المتبوع بالاستفهام عن الكيفية والهيئة .. مما يثير الانتباه ، ويلفت الأذهان ، ويثير الشوق إلى التوقع والتلقى ..

كما توسطت الرؤية بين الاستفهامين لتعطي دلالتين في المعنى .. الدلالة الأولى هي الرؤية الاسترجاعية عبر السرد الذي يقص قصصاً مجسدة ومشخصة كأنما تتحرك على مسرح الساحة .. أمام الذهن .. والرؤية المشاهدة المستقبلية التي ترى رأى العيان مصارع كفار قريش فيما بعد .. ومن ثم تلاءم التركيب الإضافي مع هذا المعنى فد (ربك) فيها دلالة الطمأنينة والأنس والراحة والإيناس والموازرة . فعاد تلك القبيلة البدوية المتصفة بالقوة والبطش ، والتي تميزت عن غيرها من البلاد وثمود القوة المتجبرة التي جعلت من الجبال والصخور قصوراً ، وفرعون موسى المتجبر الطاغية الجبار ، الذي تمكن من البلاد وسامها الذل والعذاب .. هؤلاء جميعاً أفسدوا وطغوا ، فظهر الله البلاد منهم ومن فسادهم حين صب الله

عليهم ألواناً من العذاب .. لتفيض الطمأنينة في قلوب المؤمنين وهم يواجهون الطغيان والضلال .

●● إننا نرى في هذه الآيات السردية نماذج من قدر الله في أمر الدعوة . (وقد كان القرآن - ولا يزال - يرى المؤمنين بهذا النموذج .. أو ذلك .. وفق الحالات والملابسات ، وبعد نفوس المؤمنين لهذا وذلك على السواء لتطمئن على الحاليين - وتتوقع الأمرين . وتكل كل شيء لقدر الله يجريه كما يشاء)^(١)

.. وحين تطورت الدعوة واشتجر الصراع قوةً وعنفاً .. ودخل الناس في دين الله ، وانتقلت الدعوة إلى مكان آخر بعد الهجرة .. أبرزت القصص القرآنية مجالات الصراع كاملة بين الرسل والأنبياء وبين أمهم .. وبرز الحوار واضحاً جلياً ، والقصة تُسرد في تمهل وأناقة ، تصوّر الصراع ، وتضمن الجدل ، وتعبر من الشخصية ، وتميل إلى البسط والتفصيل ، وتدعو إلى التأمل والتفكير .. وبرز على الساحة أهل الكتاب .. وهم قوم جاءتهم الرسالات السماوية السابقة .. من يهودية ومسيحية - وقد كانت عندهم البشارة برسول الله ﷺ .. إلا أنهم عاندوا واستكبروا ، ونال المسلمين منهم أذىً كبير .

وتنوعت القصص في هذا الطور بين حديث عن ماضى أهل الكتاب ، وبين حديث عن حاضر المسلمين في جهادهم ضد المشركين واليهود معاً - ولقد كثرت القصص التي تناولت فضل الله

(١) الظلال ج ٦ ص ٣٩٠٤ .

على بنى إسرائيل ، إذ نجاهم من بطش فرعون وجبروته ، وتولاهم
بكثير من النعم ، بالرغم من عصيانهم وعنتهم والحاحهم فى الشطط
والمساءلة ..

.. إن تفصيل القصة القرآنية وتنوعها فى الحدث والشخصية
والحوار والجو العام .. جاء موافقاً لمقتضيات الدعوة وتطورها ...
فحين اشتد الصراع بين الحق والباطل وهاجر المسلمون إلى الحبشة
هروباً من الأذى وألوان العذاب الشديد - كان الصبر على الأذى
وتحمل العناد ، مطلباً ضرورياً فى هذه المرحلة .. ولذلك نرى القصة
القرآنية تعرض النموذج المفصل عن ثبات موسى وصبره أمام فرعون
وقومه ..

قال تعالى : ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ اتَّبِعْ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .
قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ . قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُون . وَيَضْحِكُوا
صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ . وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ
فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُون . قَالَ كَلَّا فَإِذْهَا بِآيَاتِنَا إِنََّّا بِكُمْ مُّسْتَمِعُونَ .
فَأْتِ بِفِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أُنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي
إِسْرَآئِيلَ . قَالَ أَلَمْ نَرْبِكُمْ فِينَا وَلَبِدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عَمَرِكِ سِنِينَ .
وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ . قَالَ فَعَلْتُهَا إِذْنًا وَأَنَا
مِنَ الصَّالِينَ . فَفَرَرْتَ مِنْكُمْ لَمَّا خَفَتْكُمْ فَوْهَبٌ لِّى رَّبِّى حَكَمًا
وَجَعَلْنِى مِنَ الْمُرْسَلِينَ . وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىٰ أَنُ عَبَّدْتُ بَنَى
إِسْرَآئِيلَ . قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ . قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُّوقِنِينَ . قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمْعُونَ .
قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ . قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِى أَرْسَلَ إِلَيْكُمْ

مجنون . قال ربُّ المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون . قال لئن اتخذت الهاً غيري لأجعلنك من المسجونين ... «إلى قوله تعالى» ... وأنجيناً موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين . إنَّ في ذلك لآيةٌ وما كان أكثرهم مؤمنين . وإنَّ ربَّكَ هو العزيز الرحيم»^(١) ..
 .. وها نحن نرى كيف تحولت الإشارة القصصية في سورة الفجر إلى موقف قصصى كامل حافل بالأحداث ، والحوار ، والجدل العميق ، والتنقل في الزمان والمكان ..

وهذا النص القصصى الباهر ما هو إلا حلقة قصصية من حلقات قصة موسى مع بني إسرائيل .. والنص الذى أمامنا يمثل مواقف متعددة يرتبط بعضها ببعض الآخر .. دون لجوء إلى تفصيلات تعترض السياق السردى وتخل بوحده . فالحلقة هنا هى حلقة الرسالة والتكذيب ، وما كان من غرق فرعون وملئه عقاباً لهم على كفرهم ، ونجاة موسى ومن معه من المؤمنين من بني إسرائيل .

ولا شك أن ورود هذا النص القصصى وغيره في سورة الشعراء ، إنما جاء متلائماً مع موضوع السورة .. حيث عالجت السورة موضوع الرسالة بما يتضمنه من أصول الدين من توحيد وبعث ووحى ، كما سردت السورة ألوان التكذيب والمعادنة التى اتسم بها كفار مكة .. وتحدثت عن القرآن الكريم الذى أنزله الله هداية للخلق ، وذكرت موقف المشركين منه (فقد كذبوا به مع وضوح آياته وسطوع براهينه ، وطلبوا معجزة أخرى غير القرآن

(١) انظر سورة الشعراء آية ١٠ - ٦٨ .

الكريم عناداً واستكباراً ! (١) .. وإذا كان بدء السورة تتمثل في الحديث عن القرآن الكريم وموقف المشركين منه ومن صاحب الدعوة ، مروراً بذكر قصص الأنبياء في مواقف الرسالة والتكذيب والمؤازرة ووقوع العذاب على المشركين فلقد (ختمت السورة بالرد على افتراء المشركين ، في زعمهم أن القرآن من تنزيل الشياطين ليتناسق البدء مع الختام في أروع تناسق والتثام) (٢) ...

قال تعالى : ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين﴾ (٣)

ولقد وردت قصة موسى في كثير من السور القرآنية وفي كل مرة ترد فيها حلقة من حلقات القصة الطويلة (.. وكانت الحلقات التي تعرض فيها أو الإشارات متناسقة مع موضوع السورة ، أو السياق الذي تعرض فيه . وكانت تشارك في تصوير الموضوع الذي يهدف إليه السياق ..) (٤)

والحلقة القصصية المعروضة تغرى بالتحليل والتفصيل ولكننا هنا نشير مجرد إشارة إلى المواقف المتتابعة في هذه الحلقة ..

فالموقف الأول يمثل النداء وتلقى الرسالة ، ومناجاة قلبية بين موسى وربه .

والموقف الثاني يتمثل في مواجهة موسى لفرعون وملكه ومعه تلك الآية الخارقة آية العصا .

والموقف الثالث يتمثل في تجمع السحرة في موقف عصيب ،

(١) صفوة التفسير ج ٢ ص ٢٧٣ . (٢) المصدر السابق ص ٢٧٣ .
(٣) سورة الشعراء آية ١٩٢ - ١٩٥ . (٤) الظلال ج ٥ ص ٢٥٨٨ .

احتشد له القوم ومظنة التآمر كامنة فيه من قبل فرعون وسحرته .
والموقف الرابع : مشهد المباراة ، وهو مشهد حيّ حافل
بالمشاعر والانفعالات وفيه يعلن السحرة إيمانهم على حين يواجههم
فرعون بالوعيد .

والموقف الخامس : مسرى موسى بأهله في الليل البهيم هروباً من
فرعون ونقمته . وحشد فرعون لجنوده لملاحقة بنى إسرائيل قبل أن
يفلتوا منه .

والموقف السادس : يتمثل في المواجهة أمام البحر حيث ينفلق
البحر عن كتلتين هائلتين ، يسير بينهما موسى وقومه ، ثم ينطبق الموج
فيعرق فرعون وملؤه .

● ولقد تتابعت المواقف بعضها وراء بعض في حيوية أخاذة . منذ
تلقي الوحى بالرسالة ومواجهة فرعون ثم النهاية الحاسمة ..
تفصيل مطول حافل بالمواقف الحيوية ..

ومع ذلك فإن أهل الكتاب من بنى إسرائيل ظلوا يكيّدون
لِلرّسول ﷺ ويأتمرون على دينه .. بالرغم من النعم الجزيلة التى أنعم
الله بها عليهم ، وبالرغم من الإشارات التى وردت فى كتبهم عن
النبي وبعثه .. فجاء القرآن ليدين هذا المسلك فى الشخصية ، وبين
أنهم قوم يتصفون باللجاجة والشطط والخبث ونكران الفضل ،
والمغالاة فى تنبج الأمور وتأويلها على غير مرادها - ولعل ما ورد فى
قصة البقرة للدليل كافٍ على هذا المعنى (١) .

(١) انظر فصل القصة الإشارية .

● كما تنوعت أيضاً القصة القرآنية في المدينة .. فتحدثت عن حاضر المسلمين وغزواتهم .. ولقد حظيت غزوة الأحزاب بأسهاب وتفصيل لما تضمنته من كيد ومؤامرة . وما لابسها من ابتلاء ومحنة .. حيث تجمعت فرق المشركين يظاهروهم حلفاء من اليهود .. لكن الله كان لهم بالمرصاد حيث أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية ، قذفت الرعب في القلوب ، فانقلب الميزان ورجع المشركون بالهزيمة والخسران .

ولقي حلفاء الغدر والحيانة من اليهود جزاءهم الذي يستحقونه . وسجلت القصة القرآنية هذا الموقف الملحمي الهائل في سورة الأحزاب .. (١) وأدانت موقف اليهود إدانة واضحة ، وحق عليهم العذاب فأُنزلوا من حصونهم وقلاعهم وألقى الله الرعب في قلوبهم بنقضهم عهدهم للرسول وتأمرهم ضده ، فقتل رجالهم من المقاتلين ، وسبيت نساؤهم وذريتهم وورث المسلمون أرضهم ومتاعهم .

قال تعالى : ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا . وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّوها وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝﴾ .

.. ولقد نتج عن الاجال والتفصيل الذي ذكرناه سابقاً أن تنوعت أشكال القصة القرآنية تنوعاً يتراوح بين الطول والقصر ..

(١) سورة الأحزاب آية ٩ - ٢٧ .

ففتح عن ذلك تنوع واضح في شكل القصة القرآنية .. فوجدنا القصة الملحمية الطويلة الزاخرة بالأحداث والصراع ، والجلد ، والمأساة ، والحارقة ، والوجدانات المتضاربة ، والشخصيات المتعددة .. في إطار شخصية واحدة ، شخصية فاعلة ، يدور حولها الصراع .. تحركه وتقوده وسط جو هائل من الفزع والرعب . والخوف والرجاء ، والنجاح والفشل .. تلك الشخصية الفاعلة .. هي شخصية الرسول .. الذي يحمل رسالة ربه . إلى البشر .. ونموذج هذا النوع من القصص الملحمي الطويل .. قصة موسى عليه السلام .. وهي قصة مكتملة في البناء التعبيري ورسم الشخصية .. حيث وردت بجميع تفاصيلها منذ المولد حتى وقوفه بقومه أمام الأرض المقدسة .. حيث كتب على نبي إسرائيل التيه أربعين عاماً . ولقد عرض القرآن هذه القصة الطويلة على حلقات تتوزع سوراً قرآنية عديدة .. بدءاً بالإشارة وإنتهاءً بالتفصيل والأطنا ب .. وقد جاءت فيما يربو على ثلاثين سورة قرآنية ما بين مكة ومدنية^(١) . والقصة لم تأت دفعة واحدة ، وإنما تكررت على مساحة السور القرآنية . مرحلة وراء مرحلة ، وإشارة يتبعها تفصيل ، وموقف يتبعه موقف .. وفي كل موضع يتلاءم الموقف القصصى مع السياق وموضوع السورة . فالتناسق بين حلقة القصة التي تعرض والسياق الذي تعرض فيه هو الغرض المقدم وهذا يتوافر دائماً ، ولا يخل بالسمة الفنية إطلاقاً . (على أن هناك ما يشبه أن يكون نظاماً مقررأ في عرض الحلقات المكررة من القصة الواحدة ، فعظم القصص

(١) انظر تفصيل آيات القرآن الحكيم ص ٨٣ - ١٠١ .

يبدأ بإشارة مقتضبة ثم تطول هذه الإشارات شيئاً فشيئاً ثم تعرض حلقات كبيرة تكوّن في مجموعها جسم القصة ، وقد تستمر الإشارات المقتضبة فيما بين عرض هذه الحلقات الكبيرة عند المناسبات حتى إذا استوفت القصة حلقاتها عادت هذه الإشارات هي كل ما يعرض منها !^(١)

.. ويأتى نوع آخر متوسط الطول يتوزع أيضاً على السور القرآنية على نفس المنهج القرآنى ونظام القصة فيه . ويتمثل ذلك فى قصتى إبراهيم ويوسف عليهما السلام ، إلا أن الأخيرة وردت دفعة واحدة ..

فقصة إبراهيم عليه السلام تعرض فى حلقات التزاماً بالمنهج السياقى القرآنى وملاءمته لموضوع السورة .. فتمتة حلقة عن إيمانه وأخرى عن المحاورة والجدل حول الأصنام واعتزال القوم ، وثالثة عن إسماعيل وإسحاق والذبح والفداء ، ورابعة عن بناء الكعبة والأذن بالحج وخامسة حول الأحياء والبعث ..^(٢)

وهكذا تتابع الحلقات فى سور كثيرة متنوعة لتكون جسم القصة ككل .. وكذلك تبدأ قصة يوسف منذ موقفه مع اخوته متتابعة حلقة وراء أخرى دون توزع أو تكرار .. لتحكى قصة يوسف والحن التى مرّ بها ومؤازرة الله له حتى ممكن له فى الأرض .
.. وهناك قصص قصيرة حافلة بالتفاصيل كقصة نوح عليه

(١) التصوير الفنى فى القرآن ص ١٥٦ .

(٢) انظر تفصيل آيات القرآن الحكيم ص ٦٤ - ٧٠ وأيضاً نظرات فى قصص القرآن ج ١ ص ١٢١ - ١٥٠ .

السلام حيث ذكر فيها تفصيلات الرسالة ودعوته لقومه بالإيمان ، واستكبار القوم ، وصنع السفينة والطوفان وغرق الابن .. الخ . وهناك قصص قصيرة بحتة .. تعرض حلقة الرسالة وحدها حيث تتضمن الرسالة ، والدعوة إلى التوحيد والحوار حول العقيدة وتكذيب القوم ثم إهلاكهم جميعاً .. وقصة هود ، وشعيب ، نموذجان لهذا النوع من القصص ..

وتبقى القصة القصيرة جداً فنذكر الموقف القصصى ذكراً موجزاً غاية الإيجاز .. كقصة أيوب عندما مسّه الضر واستغاثه بالله وشفائه ورد أهله إليه ، ولقد وردت قصته في سور ثلاث وفي آيات لا تتعدى سبعة^(١) .

قال تعالى : ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنَى الشَّيْطَانِ نَصَبٌ وَعَذَابٌ . ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ . وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولَى الْأَلْبَابِ . وَخَذَ بِيَدِكَ ضِعْفًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ ، إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ، نَعَم الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾^(٢)

فأيوب ينادى ربّه متضرعاً فلقد مسّه الشيطان بالأذى والمشقة . ويأتيه الأمر أن يضرب برجله الأرض فنبتت منها عين ماء فشرب منه واغتسل فذهب ما كان به من مرض . وأحيا الله له أولاده وورقه مثلهم حتى كثر نسله رحمةً من الله لصبره على البلاء ، وعظة وعبرة لأصحاب العقول المستنيرة ، ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج .

(١) انظر تفصيل آيات القرآن الحكيم ص ٧٤ .

(٢) سورة ص آية ٤١ - ٤٤ .

وجاءه الأمر أن يأخذ حزمة من الحشيش اليابس فيضرب بها زوجته ليبرّ يمينه . وذلك رحمة من الله به وبزوجته التي قامت على رعايته أثناء بلائه الذى صبر عليه وأتاب فيه إلى ربه ..

... إن من أبرز خصائص الأسلوب القرآنى بعامه (واسلوب الحكاية والرواية فى أنباء الغيب والدول الغابرة . وأحاديث الرسل والأنبياء عليهم السلام بخاصة ، هو خاصية الإيجاز المعجز ، الذى ينقل إليك المعنى كاملاً ومؤثراً ، وحيّاً وموحياً ، ولكن فى أقل القليل من الألفاظ مع اسقاط مئات من التفاصيل الجزئية التى كانت تشغل حتماً أى كاتب مهما بلغت قدرته على الإيجاز) ... (١)

وهكذا تنوع القصة القرآنية من حيث الشكل الفنى تنوعاً يتراوح بين الإجمال والتفصيل وفى كل حالاتها ، يتلاءم النوع مع السياق والنسق التعبيرى والغرض الدينى .

.. ولأن الهدف الدينى هو مقصد القصة القرآنية ، فلقد تنوعت القصة وتلونت فى طريقة العرض ما بين الإجمال والتفصيل ، الطول والقصر .. وكذلك زمان القصة وحدثها .. ذلك أن القرآن الكريم إيفاء للغرض الدينى كالفنى معاً ، يورد من القصة الحلقة التى تتنامى وموضوع السورة وتتلاءم والغرض الدينى . واختلفت بدايات القصص .

فنجد - مثلاً - أن القصة القرآنية قد وردت منذ البدء .. أى

(١) القصة القرآنية ص ٥٦ فتحى رضوان .

منذ ميلاد الشخصية الفاعلة ، محور القصة كلها .. وإن حلقة الميلاد هنا ، قد سجلتها القصة لما تتضمنه من عظة وعبرة - ودلالة دينية سامية - وثمة قصص قرآنية تأتي حلقة الميلاد فيها بارزةً بروزاً في إطار السياق القصصى العام - ومنها قصة آدم وقصة ميلاد عيسى عليه السلام وقصة ميلاد موسى عليه السلام .

فميلاد عيسى عليه السلام يعرض في تفصيل كامل لأن «مولده هو الآية الكبرى في حياته» ولأن هذا المولد كان مثار الجدل والخلاف ، وكان سبباً للاختلاف والفتنة ، وتوزع الناس في توجهاتهم الدينية .

قال تعالى : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا . قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا . قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا . قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا . قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾^(١)

والآيات القرآنية تعرض القصة العجيبة والمعجزة الخارقة ، فريم العذراء تنجب طفلاً من غير أب وقد شاءت الحكمة الإلهية أن تبرز ذلك الاعجاز ليظل أثراً للقدرة الإلهية ماثلاً أمام الأبصار يحمل عظمة الواحد القهار . ولتتواصل القدرة في إنطاق الله للوليد وهو طفل في المهد ثم ما جرى من أحداث غريبة رافقت الميلاد .

(١) سورة مريم آية ١٦ - ٢١ .

إن الفتاة الطاهرة الزكية تفاجأ برجل أمامها ، يهزها قوله هزاً
عنيفاً ويشير خجلها وحياءها الأنثوى .. إنه يريد أن يهبها غلاماً ،
وهما الآن في خلوة ولتكن شجاعة وتدافع عن نفسها ، وتسأل
كيف يحدث ذلك ، دون رجل يتزوجني ، وما علم أحد عنى إلا
خيراً ، نقاءً وطهرًا ، إن حسم الموقف يقتضى المواجهة .. وبأنى الرد
واضحاً - إن ذلك أمر هين وهو على الله يسير ، فجيئه دلالة للبشر
على قدرة الله ورحمته ببعثه نبياً يهتدى الناس به ، وهو أمر مقضى
في علم الله .

ولقد استتبع هذا الميلاد المعجز تباین في التوجه الدينى ، ذلك
التوجه الذى أدى إلى انحراف العقيدة فالت إلى شبهات في التأليه ،
وقد أبرزت الآيات القرآنية ذلك الانحراف في العقيدة على لسان
عيسى عليه السلام حيث بعث الله خالقه بعبوديته وشهد بحقيقة
الرسالة إلى قومه .. ثم يوكل الأمر كله إلى الله ..

قال تعالى : ﴿... ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله
رَبِّي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت
الراقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد﴾^(١)

.. وثمة تناسق كامل بين البدء والنهاية ، بين الميلاد والوفاة ،
بين ذكر الحلقة الأولى والحلقة الأخيرة .. فالبدء ديني وفي معاً ..
ديني لأنه يحمل معجزة الله في خلق عيسى ، كما حمل آدم المعجزة
نفسها .. وترتب على هذا البدء تنوع في تقبل بني إسرائيل لها فمنهم

(١) سورة المائدة آية ١١٧ .

من آمن به ، ومنهم من ضلّ ، ثم جاء الانحراف في العقيدة ، الأمر الذي تبرأ منه عيسى نفسه وأدان به قومه ، وأشهد الله على ذلك ، وترك الأمر لله .. في العذاب ، أو العفو- وتنامت لحظة الوفاة حيث رفع الله عيسى على حين شبّه بغيره في عيون الآخرين .. فجاء المولد معجزة ، والوفاة معجزة ، لأنه خرق لناموس الحياة ، ولم يدرك الناس هذا الأمر الاعجازي في سنن الله ، فتشتت تصوراتهم في العقيدة ، وأدانوا أنفسهم بأنفسهم .

وفنيا فإن التناسق وارد تماماً .. بين لحظة الميلاد ولحظة التوفى ، فبدأت القصة كاملة ونامية نمواً عضوياً ومتكاملاً .. لقد جاء الختام ليسجل حركة الناس ومشاعرهم ، ويدين ذلك كله وفقاً للغرض الديني ..

.. وقد تُعرضُ القصة القرآنية في زمن متأخر نسبياً . غافلة عن لحظة الميلاد . ولما في هذا التأخر النسبي من دلالة .. تكمن في بداية الحدث نفسه ، الذي هو مناط القصة وتطورها ..

.. فقصة إبراهيم عليه السلام تبدأ وهو فتى كامل الفتوة يستقرى كواكب السماء علّها هديه إلى ما يشتجر في ضميره من صراع حول العقيدة . طلباً للوحدانية والألوهية .. ذلك أن عبادة الكواكب مما كان عليه بعض قومه .. كعبادة الأصنام أيضاً .. وحين يأفل كل كوكب ، يؤمن أن الله واحد ، ويفىء إلى أمر الله .. ويبدأ الدعوة إلى عبودية الله ، وتوحيده^(١)

(١) انظر نظرات في قصص القرآن ج ١ ص ١٢١ وما بعدها .

.. وتبدأ قصة يوسف وهو غلام صغير ، حين يرى الرؤيا التي كانت وراء قصته كلها ، ودافعاً إلى مجريات الأحداث التي حدثت والحن التي وقع فيها حتى مكّن الله له في الأرض .

قال تعالى : ﴿إِذ قَالَ يَوْسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ . قَالَ يَا بَنِيَ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ، إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١)

.. تلك بداية القصة ، الرؤيا العجيبة التي رآها يوسف .. أحد عشر كوكباً مع الشمس والقمر ، تخر ساجدة له ..

.. قال المفسرون : الكواكب الأحد عشر كانت إخوته ، والشمس والقمر أبواه .. ولقد فهم يعقوب عليه السلام جوهر الرؤيا فحذر يوسف من قصها على إخوته حتى لا يكيدوا له ، ويحتالوا لإهلاكه .. لأن القص سيؤدى إلى إثارة الحسد في القلوب .. وتمضى القصة ، مرحلة بعد مرحلة . وحدثاً بعد حدث ، ومحنة بعد محنة ، لتورد ألواناً من البلاء ، وأنواعاً من النكبات . وضروباً من الحن ، ويوسف المبتلى بذلك صابر على البلاء ، حتى يهيه له الله أخيراً سبيل العزة ، ويمكن له في أرض مصر ..

ولقد حددت الرؤيا مسرى القصة ، كما حددت الاتجاه الذي سيسلكه يوسف في حياته ، وهو اتجاه مقدر من الله سبحانه لحكمة

(١) سورة يوسف آية ٤ - ٥ .

عليها - وتأتى نهاية القصة ، تبياناً وتوضيحاً لبدآيتها ، وكشفاً لغموض الرؤيا وفك رموزها ومعانيها . مما يأتى تكاملاً فى الأداء ، وتناسقاً فى مسرى الحدث ، وتوحداً فى القصة ، موضوعاً ، وأداة وفعلاً .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مَعِيَ فِي الْمَكَانِ الَّذِي كُنَّا مُسْكِنِينَ وَرَفَعُ الْيُوسُفُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۚ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَلَاءِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝١١﴾

والآيات تتحدث عن محبى أسيرة يعقوب إلى مصر .. ودخولهم على يوسف وقد مكن الله له فى أرض مصر ، عزاً وسلطاناً . وتحققت الرؤيا التى رآها وهو غلام ، تحققت مشهداً محسناً ملموساً ، وذلك بسجود إخوته الأحد عشر مع أبيه وأمه .. واجتمع الشمل بعد فرقة ، وجاءت النهاية توضيحاً لبدآية غامضة رامزة تحمل قدراً كبيراً من التشويق وإثارة الذهن والوجدان معاً . .. لقد توافق مطلع السورة والختام فى السورة كما توافق مطلع الختام فى القصة وجاءت التعقيبات متناسقة مع موضوع القصة وطريقة أدائها .. فتحقق الهدف الدينى وتحققت السمات الفنية . «وقد بدأت القصة وانتهت فى سورة واحدة لأن طبيعتها تستلزم

(١) سورة يوسف آية ٩٩ - ١٠٠ .

هذا اللون من الأداء . فهي رؤيا تتحقق رويداً رويداً ، ويوماً بعد يوم ، ومرحلة بعد مرحلة فلا تتم العبرة بها ، كما لا يتم التنسيق الفني فيها ، إلا بأن يتابع السياق خطوات القصة ومراحلها حتى نهايتها .^(١)

وثمة نوع آخر من القصة القرآنية يبدأ عرضه في حلقة متأخرة .. وفي هذا النوع من القصص ، لا تُعرض إلا حلقة الرسالة والدعوة إلى القوم بعبادة الله ، وإبراز وحدانيته . ومواجهة الرسل لأقوامهم وهم ينكرون ولا يعبأون .. إنها الحلقة الوحيدة في حياة هؤلاء الرسل لأنها أهم حلقة ، تحمل العبرة كاملة ، والهدف الديني واضحاً ..

وهذا النوع من القصص يتناول رسلاً وأنبياء أمثال نوح وهود وصالح وشعيب .. ولقد ذكرنا بعضاً من هذه القصص خلال هذه الدراسة^(٢)

.. إن التنوع لقصصى في القرآن الكريم باب كبير يحتاج إلى توفر كامل لدراسته ، لأنه يتناول طريقة العرض القرآنية في السرد القصصى ، وإيراد الحدث بما يتضمنه من إجمال وتفصيل ، وخوارق ومفاجآت ، وفجوات تثير الذهن وتحمل الخيال على تجسيد المشهد وتصوره .. فضلاً عن طريقة العرض في تصوير الموقف والشخصية ، والحدث ورصد الانفعال والشعور .. ولكننا نخلص من ذلك كله إلى أن التعبير القرآني يؤلف بين

(١) الظلال ج ٤ ص ٢٠٣٧ .

(٢) انظر فصل القصة التاريخية .

الغرض الديني والغرض الفني ، في وحدة واحدة ، فالفن والدين
محوران كبيران يتغلغلان في أعماق النفس البشرية .. وإدراك الجمال ،
وتذوق الفن ، وحسن تلقيه وتذوقه دليل يوحى بمدى التأثير
الديني ، وسرعة النفاذ إلى جوهر النفس .



المراجع

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - تفصيل آيات القرآن الكريم : نقل محمد فؤاد عبدالباقى .
- ٣ - الكشف : الزمخشري .
- ٤ - صفوة التفاسير : محمد علي الصابوني .
- ٥ - في ظلال القرآن : سيد قطب .
- ٦ - الجامع الصحيح : الامام البخارى أبو عبدالله محمد بن اسماعيل .
- ٧ - جمع الفوائد : جمع : محمد بن محمد بن سليمان الورداني .
- ٨ - قصص الأنبياء : ابن كثير .
- ٩ - قصص القرآن : محمد أحمد جاد المولى .
- ١٠ - التصوير الفني في القرآن : سيد قطب .
- ١١ - مشاهد القيامة في القرآن : سيد قطب .
- ١٢ - خصائص التصور الإسلامى : سيد قطب .
- ١٣ - مع القرآن الكريم . دراسة مستلهمة : على النجدى ناصف .
- ١٤ - القرآن الكريم . كتاب أحكمت آياته ج ٢ : أحمد محمد جمال .
- ١٥ - لقرآن الكريم كتاب أحكمت آياته ج ٣ : أحمد محمد جمال .
- ١٦ - القصص الرمزية في القرآن : أحمد محمد جمال .
- ١٧ - منهج الفن الإسلامى : محمد قطب .
- ١٨ - القرآن المعجزة الكبرى : محمد أبوزهرة .
- ١٩ - التبيان في علوم القرآن : محمد علي الصابوني .
- ٢٠ - التعبير الفني في القرآن : د . بكرى شيخ أمين .

- ٢١ - سيكلوجية القصة في القرآن : د . التهامي نفرة .
- ٢٢ - قصص وعبر : محمد المجذوب .
- ٢٣ - القصص في الحديث النبوي : محمد بن حسن الزير .
- ٢٤ - الإسلام والمذاهب الحديثة : فتحي رضوان .
- ٢٥ - القصة القرآنية : فتحي رضوان .
- ٢٦ - السرد القصصي في القرآن : ثروت أباطة .
- ٢٧ - المعاني الثانية في الأسلوب القرآني : د . فتحي عامر .
- ٢٨ - دراسات نفسية وتأملات قرآنية : د . عزت الطويل .
- ٢٩ - الإنسان في القرآن الكريم : عبدالكريم الخطيب .
- ٣٠ - علم النفس : د . جميل صليبا .
- ٣١ - الصورة الأدبية : د . مصطفى سويف .
- ٣٢ - المذاهب الأدبية : د . نبيل راغب .
- ٣٣ - نظرات في قصص القرآن ج ١ : محمد قطب عبدالعال .
- ٣٤ - بحلة (منبر الإسلام) : مايو ١٩٨٦ .
- ٣٥ - الفن القصصي في القرآن الكريم : محمد أحمد خلف الله ط ١ .

الفهرس

٦	١ - مدخل
١٠	٢ - أنواع القصة القرآنية
١٣	٣ - القصة المثل
٣٠	٤ - القصة التاريخية
٥٥	٥ - القصة التعليمية
٨١	٦ - القصة النفسية
١٢٤	٧ - القصة الإشارية الرمزية
١٥٦	٨ - قصة اليوم الآخر
١٧٨	٩ - القصة الوعظية
١٩٤	١٠ - التنوع القصصى

صدر من هذه السلسلة

- ١ - تأملات في سورة الفاتحة الدكتور حسن باجودة
- ٢ - الجهاد في الاسلام مراتبه ومطالبه الأستاذ أحمد محمد جمال
- ٣ - الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين الأستاذ نذير حمدان
- ٤ - الاسلام الفاتح الدكتور حسين مؤنس
- ٥ - وسائل مقاومة الغزو الفكري الدكتور حسان محمد مرزوق
- ٦ - السيرة النبوية في القرآن الدكتور عبد الصبور مرزوق
- ٧ - التخطيط للدعوة الاسلامية الدكتور محمد علي جريشة
- ٨ - صناعة الكتابة وتطورها في العصور الاسلامية الدكتور أحمد السيد دراج
- ٩ - التوعية الشاملة في الحج الأستاذ عبد الله بوقس
- ١٠ - الفقه الاسلامي آفاقه وتطوره الدكتور عباس حسن محمد
- ١١ - لمحات نفسية في القرآن الكريم د. عبد الحميد محمد الهاشمي
- ١٢ - السنة في مواجهة الأباطيل الأستاذ محمد طاهر حكيم
- ١٣ - مولود على الفطرة الأستاذ حسين أحمد حسون
- ١٤ - دور المسجد في الاسلام الأستاذ محمد علي مختار
- ١٥ - تاريخ القرآن الكريم الدكتور محمد سالم محيسن
- ١٦ - البيئة الادارية في الجاهلية وصدر الاسلام الأستاذ محمد محمود فرغلي
- ١٧ - حقوق المرأة في الاسلام الدكتور محمد الصادق عفيفي
- ١٨ - القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته [١] الأستاذ أحمد محمد جمال
- ١٩ - القراءات أحكامها ومصادرها الدكتور شعبان محمد اسماعيل
- ٢٠ - المعاملات في الشريعة الاسلامية الدكتور عبد الستار السعيد
- ٢١ - الزكاة فلسفتها وأحكامها الدكتور علي محمد العماري
- ٢٢ - حقيقة الانسان بين القرآن وتصور العلوم الدكتور أبو اليزيد العجمي
- ٢٣ - الأقليات المسلمة في آسيا وأستراليا الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
- ٢٤ - الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر الدكتور عدنان محمد وزان
- ٢٥ - الاسلام والحركات الهدامة معالي عبد الحميد حمودة

- ٢٦- تربية النشء في ظل الاسلام
٢٧- مفهوم ومنهج الاقتصاد الاسلامي
٢٨- وحي الله
٢٩- حقوق الانسان وواجباته في القرآن
٣٠- المنهج الاسلامي في تعليم العلوم الطبيعية
٣١- القرآن كتاب أحكمت آياته [٢]
٣٢- الدعوة في الاسلام عقيدة ومنهج
٣٣- الاعلام في المجتمع الاسلامي
٣٤- الالتزام الديني منهج وسط
٣٥- التربية النفسية في المنهج الاسلامي
٣٦- الاسلام والعلاقات الدولية
٣٧- العسكرية الاسلامية ونهضتنا الحضارية
٣٨- معاني الأخوة في الاسلام ومقاصدها
٣٩- النهج الحديث في مختصر علوم الحديث
٤٠- من التراث الاقتصادي للمسلمين
٤١- المفاهيم الاقتصادية في الاسلام
٤٢- الأقليات المسلمة في أفريقيا
٤٣- الأقليات المسلمة في أوروبا
٤٤- الأقليات المسلمة في الأمريكتين
٤٥- الطريق إلى النصر
٤٦- الاسلام دعوة حق
٤٧- الاسلام والنظر في آيات الله الكونية
٤٨- دحض مفتريات
٤٩- المجاهدون في فطاني
٥٠- معجزة خلق الانسان
٥١- مفهوم القيادة في إطار العقيدة الاسلامية
٥٢- ما يختلف فيه الاسلام عن الفكر الغربي والماركسي
٥٣- الشورى سلوك والالتزام
٥٤- الصبر في ضوء الكتاب والسنة
٥٥- مدخل إلى تحصين الأمة
- الدكتور محمد محمود عمارة
الدكتور محمد شوقي الفنجري
الدكتور حسن ضياء الدين عتر
حسن أحمد عبد الرحمن عابدين
الأستاذ محمد عمر القصار
الأستاذ أحمد محمد جمال
الدكتور السيد رزق الطويل
الأستاذ حامد عبد الواحد
عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني
الدكتور حسن الشرقاوي
الدكتور محمد الصادق عفيفي
اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ
الدكتور محمود محمد بابلي
الدكتور علي محمد نصر
الدكتور محمد رفعت العوضي
د. عبد العليم عبد الرحمن خضر
الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
الأستاذ محمد عبد الله قودة
الدكتور السيد رزق الطويل
د. محمد عبد الله الشرقاوي
د. البدراوي عبد الوهاب زهران
الأستاذ محمد ضياء شهاب
الدكتور نبية عبد الرحمن عثمان
الدكتور سيد عبد الحميد مرسي
الأستاذ أنور الجندي
الدكتور محمد أحمد البابلي
أسماء عمر فديع
الدكتور أحمد محمد الخراط



- ٥٦- القرآن كتاب أحكمت آياته [٣]
- ٥٧- كيف تكون خطيباً
- ٥٨- الزواج بغير المسلمين
- ٥٩- نظرات في قصص القرآن
- ٦٠- اللسان العربي والاسلامي معاً في مواجهة التحديات
- ٦١- بين علم آدم والعلم الحديث
- ٦٢- المجتمع الاسلامي وحقوق الانسان
- ٦٣- من التراث الاقتصادي للمسلمين [٢]
- ٦٤- تصحيح مفاهيم حول التوكل والجهاد
- ٦٥- لماذا وكيف أسلمت [١]
- ٦٦- أصلح الأديان عقيدة وشريعة
- ٦٧- العدل والتسامح الاسلامي
- ٦٨- القرآن كتاب أحكمت آياته [٤]
- ٦٩- الحريات والحقوق الاسلامية
- ٧٠- الانسان الروح والعقل والنفس
- ٧١- كتاب موقف الجمهوريين من السنة النبوية
- ٧٢- الاسلام وغزو الفضاء
- ٧٣- تأملات قرآنية
- ٧٤- الماسونية سرطان الأمم
- ٧٥- المرأة بين الجاهلية والاسلام
- ٧٦- استخلاف آدم عليه السلام
- الأستاذ أحمد محمد جمال
- الشيخ عبد الرحمن خلف
- الشيخ حسن خالد
- محمد قطب عبد العال
- الدكتور السيد رزق الطويل
- الأستاذ محمد شهاب الدين الندوي
- الدكتور محمد الصادق عفيفي
- الدكتور رفعت العوضي
- الأستاذ عبد الرحمن حسن حبيكة
- الشهيد أحمد سامي عبد الله
- الأستاذ عبد الغفور عطار
- الأستاذ أحمد المخزنجي
- الأستاذ أحمد محمد جمال
- محمد رجاء حنفي عبد المتجلي
- الدكتور نبیه عبد الرحمن عثمان
- الدكتور شوقي بشير
- الشيخ محمد سويد
- الدكتورة عصمة الدين كركر
- الأستاذ أبو إسلام أحمد عبد الله
- الأستاذ سعد صادق محمد
- الدكتور علي محمد نصر

طبع مطابع رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة

